الطبعة
8

أحمد سلامة

محطة الرمل

رواية



دار دَوِّنْ

مَحَطَّة الرَّمْلِ

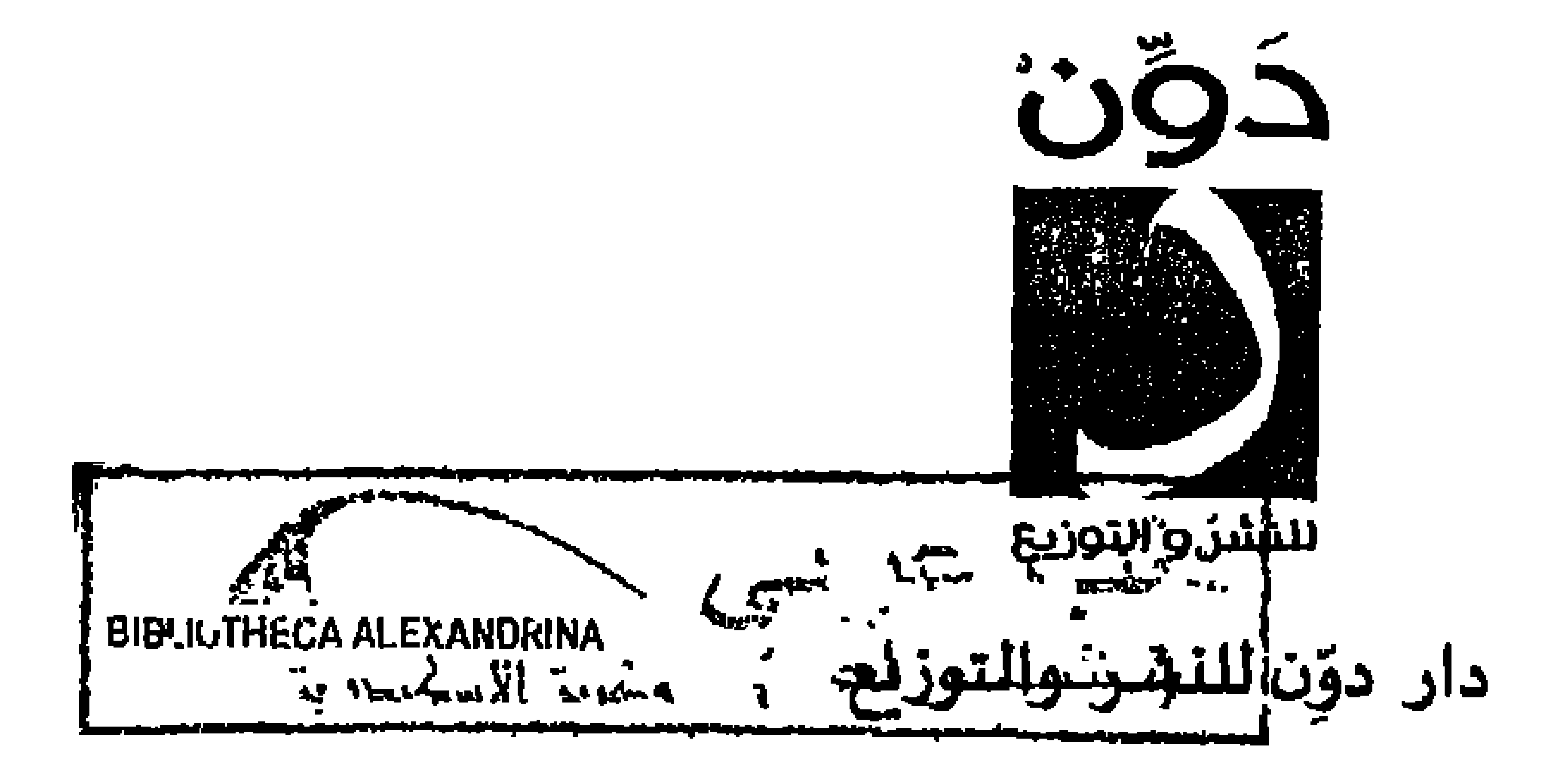
الطبعة الأولى: سبتمبر 2013
الطبعة الثامنة: ديسمبر 2015
رقم الإيداع: 10478/ 2013
الترقيم الدولي: 3-28-6426-977-978
تصحيح لغوي: محمود الغنام
تصميم الغلاف: كريم آدم

تليفون: 01020220053
E-mail: info@dardawen.com
www.dardawen.com

مَحَطَّةُ الرَّمْلِ

رواية

أحمد سلامة



دار دوِّن للنشر والتوزيع

إهداء

إلى الطيبين،
رِفقاً بأنفسكم،
وبِنا..!!

أحمد سلامة

(كُلُّ الأَرْوَاحِ جَمِيلَة.. وَكُلُّهَا طَيِّبَة)

بَهـَاء طَاهِر

***

(إنَّ جروحَ الماضي لتُذكِّرنا دومًا بأنَّ الماضي قد كان حقًّا)

توماس هاريس

المحبَّة الحقيقية لا تـُطلَب.. لا تـُمنـَح.. ولا تـُهدى..

هي فقط.. تحدُث.



(١)
نـور

قالت لي "زُهرة" فـي حماسٍ مصطنع ونحن واقفان في الملجأ انتظارًا لـ"حبيبة":

ـ اسمع ما قاله أحدهم يومًا وهو يناجـي ربه: «قرِّبني إليك يا مولاي أجدْ صلاحي، وباعد بيني وبينهم ما استطاعت روحي أن تبتعد، تَنجُ إن كان قُدِّرَ لها نجاة».

ثم تابعَت وهي تنظر في وجهي بهدوءٍ وحزنٍ:

ـ أي جمالٍ هذا يا نورَ؟!

كنت شاردًا منها، هنالك، حيث هي ما زالت لا تعلم كل شيء بعدُ، قلت وراءها بعد صمتٍ قصيرٍ:

ـ «قرِّبني إليك يا مولاي.. هممم.. جميلٌ فعلًا».

وحتى لا أثير غضبها لشرودي فتتَّهمني باستخفاف أقوال محبيها كعادتنا، رُغم أنها كانت تستخدم بعض نصوصهم في تهدئتي بين حينٍ وآخر إذا ما هاجمتني نوبة ما ونحن معًا.

كان الأطفال في الملجأ حولنا يلهون ويصرخون في حدَّة تنزعني من شرودي كحديث زُهرة المتقطِّع بين شرود وشرود، وكنت أقدِّر لها محاولاتها الدائمة للتربيت على روحي بصبرٍ ورقةٍ، وهو ما لم يكن بجديد عليها منذ عرفتها، إلا أنني اليوم كنت عاجزًا تمام العجز عن محاولة إبداء أي رضًا مزيف.

كان لديَّ من الهم ما يكفيني، وكنت أعرف أن زُهرة ستقدِّر ذلك، ليس لديَّ من شكٍ في هذا، إلا أنها وحتى لو لم تقدِّر، لم أكن لأضغط على روحي اليوم أبدًا، ولو بالابتسام في وجه من هُمّ إلى روحي أقرب.

كل شيء سينتهي حيث بدأ، ثم نبدأ من جديد.. أنا،

وأنا فقط.. رُبَّما أعود لأحكي لزُهرة ولمنير مرَّة ثانية، عسانا نرجع إلى البداية، رُبَّما استطاعا أن يأخذا بيدي إلى زمن الوجع القديم.. دون ما جدًّ عليَّ.

هبَّت علينا ريحٌ خفيفة من البحر، فأسقطت في طريقها بعض الأوراق من الشجرة التي كانت فوقنا، وتساقط بعضٌ منها فوق كتفي زُهرة وشالها الوردي الجميل. فكَّرت في نفضها من فوق كتفيها لكني رغمًا عَنِّي لم أفعل! ثم مدَّت زُهرة يدها النقية إلى رأسي كمن تضرب الماء بمجدافٍ رفيعٍ من فوق قارب صيد، ومرَّرت بعض أناملها بخفَّة في شعري فطارت ورقة ما على عشب الأرض جوارنا متابعةً رحلة سقوطها أرضًا مع ما سبقها من أوراق، ثم تابعت الريح بقية لهوها بهم في حديقة الملجأ تحت أقدام الأطفال.

كانت الشجرة العجوز فوقنا من نوع النَّبِقِ المعمِّر، وهي من أشهر الأشجار المعمِّرة، وكنت أعلم عن الأشجار والنباتات الكثير، كان أبي يُعلِّمني عنها طيلة الوقت قبل أن يُعلِّمني الصيد، فأنسى الزرع والأشجار، وأنسى مشتل الزهور. وكنا نتمشى سويًّا في حديقة المزرعة على الحدود مع جيراننا من الفلاحين الفقراء، واضعًا إحدى

يديه الثقيلتين على كتفي وهو يشير بالأخرى إلى إحدى الأشجار الطويلة الرفيعة قائلًا:

ـ هذه «الكازورينا»، قوية وسريعة النماء، تطول سريعًا دون تفرعات كثيرة، ولذلك.. هي أصلح لأي شيء يا نور.

فكنت أردُّ في تلقائية وملل:

ـ هي أصلح للأسوار والحدود يا أبي.

فيبتسم متثاقلًا في رضًا مُزيَّفٍ، ثم يشير بسرعة وتحفُّزٍ إلى إحدى الأشجار الصغيرة داخل المشتل:

ـ وهذه يا نور.. ما اسمها؟؟ ذات الأزهار البيضاء هذه.

فأردُّ في زهو؛ لأنني لم أنسَ اسمها هذه المرَّة:

ـ هذه «برُوميا» يا أبي.. «برُوميا».

وأنا أشدِّد على مقاطع الأحرف ما استطعت؛ كناية عن الثقة.. فيتبسم دون مغالاة ويتابع:

ـ حسنًا.

ثم يعود بنا إلى أشجار الأسوار وأنواعها وطرق زراعتها

ومواقيت تقليمها وتهذيب الأفرُع والأغصان.. كان مولعًا بكل ما يمتُّ للأسوار بصلة ونحن صغار، لكنه لم يكن يلقِّن نوران أيَّ شيء إلى أن ماتت أمُّنا، وكنت مغصوبًا على المضي معه في دروسه هذه عن الأشجار والأسوار والزراعة والحرص من الفلاحين الخبثاء والجيران السارقين، وإن كانوا حتى من الأقارب، إلا أنني كنت أحب طقوس الصيد معه كثيرًا، وكنت أشعر بلذَّة ونشوة في سماع دويِّ الطلقات في المزرعة، وأتنفَّس بسعادة وزهو مع كل طلقة تُصيب هدفًا سليمًا أمامه أو حتى دون ملاحظة منه، كانت سعادة لنفسي خالصة منحني إياها بعد مذلَّة ومحايلة لم تطُل، وكنت أَعْجَبُ من رفضه للأمر في البداية، متعللًا بصغر سني وعدم مقدرتي على حمل السلاح، رغم ما بدا منه من رضًا وفخرٍ أمام العاملين في المزرعة بعد اتضاح موهبتي الموروثة في الرماية والقنص.. لكن هذه السعادة لم تدُمْ طويلًا بعد أن انتقلنا من لعبة قنص الأهداف الثابتة إلى هوايته الساديَّة في قنص الطيور، وهي تأكل من الأرض.

قالت زُهرة وهي تُزيل ورقة أخرى سقطت فوق رأسي ثم تلمس طرف خصلة جافة في شعري:

ـ عجّزت بدري يا ولد.. شعرٌ أبيضُ كثير هنا وهناك.. ارحم نفسك يا حبيبي من التفكير القاتل في الهمِّ.

حينما أنظر لزُهرة لم أكن أشعر أبدا أنها تكبرني عمرًا، يقف بيننا عِقد السنوات الذي تكبرني به غريبًا أمام نظرات من يعرفنا عن قربٍ.. إلا أن زُهرة كانت تحمل قلبَ أُمٍّ في تلك الزهرة البرِّية التي لا تكبر، ولم يستطع أحدٌ أبدًا مهما جنى من خبرة أن يُعطيها عمرًا حقيقيًّا أو محددًا.. لا بد وأن يضلَّ تقديره وهو ينظر إلى سوادٍ كثيفٍ لعينين عميقتين طيبتين كأعين الجَدَّاتِ، فيرحل بعيدًا إلى عمرٍ لم يعِشْه، ثم يصعد إلى حاجبين ثقيلين أكثر سوادًا من عينيها يجبيان بعنادٍ على بياض جبهتها ونوره وأخاديده الباهتة الخفية، ثم يبتعد ليصطدم بخديها المشدودين الرطبين كثمار الخوخ جمالًا وعذوبة، فيعود ليعيد حسبته من جديد.. أنوثة متكاملة ووقار في الحديث والإشارة وخفةٍ في الحركة والسكون، يحاول من كان ـ أيًّا كان ـ أن يحسب عمرها فلا يستطيع أن يُجبر نفسه على تجاوز رقمٍ مجاورٍ للثلاثين إلا بالقليل، ثم يخصم سنواتٍ بينه وبين نفسه على سبيل المجاملة

لها كأنثى جميلة ووحيدة، فيكتشف أنه سينطق برقمٍ لا يناسب إلا فتاة في مقتبل شبابها، فيصمت عاجزًا عن التقدير المقنع، ويزداد انجذابًا وتعلُّقًا دون أن يدرك كم يزيدها هذا حزنًا.

أول لقاءاتي بزُهرة كان الثاني لديها، لم ألمحها في المرَّة الأولى يوم افتتاح منير للجاليري الخاص به في الزمالك.. قالت لي زهرة بعدها إنني لم أغب عن عينيها يومها، وكان لشرودي في ملكوتي إلى تلك الدرجة التي جعلتني لا أشعر بمن تراقبني من بعيد في فضول، حتى تلك الممثلة التي فاجأت الجميع بحضورها، لم أعلم أنها أتت، وإنما أخبرني بذلك منير بعدها وهو يتباهى بجسد الحضور له وهي جواره يلتقطان الصور ويتمازحان دون قيدٍ أمام الجميع.

بعد الافتتاح ببضعة أيام كنت أرقد في فراشي منهكًا ألهث بعد انتهاء نوبة قصيرة أقلَّ قسوة مما اعتدته من تلك النوبات التي تتركني وجسدي مستنزفين تمامًا، كان رقم غريب يوحي بعدم الرد، وكنت قد أصبحت لا أردُّ حتى على من أعرفهم خاصة في تلك الساعة المتأخرة، خانتني يدي وفاجأني ما لديها من

قوة وفضول لتجيب عن هذا النداء الغريب، سمعتُ أنفاسًا بطيئة في بداية المكالمة ثم صوتًا دافئًا يخفي في طياته بعضًا من ألمٍ يسأل:

ـ دكتور نور؟

ألجمني سؤالها تمامًا، وهاجمتني علامات الاستفهام في تتابع فاق لهاثي من نوبتي، وتصارعت عشرات الأسئلة في وقتٍ واحد فلم أجد ردًّا سوىٰ «مَن؟!»، وكلي عجب ممن يملك رقم هاتفي هذا ويعلم عن كوني طبيبًا، وقد ظننت أنني نجحت في قتل هذه المعلومة عن الغرباء حتىٰ الآن، ولا يوجد أحدٌ سوىٰ نوران ومنير يعلمان عَنِّي الآن أي شيء..

قاطعني صوتها المتألِّم بوضوح هذه المرَّة وسألت في ريبة مرَّة ثانية:

ـ دكتور نور؟؟

كان لصوتها وقعٌ غريبٌ بأن أجيب أنني هو، سكنَ لهاثي تمامًا وحلَّت الحيرة الكاملة بدلًا منه، ووجدتني أسألها ثانية:

ـ «مَن؟»

فردَّت بسرعة:

ـ متأسفة للغاية يا دكتور، أعرف أنك لا تمارس عملك كطبيب حاليًا، وإن كنت تفعل فليس في تلك الساعة المتأخرة من الليل، ومع غريب في الهاتف، لكن منير أصرَّ أن أحدِّثك بشدة، وقالي لي إنك ستساعدني فور أن تعرفني.

لم أعقِّب على جملتها هذه بشيء، ولم أستوعب منها الكثير، فقط سألتها للمرَّة الثالثة بحزم وبعض الغلظة هذه المرَّة:

ـ «من يتكلم؟»

فردَّت بتنهُّد وإحباط:

ـ زُهرة يا دكتور، أنا مدام زُهرة، حَسبتك ستخمِّن وحدَك!.

ثم تأوَّهت بشدَّة..

تشاجرتُ مع منير بعدها مشاجرة خفيفة؛ بسبب هذا الإقحام الذي وضعني فيه، وذلك الإحراج الذي سبَّبه لزُهرة نتيجة لعناده أن نتعرَّف على بعضنا بأيَّة

صورة، ردَّ عليَّ يومها في نهاية العتاب مفسِّرًا:

ـصدِّقني، ستشكرني كثيرًا بعد ذلك على هذه الخدمة العظيمة، أنتما الاثنان لابد وأن تتعرفا على بعضكما، أنتما صديقان مقربان لديَّ، بل أقرب أصدقائي، ولن أهدأ حتى تصيرا صديقين أو حبيبين أو حتى عدوين، كونا ما تكونان عليه، لكن لابد وأن تُمنحا فرصة للقاءٍ كاملٍ.

أخفيت على منير يومها ذلك الفضول الذي انتابني تجاه صاحبة الصوت الدافئ المتأوِّه بعد منتصف الليل، لم أكن ممن يؤمنون بوقع الصوت على الروح، لكن دفئًا ما غمرني في صوت زُهرة، وهي تفسِّر لي أعراض شكواها وتحاول في خجلٍ بائنٍ إخفاء أنَّاتها بين طيات الشكوى، واطمأنَّ قلبي لأعراضها البسيطة وسهولة مداواة ما بها بسرعة، ولم أعد أذكر أكان قلقي الذي تسرَّب إلى نفسي ساعتها مخافة فشلٍ في تشخيص ما تشكو منه كطبيب، أم قلقًا على صاحبة الصوت الدافئ الذي حلَّ عليَّ في ليلة حزينة وحيدة من لياليَّ المعهودة.

بعد هذا كان اللقاء منتظرًا، نسَّق لنا منير مقابلة في الجاليري الخاص به مساءً في نهاية الأسبوعٍ؛ لأتمكَّن من

العودة إلى الإسكندرية يوم الإجازة، قاومت رغبة غير مبررة في التأنُّق ليلتها، وارتديتُ دون تناسق مبالغ، لكني سهَّيتُ نفسي متعمدًا ووضعت عطري المفضَّل بكثافة في نشوة لا أعرف لها سببًا ولا تليق بأيامي.

عند مدخل الجاليري كان الشارع شديد الهدوء كمعظم شوارع الزمالك، ذكَّرني ذلك بشوارع الإسكندرية في قلب الشتاء، لا ينقصنا سوى نسائم البحر ورائحة اليود، وكان ثمة بائع للزهور يغفو داخل محلٍ صغير متكومًا حول نفسه كمعطف بالٍ في وضع ثري لصورة رائعة، أما المحل نفسه فكانت جدرانه من الزجاج، فبدا مثل «بوكيه» كبير ملقىً في سكون ونظام تحت شجرة كافور عجوز كصاحب المحل أمام الجاليري، وكأن إحدى صديقات منير الرقيقات قد نسيته هنا بعد جلسة فنٍ - كما يقول - فصار تذكارًا جميلًا ملائمًا تمامًا لطبيعة المكان.

تردَّدت قليلًا في شراء باقة زهور لتلك الـ«زُهرة» التي لم أكن أعلم عنها شيئًا سوى جمال روح يحكي عنه منير دائمًا، وصوتٍ دافئٍ يمنِّيني بمساحة من الفضفضة الزائفة، والتي كنت أحتاج إليها بشدة تلك الأيام، وكنت لم أعد أثق بأحدٍ سوى منير، وهو قد ملَّ

شكواي المكررة، والتي لا يفهم لها سببًا.

نظرتُ إلى العجوز النائم ثانية وإلى الزهور التي أعرف معظمها، ثم تنبَّهت جديًّا إلى ما أنا مُقدِم عليه، فغضبت من نفسي بشدة، وانصرفت مسرعًا إلى الجاليري القابع بالدور الأرضي، وتوعَّدت نفسي باللوم على ما كنت أنتويه لاحقًا.

فور دخولي من باب الجاليري سمعت صوت منير قادمًا من غرفة بعيدة وهو يضحك ضحكات متقطعة بصوتٍ عالٍ، ثم تتبعه صاحبة الصوت الدافئ وهي تقول: «أكيد.. أكيد».. ثم تضحك هي الأخرى لكن في هدوء.

هبَّ منير يحتضنني كالعاصفة فور أن رآني وفي ودٍ مبالغ، وقد افترقنا فقط منذ بضعة أيام! وأخجلني بهذا الترحيب الفاضح بشدة، ثم التفتُ إلى زُهرة ونظرت في وجهها لأسلِّم عليها، كانت هالة من نور القديسين في وجهها وجبهتها تطغى بيسر على إضاءة الجاليري الخافتة بطبعها والمنعكسة على التماثيل واللوحات والأيقونات القبطية المعلَّقة فوق جدران المكان، أخذتني تلك الهالة

يومها ولم ترجع بي إلى الآن.. لاحظت هي أني لم أسلِّم مباشرة مأخوذًا بجمالها، فبادرت بترحاب ودود، وقالت بطريقتها التي اعتدتها بعد ذلك وحفظتها وهي تشعرك بمن يربت على ظهر قِطٍ وليد:

ـ أهلًا أهلًا يا دُوك.. أهلًا بمُنقذي.

تبسَّمت مرتبكًا، وقلت لها وأنا أدير عيني التي فضحتني:

ـ كان توعكًا خفيفًا ليس إلا.

لاحظت بعد دقائق قليلة أنها تبتسم طيلة الوقت، تبتسم وهي تسلم، تبتسم وهي تسأل، تبتسم حتى وهي تعاتب منير على شيءٍ ما، كانت فاتنة كما أُريد للفتنة أن تكون، وكنتُ لا أثق بأي إنسان في تلك الأيام، ولا حتى في نفسي، ولا أسمح لأحدٍ بدخول دائرتي بسهولة. أعتزل الناس قدر المستطاع، أحب القطارات والأماكن العامة فقط لامتلائها بالغرباء المريحين الذين لا يطلبون شيئًا، ولا ينتظرون مِنِّي أكثر من صمتي، أما بالنسبة لزُهرة فكنت قد قررت منذ رأيتها في هذا البورتريه الرائع الذي لم أرَ مثيله قَط

أن أفتح لها بعضًا من الأبواب دون الآخرين، فقط لو يصّدق منير، وتكون فعلًا روحًا جميلة وطيبة كما قال لي عنها مرارًا.

قالت زُهرة في وسط شرودي سائلة:

ـ لماذا لا تعمل بالطب حاليًا؟! أنت ما شاء الله عليكَ أنقذت روحي من ليلة عصيبة، ولا مبالغة في ذلك.

وتَّرَني سؤالها الذي أكرهه جدًّا كلما سُئلته، وتغيَّرت ببطء ملامح وجهي من الغموض الساكن المعتاد إلى شيء من العبوس والصمت، تسبَّب في إحراجها، فحاوَلتْ أن تنتشلني ونفسها من ذلك السؤال الغبي، وقالت:

ـ آسفة، لا أقصد تدخُّلًا وقحًا، هو فضول ليس إلا.

ثم أكملتْ بعد أن وجدتني لم أردَّ عليها إلا بشرودٍ أكثر:

ـ يبدو أنني ضايقتك بفضولي، دعني أصالحك بفنجان قهوة إذًا، هذه معلومة انتزعتها من منير انتزاعًا، وقال لي إنها رِشوتك الوحيدة.

ثم نظرتْ في وجهي عميقًا وهي تبتسم، فضحكت أنا رغمًا عني، ثم قامت إلى ركن ما في الجاليري، وأحضرت صينية نحاسية كبيرة عليها فناجين من الفخار وسبرتاية نحاسية تلمع كالذهب، وضعتهما على رفٍ جداري عريض، وأخذت تبحث بعينيها عن شيءٍ ما، وقالت لمنير دون أن تنقل بصرها إليه:

ـ الكنكة يا ولد؟ هل ضيَّعتها ثانية؟

فردَّ منير عليها، مشيرًا بيده ناحية الغرفة المجاورة لنا، وأعجبتني كلمة «يا ولد» منها بشدة، فابتسمت وضحكت في داخلي.

لمحني منير لحظتها، ولمعت عيناه في خبث وكأنه قد ضبطني معجبًا بتلك الجميلة، انتظر حتى خرجت زُهرة إلى الغرفة الأخرى لتحضر الكنكة، ثم قال وهو يلكزني في ركبتي:

ـ همم نقول مبروك؟؟

فرددت عليه ضاحكًا:

ـ اخرس.

كنتُ لا أترك أحدًا يُحضِّر لي قهوتي منذ أن كنت طالبًا

بالجامعة، اللهم إلا في المقاهي أو بيوت الغرباء التي لا تسمح معرفتي بأهلها أن أصنع قهوتي فيها بنفسي، أما بيوت الأصدقاء أو المعارف المقربين القليلين جدًّا فتقريبًا كنت أحفظ مطابخهم كلها، وأحيانًا ما يكون لَدَيَّ عند بعضهم نوع البُنِّ المفضل الذي أُحبُّه، حتى في افتتاح الجاليري عند منير، قمتُ وأعددتُ قهوتي رغم وجود عامل للبوفيه ذلك اليوم؛ لتلبية رغبات أصدقاء منير، وظنَّ بعضهم ساعتها أنني مساعدٌ لعامل البوفيه، وطلبوا مِنِّي قهوة فلم أمتنع، فأحيانًا قليلة ما كان يُسعدني أن أحضر القهوة بنفسي للآخرين.

لكنِّي هذه المرَّة لم أُخفِ على نفسي رغبتي الطاغية عندما عرضت زُهرة عليَّ عمل القهوة في أن أتذوَّقها، أخذتُ أتنقَّل ببصري بين لوحات الجاليري وبين تلك الجميلة التي تُعِدُّ القهوة أمامي، ويغمرنا صمت مريح ورائحة القهوة الطيبة تتصاعد في الغرفة، وأرضيتها الخشبية تمتصُّ الرائحة الزكية وتعلق بها رويدًا، تمدُّ زُهرة يدها البيضاء كالجنيات في الأساطير بين الحين والحين لتمسك بالكنكة وترجَّها ببطء ثم تضعها على اللهب ثانية، ومنير يثرثر في شيء تافه كعادته، وأنقل

عيني من فوق جسد زُهرة المغوي بسرعة قبل أن تلتفت إلينا وهي تبتسم كل دقيقة، وتقول: «هانت يا دوك.. هانت»، ثم تعيد الكرَّة مع الكنكة لتلك الطقوس - التي أُحِبُّها - مرَّة أخرى، ومنير يقول مازحًا:

- الله يسهّل لك يا عم نور.. مدام زُهرة هانم بجلالة قدرها تعمل لك قهوة قبل حتى أن تصبحا صديقين.

فتأخذني كلمة «مدام» للمرَّة الثانية والتي يصِرُّ منير على عدم تفسير موقفها لي، إن كانت متزوجة أم مطلقة أم ماذا، رغم أنه يعلم جيِّدًا أنني لم أكن أبغي عبثًا.

تصبُّ زُهرة القهوة الزكية في الفنجانين وهي تقول لمنير:

- اعمل انت لنفسك شاي أو اشرب ما تريد، النار هنا ضعيفة جدًّا.

ثم تأتي بصينية أصغر وتضع عليها الفنجانين، وتميل وهي تناولني الفنجان قائلة «تفضَّل»، ثم تثبت يديها الممتدة ناحيتي لحظة وتشتَمُّ شيئا ما في الهواء رافعة رقبتها لأعلى قليلًا كمن يبحث عن شيء في الفراغ ثم تكمل:

- أممم.. «Misericorde»، عطر المعذَّبين، لستَ بريئًا إلى هذا الحدّ يا دُكتور كما يدَّعي منير.

وتنظر إليَّ وهي تبتسم، فتزداد ضربات قلبي وقد اكتشفتُ إسرافي ومغالاتي في وضع عطري المفضل قبل أن آتي إلى هنا.

جلست زُهرة قبالتي جوار منير، وأشارت قائلة بطرف إصبع ملفوف كمن تعبث بآلة بيانو صغير: «ذُق، قل لي رأيك بصراحة»، وكنت أعلم أن قهوتها ستعجبني جدًّا، أخذت رشفة صغيرة مخافة أن أؤذي لساني فأخذني المذاق الطيب والرائحة التي تعينني دومًا على الوحدة، وقلت باندهاش:

- هائلة.. دون مجاملة.

فانتزعت منها ابتسامة اعتزاز وفخر بصنعها، وخالجني خاطر أنها عروس تَقدَّم أحدهم لخطبتها فأرادت أن تريه ما لديها من مهارة، لكن ما تأكدت منه هذه المرَّة أنَّ ابتسامتها كانت تختلف عمَّا اعتدته منها في دقائقنا القليلة التي قضيناها إلى الآن، كانت أكثر صدقًا وعذوبةً، وضعت فنجاني الصغير جانبًا، ثم نظرتُ في عينيها مباشرة وأطلقت أول

سهامي عليها دون عمل حساب لمنير، وقلت:

ـ أعتقد أني شخص محظوظ بشدة أن أجلس مع جميلة مثلك أرشف قهوة صنعتها خصيصًا لي بيديها دون معرفة سابقة، يا لي من محظوظ فعلًا.

ثم غُضّت بعيني أكثر حتى أرى وقع كلماتي عليها، فلم تُحرِّك ساكنًا وتبسَّمت بنوع من التحفظ هذه المرَّة، وردَّت بشبه اقتضاب «ميرسي».

أصابتني خيبة أمل صغيرة، ثم اجتذب منير الحوار إلى كلام عن الفن الحديث واللوحات المعلقة على الجدران، وأشار إلى لوحة مغبرَّة الزجاج على الجدار لثلاثة من القديسين بهالاتهم الملائكية المميَّزة حول رؤوسهم، وكنت أذكر هذه اللوحة جيِّدًا لكني لم ألمح وجودها إلى أن أشار إليها منير، وقال: «فاكر؟»، وهو يبتسم بفخرٍ، فرددت عليه:

ـ بالطبع، من ينسى؟ لكن ألم تقل إنك أهديتها إلى الكنيسة ـ على ما أذكر ـ عندما كنا في الجامعة؟

فأجاب وهو يلفُّ تبغًا داخل ورقة سجائر رقيقة بين يديه.

ـ حدث فعلًا، لكن «أبونا» فاجأني بها يوم الافتتاح وقد بدَّل إطارها القديم الرخيص بهذا، وطلبَ مِنِّي أن أضعها هنا شرط ألا أبيعها لأحد وأن أهبها ثانية إلى الكنيسة إذا ما سافرت أو تركت الجاليري، لا تعلم كم أسعدني هذا جدًّا، بل إنني كنت أتمنى أن أطلبها منه عندما ذهبت لدعوته إلى الافتتاح، وأنا أسأله عنها، فيخبرني في حزنٍ بأنه لم يعد أحد يأتي إلى الصلاة كما كان في الماضي، فأصابتني خيبة أمل شديدة وتمنَّيت لو أستطيع أن أطلبها منه.

نظرت إلى اللوحة مرَّة أخرى، كان ثمَّة طائر شرس المنظر بألوان زيتونية باهتة، يُحلِّق فوق رأس أحد القديسين والذي كان أشرس الثلاثة ملامح، وأذكر أني سألت منير عنه يومًا لكني لم أعد أذكر ما الذي أخبرني به ساعتها، قالت زُهرة مشاركة لنا الحديث عن اللوحة:

ـ منير موهوب فعلًا، لكنه يحتاج إلى المزيد من التحديد في لون الفن الذي يجب أن يترك فيه بصمة، أرى أنه يترك نفسه للفن يجرفه كل فترة إلى حيث يشاء، فيضيع وقتا أكثر وجهدًا مهدرًا دون نتائج ملموسة.

نظر منير لزُهرة نظرة عتاب وقال:

ـ صحيح، لم أقل لكَ إنني لست الفنان الوحيد هنا، مدام زُهرة كانت خريجة فنون أيضًا، وأظن أنها تُدرِّس نوعًا ما من الفنون في إحدىٰ الجامعات الخاصة.

عندما تردَّدت لفظة «مدام زُهرة» مرَّة أخرىٰ دفعني فضولي إلىٰ تجاوز أبسط معالم الذوق، وسألتها دون أن أنظر إليها مباشرة:

ـ أنتِ متزوجة؟

فردَّت فورًا:

ـ لا.

ففهمت أنها مطلقة، لكنها بادرتني متابعة:

ـ لستُ مطلقة أيضًا.

ـ أها فهمت.. أنتِ أرملة إذًا.. آسف للفضول.

لكنها صمتت هذه المرَّة وشردت قليلًا، مما أربكني ثانية، ولُمت نفسي بشدة علىٰ هذا التدخُّل الوقح مِنِّي.. نظرت إلىٰ منير أستنجد به للتدخُّل وتغيير مجرىٰ الحديث، لكنه ألجمني بصمتٍ مطبق، فاستفزَّني سكوته ووجدتني

أستمر في وقاحتي رُبَّما أُطهِّر ما جناه لساني من حديث كئيب ببعض التمادي فيه، فسألت ثانية:

ـ منذ متىٰ؟؟

ردَّت بآلية ووجوم وكأنها تنتظر السؤال:

ـ عشرين عامًا.

صمتُّ تمامًا هذه المرَّة وألجمني ردُّها، كم عشرون عامًا في حياة هذه الزهرة البرية حتىٰ تكون أرملة منذ عشرين عامًا؟؟ وتابعَتْ هي في منتصف تفكيري:

ـ تقريبًا.

ثم أطرقَتْ أرضًا، وكذلك فعلنا جميعًا.

ملأني فضولٌ غير معتادٍ تجاه زُهرة بعد هذه المفاجاة الغريبة، لابد وأنَّ لها حكاية ما، وأنا أريد أن أسمعها كاملة، وأظنُّ أنها تريد من يسمع، من يحتفظ بهذا الوجوم الشارد والحزن المطبق حين يذكر أنه أرمل منذ عشرين عامًا هو شخص لم يُنْسَ قط.

قُمْت من مجلسي وقد انتزعت من روح الفنجان ما بقي منه، وقد كان جميلًا حقًّا وبه روحُ مَن أعدَّته، وضعته علىٰ الرفِّ العريض في ركن الغرفة ثم أخذت

أدور حولها وقد حلَّت روحٌ ثقيلة في المكان بعد وعودٍ من مرحٍ ووُدٍّ منتظر لدينا لم يتم بسبب سؤالي المتسرِّع الغبي هذا، وما تبعه من تمادٍ أكثر غباءً، أذكر زُهرة في تلك الليلة جيِّدًا، أذكر كيف كانت تتهالك نفسها من البكاء أمامنا وقد تعرَّىٰ جزءًا من روحها أمام شخص غريب تعرفه بالكاد، وهو ما أكرهه أنا نفسي بشدة، وأعلم شعورها تلك اللحظة جيِّدًا، تملَّكتني رغبة عارمة في الاعتذار لكني لم أدرِ ماذا أفعل، هو سؤالٌ بريءٌ ومتوقَّعٌ بأيَّة حال، لكن جميلة كهذه، لابد وأنها تعاني مرارة هذا الفضول طيلة الوقت، أي غباءٍ كنت فيه تلك اللحظة؟ أي غباءٍ؟؟ متىٰ أتوقَّف عن إيذاء الآخرين دون قصد؟؟

التفتُّ إلىٰ منير وطلبت منه سيجارة، وقد كنت وقتها أحاول أن أُقلِع عن التدخين ولا أحمل سجائرَ معي معظم الوقت، وهي فكرة سخيفة أثبتت فشلها سريعًا، ناولني لفافة تبغ غريبة من علبة علىٰ المنضدة، ثم التفتُّ إلىٰ زُهرة وقلت لها:

ـ بعد إذنكِ.. لا أحب أن أضايق أحدًا بتدخيني.

ولم أنتظر منها أن تسمح لي التدخين في الغرفة، فقد

كنت أحتاج أن أنفرد بنفسي دقيقة أو دقيقتين لأعود بروح جديدة أزرعها محلَّ ما بذرته من كآبة في المكان، وخرجت سريعًا إلىٰ الشارع.

بالخارج كان العجوز ما زال متكومًا علىٰ نفسه في علبة الزهور الصغيرة جوار الجاليري، قفز إلىٰ رأسي أن أبتاع لها وردة قد تغازل بعضًا من غرورها الأنثوي فتُنعش روحها قليلًا، لكني سرعان ما طردت الفكرة من رأسي للمرَّة الثانية، لم أحضر زهورًا في حياتي لأحدٍ قَط سوىٰ "نوران"، رُبَّما كان سبب هذا هو سهولة اقتطافها لها من الحديقة خلف منزلنا القديم في مزرعتنا الصغيرة التي كان يمتلكها والدنا، كانت نوران تحبُّ الورد البلدي فقط، الأبيض منه تحديدًا وما خالجه من لون وردي خفيف، وكنت أتباهىٰ أمامها دائمًا ونحن صغيرين إذا ما أحضرت لها أكثر من وردتين في الصباح دون أن يعلم أبونا بذلك، لم يكن يتركنا نعبث بالأزهار في الحديقة دون رقابة إلا بعد أن ماتت أُمُّنا، وكان هذا لفترة غير طويلة أيضًا، هدنة تركها لنا ونحن بعدُ لم نكن قد تجاوزنا محنة فقْدِ أُمِّنا، كنت في العاشرة ونوران تكبرني بسبع سنوات، وكنت أشعر في تلك الأيام أنني

فارسها ورجلها بعد رحيل أُمِّنا، كنت أخاف عليها من كل شيء، لكن رعبي الكبير تجاهها كان من أبي وغِلظته معها، رغم صغري وقتها إلا أنه بعد أن فارقتنا أُمُّنا كنت أخشى عليها من نوبات غضب أبي العارمة المنتظمة كل يومين أو ثلاثة، وكان ما يشغل بالي تحديدًا هو فيمن سيُفرِّغ شحنات غضبه بعد رحيل أُمِّنا، تلك المسكينة، كانت بمثابة ظهرٍ لنا ومأمن منه ومن نوبات جنونه وحنقه، كانت تأخذ منه بدلًا مِنَّا كل شيء؛ الصياح والسباب والعقاب السادي، بل وأحيانًا تنالها بعض الصفعات دوننا، كنت أظنُّها أضعف مَن فينا في منزل المزرعة الكئيب، إلى أن رحلت، وأخذت أشاهد والدنا وهو يذوب كل يوم في البكاء والنحيب بعد أن ننام، وكان يظننا لا نعرف شيئًا عن وجعه، فعرفت عن ضعفه ما لم أكن أتوقَّعه أبدًا، ولم أكن أنكر أمام نفسي ونوران سعادتي بل وبعض الشماتة فيه بعد ذلك، لكن نوران كانت كأُمِّنا تمامًا، يغلبها قلبها فترفق به وتدلِّله في بين الحين والآخر، وتتفنَّن في إرضائه بتقمُّص دور أمي طوال اليوم، حتى إنها كانت تبالغ بعض الوقت وتمثل دورها وهي غاضبة تشكو أمرها إلى الله بجملتها

المعتادة «حسبي الله ونعم الوكيل»، وكان أبي يُصدِّق التمثيلية أحيانًا فيردُّ مكمِّلا الدور المزعوم «حسبُكِ وحسبي يا هانم».. ولذلك لم يكن غريبًا علينا حينما قَرع باب نوران أول الخُطَّابِ أن رفضه كلاهما، وكانت نوران من رفضت أولًا، رغم أن هذه كانت فرصتها الوحيدة للخروج من هذا الجحيم، كانت تردُّ عليَّ كل مرَّة نتكلم فيها في شأن هذا الخطيب بأن تقول «لن أتركك يا حبيبي إلا وأنت في حضن عروستك».

وكنت أردُّ عليها بأنني لن أتركها إلا وأحدنا مع أمي في قبرها.

الآن تبيت نوران لياليها وحدها بالمزرعة القديمة بعد أن صارت مسكنًا للأشباح والحزن، وأبيت أنا مع جحيمي وحدي، ويقابل أبونا أمَّنا بين يدي ربهما، فلا أعلم إن كانت قد سامحته قبل أن تموت كما قالت مرَّات ومرَّات وهي تحتضر وهو يقبِّل يديها أمامنا لأول مرَّة منذ عرفناهما، أم أنها كانت تدَّخر انتقامها منه إلى تلك الأيام وهي بين يدي حسبهما ووكيلهما.

قاطعني منير وأنا شاردٌ أمام الجاليري خارجًا وهو

عابسُ يُقلِّب يديه بين جيوبه قائلًا دون مبالاة:

ـ دعها وحدها عشر دقائق أو أكثر قليلًا ثم عد إليها إن أردت.. سأذهب لأشتري بعض الصودا.. رُبَّما أغيب قليلًا.

ثم مشى دون انتظار ردٍّ مِنِّي.

* * *

لم يكن يجمعني بمنير شيء مشترك سوى الصدق، كان مُحِبًّا للعبث والمجون منذ الجامعة، وكنت لا أعلم شيئًا عن نفسي بعد، نزعتني غربة الكلية من والدي رحمة لكلينا ومشقَّة على نوران.

أعدَّت لي نوران حقيبة سفرٍ بسيطة تكفي لأسبوعين، ثم قبلتني في جبهتي وفي يدي، وأوصتني ألا أنساها وأتركها وحيدة مع أبينا المريض بين دموعها، أخفيت عنها ما كان يدور داخلي من نية في عدم العودة إلى هنا ثانيةً إلا مضطرًا، وأنني سوف أبحث عن عملٍ فور استقرار معيشتي بمدينة الطلبة في جامعة الإسكندرية، ثم احتضنتها ورحلت.. كنت أنوي إن عدتُ يومًا أن أعود فقط لآخذها كي تعيش معي، وليتدبر أبونا

أحواله كيفما يبغي، إن أراد عيشًا معنا فلا مانع أبدًا لديَّ، لكن في منزلي الذي أملكه، وبشروطي الخاصة، وليكون أول هذه الشروط ألا يذكر أُمَّنا أمامنا أبدًا إلا بالخير، أو لا يذكرها مطلقًا، ونحن جميعنا نعلم الضعف والهوان الذي أصابه بعد رحيلها، فأيُّ كبرٍ هذا وأيَّة قسوة هذه التي تمنعه حتى من ذِكر إحسانها علينا، وقوَّتها العجيبة في جعل منزلنا الكئيب مكانًا ينبض بالحياة والمحبة رغم ما به من وجعٍ وهمٍّ.

كانت تستيقظ فجرًا لتناجي ربها وتدعو لنا جميعًا حتى الضحى، أصحو ونوران يوميًّا على دعواتها لنا بالرحمة والهداية من شيءٍ لم أكن أفهمه، تسقي الزهور بحُبٍّ ومرح وهي تندندن بأغنيات لشادية وصباح كمراهقة مقبلة على الحياة، وتخفي ما تحمله داخلها عَنَّا وعن نفسها، تعتني بالصبار كأنه أخٌ ثالثٌ لنا، بل كانت تأخذه معها للحديقة أحيانًا وقت الغروب وتُجلسه جوارها كشقيقتين تشاهدان الشمس في المغيب، ثم تعود بعد يوم أو يومين لتغسل له أوراقه الشائكة بصبرٍ وحنانٍ يثير جنون أبي ويدفعه من وقتٍ لآخر إلى تحطيم الإصيص أمامها رغبةً في إهانتها وإذلالها،

فكانت تصمت في صبرٍ حتى يهدأ ثم تعود لتلبس الصبار إصيصًا جديدًا أكبر وأجمل وكأنها تصالحه.

في مدينة الطلبة عزمت على كسر حواجز الصمت الموروث داخلي؛ رغبة في خلق مجتمع جديد ودوائر أكثر إثارةً وتشويقًا عن جوِّ المزرعة القاتم الذي نشأتُ فيه، كما أنني كنت أحتاج إلى علاقات واسعة للحاق بفرصة عملٍ بمنتهى السرعة تؤمِّن سُبُل العيش بعد أن يأتي صدامي المحتم مع أبي، والذي أُعِدُّ له مستقبلًا، وكنت قد سمعت عن معامل التحاليل والصيدليات التي قد تقبل بي وسني الصغير وعدم خبرتي للعمل بها مع خلفية بسيطة من دراستي الطبية.

في صيدلية الدكتور «عزيز» عرفت منير. كان طويلًا أسمر، له ذقن مغبرة بلحية رمادية قصيرة، وشعر منكوش دائمًا.. أتى في اليوم الثاني لاستلامي العمل ليتسلَّم مِنِّي شيفت الصيدلية وكان متأخرًا عن موعده، وكنت أرغب بشدة في العودة مسرعًا كي ألحق بموعد إغلاق البوابات في المدينة الجامعية، اقتحم الصيدلية بطريقة أصحاب المكان وجذب مقعدًا إلى ركن البار الخاص بالبيع، ثم جلس عليه وبدأ يتمطَّع، ثم مدَّ يده

إليَّ في سلام صامت به بعضُ من الممازحة، مددت يدي إليه بتلقائية دون ودٍ، فلمحت صليبًا واضحًا فوق رسغه الأيمن، فسألته كمن لم يرَ صليبًا في حياته: «أنت مسيحي؟»، فهزَّ رأسه أن نعم ثم سحب يده ببطء وأردف: «وأنت دكتور نور.. مضبوط؟».. ثم ضحكَ بعمق وقد بانت على وجهي علامات حرجٍ.

رغبت يومها أن أجلس معه قليلًا قبل أن أرحل، لكني خفت أن يخونني الوقت، إلا أنه أتى مبكرًا في اليوم التالي، وجلسنا سويًّا نتمازح، وأخبرني أنه تجمعه ودكتور عزيز قرابة ما، وأنه مغترب مثلي لكنه يعيش خارج مدينة الطلبة، ويدرس العلوم حتى يدير صيدلية العائلة في القاهرة بعد التخرُّج. تآلفت ومنير سريعًا، كان صاخبًا وقحًا وسليط اللسان أيضًا، لكنه لا يكذب أبدًا، وهو ما كنت أحتاج إليه تحديدًا، كما أنه كان كريمًا جدًّا. أخذ منير بيدي رويدًا رويدًا وأدخلني ببطء في عوالمه الغريبة الجديدة عليَّ، أخذني في البداية إلى «سان لو بار» بسان استيفانو؛ ليعرِّفني على صديقاته الراقصات اللاتي كُنَّ يدلِّلنه فور دخولنا كالطفل، وحاول معي مرارًا أن يجرَّني إلى شُرْب البيرة

أكثر من مرَّة، لكنني كنت قد أقسمت أمام نوران بروح أُمِّنا ألا أقرب الخمور ولا السجائر، ورغم أنني أدمنت السجائر في عامي الثاني بالكلية إلا أنني أقنعت نفسي وقتها بأنها ليست «حرامًا»، وسوف أكفِّر عن قسمي هذا يومًا ما بالصيام ثلاثًا.

في عامي الثالث بالكلية اختفى منير قبل الامتحانات بشهرٍ واحدٍ ولم أستطع أن أصل إليه أبدًا رغم محاولاتي المستمرة الذهاب إلى منزله بالعبَّاسية أكثر من مرَّة، إلا أن والده كان ينكر دائمًا معرفته بمكانه، ولم أصل لشيء وقتها، وفاجأني هو في مطلع السنة الخامسة بالكلية أمام مستشفى النساء وهو يبتسم في ذبول وخجل.. وكان قد تغيَّر كثيرًا وصار أكثر نحولًا، بعد أن جلسنا في مقهى المستشفى أخبرني بأنه قد ترك الكلية بعد مشاجرة كبيرة مع عائلته؛ لأنه رغب في أن يدرس الفنون.

لم أستوعب حكايته تمامًا ولم أصدِّقها كاملة، وشعرت بأنه يكذب عليَّ لأول مرَّة منذ عرفته، لكنني كنت سعيدًا للغاية بعودة صديقي الوحيد إليَّ. وبعد أكثر من عام ونصف العام من الاختفاء ولم أعاتبه ساعتها إلا على عدم

استعانته بي في محنته تلك أو حتى محاولة طمأنتي عليه وهو يعرف مدى محبتي له وتمسكي بصداقتنا القوية.

أخذني منير بعدها إلى مسكنه الجديد، وعرَّفني على خليلته سارة وهو يبتسم ويشير إليَّ بفخرٍ أخوي «دكتور نور.. أخيرًا تنالين شرف مقابلته»، ثم جذبني من يدي قبل أن يدع لها فرصة لتُرحِّب بي وأدخلني إلى غرفة المرسم الخاصة به، وأضاء مصباحًا خافتًا على شكل شمعة كبيرة وهو يكشف ستارًا رقيقًا عن لوحة القديسين الثلاثة، ولم أصدِّق وقتها أنه هو من رسمها بنفسه، فأقسم بالمسيح حيًّا إنه هو من فعل وهو يقبِّل سارة في شفتيها بسخونة أمامي دون خجل.

أسعدني هذا التغيُّر المثير في حياة منير، وحسدته عليه بيني وبين نفسي، وكنت دائمًا ما أفعل ذلك تجاهه، كان شعلة من التقلُّب والحماس لا تنطفئ أبدًا، عشقه للحياة طهَّر بعضًا مما هو كامن بداخلي وألبسني حبه للهو والعبث رؤية جديدة لحياة لم أكن أعرفها إلا على يديه، وافتقدتها كثيرًا عندما اختفى.

أثنيت كثيرًا على اللوحة التي رسمها منير، وتنبأت له وقتها بأنه سوف يكون فنانًا مشهورًا عمَّا قريب،

ومرَّت بِنا الأعوام إلى أن دعاني بفرح لافتتاح الجاليري الخاص به، فتلبَّست حماسًا زائفًا وأنا أهنِّئه وأؤكد له أنني سأحضر الافتتاح بكل تأكيد.

نظرت إلى العجوز الغافل في كشك الزهور أمام الجاليري وسَبَبْت منير بيني وبين نفسي لتركي وحيدًا مع زُهرة بعد إحراجي لها، ثم دخلت إلى الجاليري بعد أن مرَّت فترة من الوقت غير قليلة، وما إن خطوت بقدمي داخل الجاليري حتى سمعت أنينها آتيًا من الداخل، فهرعت إليها وقد ارتعشت قدماي.

كانت زُهرة متكوِّمة حول نفسها على أرضية الجاليري الخشبية دافنة رأسها وصدرها في قدميها، وهي ترتجف وتُصدِر أصواتًا مكتومةً داخل جسدها، مِلْت عليها وقد بدأ قلبي في خفقانه السريع كعجلات قطارٍ، ووضعت يدي فوق كتفها وأزحت رأسها قليلًا لأعدل من وضعها محاولًا أن أرى ما بها وجسدي يُقاوم الانتفاض أمامها، وبدت ساقي ترتعش بوضوح لا أستطيع أن أخفيه، رَفَعَتْ رأسها بتثاقل نحوي مستجيبة لدفع يدي الخفيف عليها، ثم نظرت في عيني مباشرة وقد سال الكحل الثقيل من عينيها على خديها الشاحبين، وهي ترتجف وتشهق في

صمت، ثم صرخت في ألم وهي تدفن رأسها ثانية، فلم أتمالك نفسي وانهار تماسكي تمامًا، فأخذت في الارتعاش، وهاجمتني نوبة الصرع الأولى أمامها، وأسقطتني أرضًا في دوي كان آخر ما سمعت.

* * *



(٢)
زُهـرة

في الفجر هاتفني نور ليوصيني بألا أتأخر على موعدنا في الملجأ ظهرًا، وحتى يكون لدينا متسع من الوقت لتوديع حبيبة، فأخبرتُه بأن منير سيقلني بعد قليل، وسنكون في الإسكندرية قبل الموعد بوقت كافٍ. أعاد التأكيد بصيغة جادة بها بعض من التوسُّل.

كان يصمت كثيرًا في المكالمة، ولم أكن أراه حتى أفعل له أي شيء وهو ما كان يُشعرني بعجزٍ كبير، طلبت منه بخوف أن يتمالك نفسه اليوم أمام حبيبة حتى لا يصعِّب الأمور عليها وعلى نفسه أكثر مما هي، خاصة

أنها ستكون وحيدة بأمريكا ويكفيها مشقة رعاية وليد في الغربة، صمت طويلًا ثم سمعت أنينه الخافت بالهاتف فازداد قلبي خوفًا عليه، كنت أخشى أن تواتيه نوبة مفاجئة وهو يودِّع حبيبة اليوم، أخشى ذلك بشدة خاصة بعد أن ازدادت حدة النوبات الأخيرة كلما اقترب موعد سفرها.

في أول نوبة هاجمته ونحن في الجاليري كان قد تركني وخرج ليدخِّن بعد دقائق مرتبكة قضيناها محاولين أن نتعرَّف على بعضنا بعضًا في ترقُّب، كان يمازحني منير قبل أن يأتينا نور بدقائق عن فارق السن بيني وبينهما، وكيف كانا يعابثان فتيات البارات الكبيرات في الإسكندرية وهما بعدُ في سنوات الكلية الأولى، وعندما دخل نور اكتملت صورة الشاب الطيب التي حدثني عنها منير كثيرًا قبل أن يلقي نور علينا السلام.

كان نور يقترب من الثلاثين بأيام، ناحل الوجه بالصورة التي تخبرك بوضوح رغم فتوة بنيته عن كرهه للطعام وإدمانه القهوة والسجائر والسهر الطويل في التفكير والوحدة التي أعلم عنها أكثر من الجميع عيناه عسليتان شديدتا الحزن، وكانتا قد برزتا قليلًا عمَّا رأيتهما

عليه في المرَّة السابقة يوم الافتتاح، وكأنه لم يتناول طعامًا منذ ذلك اليوم، وكان شعره البنيُّ الداكن أكثر تهذيبًا من المرَّة السابقة مما منحه وسامة وغموضًا عمَّا هو كائن عليه ببشرته الخمرية بخفة وقسمات وجهه المطول ولحيته الخفيفة، وكان يرتدي قميصًا أسود به مربعات صغيرة ويحمل فوق يده معطفًا خريفيًا لم يكن من داعٍ في ارتدائه وقد اعتدل الطقس منذ أيام.

منذ ألقيت سؤالي على نور بشأن تركه مهنة الطب هذه الأيام وما أصابه بعد سؤالي له من اكتئاب ووجوم وفكرة وحيدة أخذت تطاردني وقتها، لم أتخلَّص منها إلا بعد أن تحقَّقت، تمنَّيت أن أخبئه بين ذراعي على صدري ولو لدقيقة واحدة، لم يواتني شعورٌ مُلحٌّ كهذا الشعور منذ رحل عبد الله عن دنيانا إلى تلك اللحظة، أحسست أني أعرف نور منذ سنين، أوجعني ضعفه البائن وصمته الحزين وإجاباته المقتضبة، وما تخفيه عيناه من انكسار وأنين، عجبت بشدة من قول منير لي إننا آتيان من نفس المكان وكم كان منير مصيبًا هذه المرَّة، وأنا امرأة خبرت من الوجع في الدنيا ما يجعل روحها تشمُّ الوجع في الإنسان من أول حرف ينطق

به، وأخذت أبحث في ذهني عن نور، ثمة إحساس بعشرة طويلة بيني وبينه لم أفهم له تفسيرًا.

هل أكون قد قابلته في سنواتي الأربعين دون أن أدري؟ هل تقاطعت دوائرنا يومًا ما وتاه عَنِّي في زخم الحزن الطويل؟ هل رقَّ قلبي لمرآه عن قرب هذه المرَّة للشبه الشديد بينه وبين عبد الله؟

قلَّبت ذاكرتي بصدق فلم أجد له أي صورة داخلها سوى أحاديث منير القصيرة عنه، وحينما كنت أصنع له القهوة كنت أشعر وكأنني عُدّت مراهقة عندما كان يزورنا عبد الله فترة الخطوبة، وأنا أعدُّ له ولأهله القادمين من سفرهم الطويل الطعام، وأتفنَّن في إبراز مواهبي الخبيئة في فنون المطبخ التي درَّبتني عليها أمي، ولم أُخفِ على نفسي سعادتي البالغة وهو يرشف بتتابع من الفنجان في شغف وتلذُّذ.

ألقى نور سؤاله المتوَقَّع باكرًا جدًّا، أسرع مما انتظرت منه، وكان ردُّ فعلي على السؤال أكثر عنفًا مما توقَّعت من أثره على نفسي، شعرت بأني أُسأل هذا السؤال للمرَّة الأولى في حياتي، وجدتني أكتشف أنني أرملة

منذ عشرين عامًا كما لم أكن أعرف من قبل، وجدت زُهرة العجوز تصرخ داخلي في صمت وتُوجِم أمامهما بحزنِها الثقيل، وأنقذني أدب نور في استئذانه للخروج للتدخين من الحرج بالبكاء الذي بدأ يغلبني ولم يكن وقت بكائي أمامه قد آن بعدُ، لكني منذ رأيته كنت أعرف أنه آتٍ.

لم أنطق بكلمة بعد خروجه، واحترم منير صمتي قليلًا، ثم حاولت أن أنتشل نفسي من هجوم الذكريات على نفسي، فقلت لمنير وصوتي يقاوم بكاءً قويًّا:

- ربما لم تُعجبه قهوتي.

ثم لم أتمالك نفسي ومنير ينظر إليَّ بعطف، مددت يدي إلى المقعد جواري لأسند روحي عليه، فخانتني قواي وسقطت أرضًا في عنف، فانتفض منير وهبَّ من وِقْفته جريًا إليَّ كي يساعدني على النهوض، لكني أشرت إليه بيدي وقد غلبني الوجع ألا يفعل، ثم تركت نفسي للبكاء.

تركني منير ووقف صامتًا محترِمًا بكائي الضعيف أمامه، آملًا أن أنتهي منه بسرعة إلا أنه قد بدا أن بكائي

سيطول، فانصرف بخفة دون صوت، ووجدت نفسي وحيدة في غرفة الجاليري على الأرض، وأخذت أزحف أرضًا إلى ركن الغرفة كما اعتدت وقت البكاء.

كانت قنا في تلك الأيام البعيدة مغامرة مشوِّقة بالنسبة إلى فتاة بحراوية كما كان يحب عبد الله أن يدعوني أيام الجامعة، وقعنا في الحب بعد عامين من الصداقة المترددة، كان متحفِّظًا بطبعه نتيجة لجذوره الجنوبية العريقة، ولم يكن يحادث الفتيات في الكلية أو يقيم معهنَّ صداقات أكثر عمقًا مما تتوجبه طبيعة كليتنا العملية، كان يحبُّ النحت على النحاس والصخور، وكنت أنا أرسم اللوحات الزيتية.

جذبه جمالي الأخاذ أيامها، وقد كنت أكثر فتنة مما صرت إليه الآن بالكثير، وكان معتدًا بنفسه كمعظم الجنوبين الذين عرفتهم من أهله، يشعرني في حديثه دومًا أنه صاحب الأرضين شمالًا وجنوبًا، وأنه يحنو علينا معشر البحراويين من صخب المدينة وقلة أدب أهلها وموات أصلها الذي ذهبَ برحيل الأرض والزراعة منها وزحف المباني عليها، وكان يتفاخر دومًا بأنه لا يوجد في بلدته حيث أتى من لا يملك

أرضًا جوار منزله ولو كان من ساكني القصور، فكنت أعجب من قوله أنه توجد قصور في قنا أو في الصعيد كله، فكان ينظر إليَّ بعطف من يحنو على جهل بحراوية مثلي!

تقدَّم لخطبتي في نفس أسبوع تخرُّجنا، ولم يمانع أحدٌ من أهلي في الارتباط به، كنت أحدِّثهم عنه في سنتنا النهائية وكانوا يرحِّبون بهذا الشاب الصعيدي الأصيل الذي ترك بلدته البسيطة كي يدرس الفنون في القاهرة، كانت خطبة هادئة غير متكلفة، قدَّمني إلى أهله البسطاء الطيبين وأحبَّتني والدته وأختاه فور أن رأينني ولم تغارا من جمالي كما هو الحال لدينا في المدن، وتمَّ الاتفاق على موعد الفرح بعد الخِطبة بثلاثة أشهر، لم نكن نحتاجها لنتعرف على بعضنا بعد ما قضيناه سويًا في الكلية.

كان عبد الله متفهِّمًا لحياتي لطبيعته كفنان، والتي هزمت الرجل الشرقي داخله، فلم يسألني أن أترك العمل الذي أحببته بعد الزواج ولم تكن له شروط كأغلب الزيجات التقليدية، كان رقيقًا طيِّب الحديث قليل السؤال، وكذلك كان والده الذي أحببناه في منزلنا كثيرًا، وكنت قد قرَّرت بيني وبين نفسي ألا

أتردَّد في أي تضحية يطلبها مِنّي رغبة في إرضائه على كرم أخلاقه وتفهُّمه للفارق الاجتماعي البسيط الذي هوى سريعًا بيننا.

اتَّفق والدانا أن نعيش سويًّا في القاهرة حيث فرص عملنا أكثر وفرة ويسرًا، وتقدَّم هو بأوراقه للتدريس كمعيد بذات كليتنا، وعزمنا على أن نقضي أول شهرين من زواجنا في بلدته بقِنا حتى نتعرَّف وأهله أكثر، ثم نعود لنكمِّل حياتنا في القاهرة.

وصلنا محطة قنا مع أسرتي، ووجدنا أهله ينتظروننا على رصيف القطار ثم كانت الرحلة الشاقة عليهم والممتعة المثيرة عليَّ إلى منزلهم ببلدتهم القابعة على شاطئ النيل.

كان أبو عبد الله كبيرًا في بلدتهم، والكبير في الصعيد هو شيء ما كسيِّد العائلة أو مسؤول البلدة، وكان منزلهم أكثر فخامة ورقيًا ونظافة من البيوت عندنا في مدينتا، كان أصغر من القصر بالقليل، وفهمت على الفور استياء عبد الله المكرَّر من جو المدينة الخانق وشكواه المكررة وعجبه من تكوُّم الناس فوق بعضهم رغم أن الأرض واسعة ورحبة.

كان المنزل من أدوارٍ ثلاثة، وكان والده قد أمر عبدين لديه أن يعدَّا لنا غرفة في الدور الثاني تُطِلُ علىٰ رَيَّاح النيل الغربي، سألته في عجبٍ عن أمر هذين العبدين، وكيف أنه ما زال هناك رقيقٌ في مصر إلىٰ الآن.! فردَّ بابتسام أن هذا شأن الصعيد دومًا، لا أحد يعلم عنه شيئًا سوىٰ الثأر والفقر، وأضاف بأن ثمَّة جواري باقيات أيضًا إلا أنهن جميعهم ـ الجواري والعبيد ـ باقون عن رغبة منهم وقد أصبح البيت أهلًا لهم، لكنهم لا يتزوَّجون، كذلك الجواري أصبحن مِلكًا لأنفسهن ولسن ملك يمينٍ لأحد، هُنَّ مديرات منزل بصورتِنا في المدينة، تعجَّبت وازدادت دهشتني أكثر وأكثر، وعلمت أنه محق في قوله إننا لا نعلم عن الصعيد أي شيء فعلًا.

كانت الليلة التالية لقدومنا هي ليلة الزفاف، أقامت معي أمي وأبي في اليوم الأول لوصولنا، وأعدَّ لهما أبو عبد الله غرفة في الطابق الثاني مجاورة لغرفته وزوجته ليبيتا فيها معنا أيامًا ثلاثًا قبل أن يعودا إلىٰ القاهرة، أما الأختان فقد رحلتا لتبيتا هذا الأسبوع كاملًا لدىٰ خالة لهما علىٰ أن تكونا معنا يوم الزفاف كاملًا.

أخذني عبد الله في اليوم الأول لرحلة قصيرة في البلدة داخل عربة يجرُّها حصان كبير، أخبرني بعدها عبد الله أنه ليس بحصانٍ إنما هو بغل، وقال إن الخيل للامتطاء من الفرسان وليس لجرِّ العربات، ثم نزلنا منزلًا ككوخٍ كبيرٍ في لسانٍ صغيرٍ يمتدُّ لقلب النيل، ووجدت غلامًا ينتظره فوق قارب كبير كمراكب التنزُّه المشهورة في القاهرة على ضفاف النيل أمام قصر النيل ومبنى ماسبيرو، إلا أنه كان به شراع عريض وليس كالمراكب التي كنت أعرفها بسقفها الخيشي والموتور الذي يُصدر صوتًا مزعجًا للتوجيه.

طلب عبد الله من الغلام برفق أن يترك لنا القارب وحدنا، ثم حرَّك الشراع بخفة ويُسّر قبالة الريح، فتحرَّك القارب مبتعدًا عن الشاطئ ووجدتي في وسط حُلم جميل بين ذراعي فارسي وحبيبي في قلب النيل وحولنا الأراضي الخضراء مدَّ البصر والشمس تتحرَّك ببطء لتتجه نحو الغروب أمام ناظرنا، وهي تنعكس على حقول القصب والذرة بهدوء لترسم ألون الطيف في عدة أماكن فوق رؤوسنا ونحن صامتان لا يقطع وجْدَنا سوى تحياتٍ متباعدة للقوارب التي تصادفنا في النيل ليلقي أصحابها

السلام بخجل من يخشى مقاطعة عبد الله وهو ابن كبيرهم، ودون أن ينظر أحدهم ناحيتنا بوقاحة أو فضول، ووجدت أن لعبد الله في بلدته شأنًا أكبر بكثيرٍ مما ظننت، وأنا لا أعلم شيئًا عنه طوال سنواتنا معًا، ونويت بيني وبين نفسي أن أحضر معه إلى هنا كثيرا في الشهرين القادمين الذين سنقضيهما بالبلدة، وأنقل هذا الجمال إلى أقمشتي البيضاء الخاصة بالرسم، وقد أحضرتها معي تحسُّبًا لأي ملل قد يصيبني تلك الأيام إن احتجت لممارسة بعض الرسم، وأثنيت على نفسي إحضاري لمستلزمات الرسم جميعًا معي قبل السفر.

حلَّق طائرٌ أبيض الريش إلا من خصلة شقراء في عنقه جوارنا ليزيد تلك اللوحة الربانية روعةً وجمالًا، وبدا وكأنه متعب قليلًا، فأسند قدميه فوق طرف القارب وأخذ ينفض ريشه اللامع أمامي، فنظرت إلى عبد الله الذي كان يبتسم ابتسامة خفيفة، وينظر إليَّ في حُبٍّ وشوق فألقيت بنفسي تحت ذراعه القوي لأختزن هذه اللحظة الرائعة داخلي طيلة عمري، أجفل عبد الله لحظة ثم ضمَّني إليه برفق، وما لبث الطائر أن رحل مبتعدًا أمامنا وظللت أنظر إليه وأنا بين ذراعي عبد الله إلى أن غرق في الحقول.

سألت عبد الله في طريق العودة أن أمتطي جوادًا مما لديهم إن كان ذلك مسموحًا به هنا، فتردَّد في البداية ثم أرسل في طلب جوادين أسمرين، وأخبرني بأنه لا يمكننا أن نركبهما سويًّا فالنساء عادة لا يتَّخذن من الخيل ركوبة وحدهنَّ أو مع الرجال، ثم حملني برفق واطمأنَّ إلى جلستي فوق ظهر الجواد، وقفز هو فوق الآخر بخفة ورشاقة كالفرسان، وأمسك بلجام جوادي بيده بقوة رغبة في اطمئنان أكثر، ثم تمشينا بهدوء في أرجاء البلدة، إلى أن عُدْنا إلى المنزل بعد أن سقط قرص الشمس تمامًا في الحقول البعيدة.

بعد العشاء اختلى والده به قليلًا وسمعت مشادَّة غير واضحة لم ألتقط منها شيئًا، ثم خجلت من وقاحتي وتلصُّصي على منازل الكرام، فألقيت بالموضوع خلف ظهري، ولم أسأله عن أي شيء في الصباح.

بعد صلاة العصر في اليوم التالي تمَّ عقد القِران، وكنت أنا وأمي في شرفة المنزل نسمع زغاريد عذبة تُطلقها نسوة البلدة جوار المسجد والنيل أمامنا يلمع تحت الشمس من بعيد، ووجدت أبي عائدًا وكتفاه في كتف عبد الله ووالده، وخلفهم الرجال يحملون

بنادقهم الطويلة لكنهم لم يُطلقوا منها شيئًا، وقد نظر إليَّ أبي من ساحة المنزل بابتسام وعزة كمن اكتسب شرفًا فوق شرفه بمصاهرة هؤلاء الكرام.

أتت والدة عبد الله بعد المغرب؛ لتتأكد من زينتي وتطمئنَّ على ثوب زفافي الذي أحضرته معي، وكانت لا تَمَلُّ سؤالي عمَّا إذا كنت أحتاج لشيء أنا أو أي من أهلي فكنتُ أردُّ عليها بالشكر حينًا أو بتقبيل يدها حينًا آخر كما رأيت عبد الله يفعل معها كل فترة، ثم أهدتني لفافة مطوية بعناية من الحرير، وأخبرتني أن هذه هدية زفافي، وسألتني ألا أفتحها إلا بعد أن تنصرف، وعندما ذهبت فتحتها وفاجأني ما وجدت داخلها من الذهب الذي لم أره من قبل، ولم أفهم حتى كيف أرتديه، كما كان بها منديل حريري فضِّي اللون شديد الجمال والنعومة.

بعد العشاء أخذ الرجال في إطلاق الأعيرة النارية بتتابع بطيء ثم بدأ الإيقاع يتسارع، وأخذت المزامر والطبول في العزف بهدوء متزامنٍ مع صوت الطلقات الذي طغى على كل الأصوات، ثم أخذ العزف يعلو رويدًا، وكانت الزغاريد لا تهدأ أكثر من بضعة دقائق ثم تعود لتملأ المكان.

بعد أن انتصر عبد الله على صديق طفولته في لعبة التحطيب، وصاح الجميع له مباركين ونحن نشاهده من مشربية كبيرة في صالة الطابق الثاني بالمنزل، غَمَزَتْ إلـيَّ والدته بابتسام أنه قد آن أوان صعودي إلى غرفتي لانتظار عريسي، نظرت إليها في خجل ولملمت أطراف ثوبي الطويل وصعدت إلى الغرفة.

كنت قد حرصت وأنا أشتري ثوب الزفاف أن يكون محتشمًا وقليل التطريز؛ مراعاة لأهله وتقاليدهم، ولم أنتظر أن يطلب عبد الله ذلك مِنِّي، كما جعلت طرحته المدلاة هي إلى الحجاب أقرب، لكني لم أكن أعلم أنه لا أحد من الرجال سوف يراني غيره ووالده.

دقائق قليلة مضت ثم دخل عليَّ عبد الله، أَخْفَض الإضاءة بالغرفة إلى أقصى درجة ممكنة، فاقشعرَّ جسدي قليلًا لمرآه رغم افتقادي له منذ الأمس، كان ينظر إليَّ وهو يبتسم بودٍّ يغالبه حياءٌ بسيط، أحكَم مواربة شيش النافذة دون إغلاقٍ تام لها، ثم أسدل الستائر فوقها تاركًا نسائم النيل القادمة من بعيد تعبث بها على راحتها حاملة معها أطيب روائح الأزهار التي تملأ الحقول المجاورة، سألته أن يرتدي منامته وأن يساعدني في خلع الفستان محاولة أن

أزيل بعضًا من حيائه، فسألني دون أن ينظر في وجهي إطلاقًا عمَّا إذا كانت والدته قد أعطتني المنديل الحريري!

للوهلة الأولى لم أفهم مغزى السؤال، وصمتُّ دون أن أردَّ عليه، وخفت بشدة مما قفز إليه عقلي مباشرة؛ نتيجة لغرابة السؤال، ثم وجدته لا ينطق ولا ينظر إليَّ ولم يهدني تفكيري في سؤاله الغريب لإجابة فبادرت أنا بالسؤال عن تفسير، استدار إليَّ وجلس جواري على السرير، وأمسك بيدي وهو متجهِّم الوجه ثم تابع دون أن ينظر إليَّ في عيني كما اعتدت منه:

ـ صدِّقيني يا زُهرة، لم يكن عندي نيَّة في ذلك أبدًا، أقسم لكِ، لست ذلك الصعيدي الجاهل الذي ستظنينني إياه الآن، أنتِ عاشرتِني لسنوات وتعرفين عَنِّي كل شيء، وقابلتِ أسرتي وأعلم أنكِ أحببتِهم جميعًا، وكذلك هُم، لكننا.. لا أعرف حقًّا ماذا أقول.. أقول إننا تحامقنا قليلًا في نُزْهتنا أمس وأصبحنا مجبرين على مجاراة أهل البلدة في طقوسهم دون هوى مِنَّا، أرجوك أن تفهميني، لو كنتُ أعلم أن الأمور قد تتطوَّر إلى ذلك ما كنت أخذتكِ للتنزُّه بالأمس أبدًا، بل ما كنت أصررت على إقامة الزفاف هنا من البداية، لقد تطوَّر الأمر بسرعة منذ الأمس، وتحدَّث

أهل البلدة والبلدة المجاورة، وقد خرج الأمر عن يدي ويد أبي، أنتِ تعرفين الآن مكانتنا ووضعنا لدى الناس، ولم يعد من بُدٍ في إنهاء العرس على طريقة بلدتنا إعفاءً لنا من أي حرجٍ.

لم أستوعب ما سمعته منه في البداية، بل لم أستوعبه إلى الآن، كل ما قفز إلى ذهني ساعتها هو نسوة يرتدين السواد يُقيِّدنني ويفتحن ساقيَّ بالقوة وتمتدُّ يدٍ خبيثة قذرة لتهتك روحي قبل أن تهتك عُذريتي، تصاعدتْ أنفاسي وأخذتْ روحي في القفز داخل حلقي وشعرت برغبة في أن أصرخ، ورغبة أكثر في أن أجري إلى غرفة أمي وأبي لأحتمي بهما منه، ووجدتني أضمُّ ساقَيَّ ناحية صدري وأغلق يدي حولهما بقوة وأزحف بجسدي لألتصق بجدار الفراش، أخذ عبد الله يردِّد كلامًا أحمق عن الأسف لما يرغب في أن يفعله بي، وأخذت أنا أبكي وأرتجف وأنظر إلى الفراغ أمامي، فحاول أن يضمَّني إليه، صرخت في وجهه بشدة وأنا ألطمه على خديه، وأخذت أصرخ في وجهه: «جبان.. جبان»، ثم صَمَتُّ وصمتَ هو أيضًا من هول ما فعلت، ولاحظنا أن أصوات الناس في ساحة المنزل قد سكنت فجأة.

طال سكوتنا وأخذ الوقت يسير ببطء، وأخذت أرتِّب الموقف في عقلي وعبد الله جالس أمامي لا ينطق بشيء، وتوتره وغضبه من لطمي له قد ألجم لسانه، وقضى على كل ما كان ينوي أن يقوله لي ليقنعني بفعل هذه الجريمة، بدأت أسمع همهمات تحت المنزل، وأدركت أن موقفنا سيسوء بعد قليل شئنا أم أبينا، فسألته وكلي غضب منه:

ـ لماذا لم تُعلمني قبل الآن، لماذا لم تقُل لي بالأمس؟ كان من الأفضل أن تخيِّرني بين هذا الخرف الذي تقول وبين حياتنا معًا، كيف تتركني هكذا إلى تلك اللحظة؟، أتستغلُّ حبي لك يا عبد الله وتمسُّكي بك لترضي والدك وأهلك؟ هل تظنُّ حقًّا أنني سأخضع لك وأتركك تهينني أمام أهلي وأهلك، بل وأمام نفسي وأنت راضٍ بذلك؟ ألم تعرفني بعد كل ما بيننا ورغم عشرتنا الطويلة معًا؟

هزَّ عبد الله رأسه في يأس شديد ووضع يديه حول رأسه، ثم قال مدافعًا:

ـ لماذا لا تحاولين أن تفهميني أنتِ يا زُهرة؟ لقد سارت الأمور بشكل درامي أقسى من أن أستوعبه أنا

قبل أن أفاتحك فيه، منذ الأمس وأنا أفكِّر فيما خبَّرني به أبي ولم أهتدِ لشيء؟ أطلب الآن منكِ ما أطلبه وأنا أعلم أنك سترفضينه، وربما كنت سأرفضه أنا لو قبلت أنتِ به، أنا هنا مثلك يا زُهرة، ليس بيدي من شيء لأفعله، لقد حرَّكني القدر ووضعني هنا أمامك لتكرهيني ما حيينا، ولم يعد لديَّ من شيء لأفعله أو أفكر فيه، لست أنكر أنني رغبت وأنا أطلب منك هذا أن تشاركيني المحنة قبل أن تشعري بالأهانة، ولكني أعلِم أن هذا مستحيل لدى أي إنسان، كيف طاوعتني نفسي أن أطلب منك هذا من البداية؟ أنت حبيبتي وصديقتي الوحيدة، وقد خسرت كليكما الآن، وبعد قليل سأخسر أهلي وأهلك، كل شيء جميل في حياتي سيصبح كابوسًا بشعًا أحمله داخلي وأكره نفسي بسببه إلى أن أموت.

رقَّ قلبي للحظة وأنا أراه أمامي ينزف ألمًا بين كلماته ومحنته الحقيقية تتضِّح أمام عيني رويدًا، لكن نفسي لم تطاوعني أن أعينه على أي شيء وأذلَّ نفسي هكذا، قمت من الفراش وأخذت ألفُّ وأدور في الغرفة بطريقة محمومة، وقد تحوَّلت صدمتي إلى غضبٍ

وحرقة تملأ صدري، وبعد أن تحوَّل عُرسي في لحظات إلىٰ هذا الكابوس البشع، نظرت إلىٰ عبد الله وهو جالسٌ معدوم الحيلة أمامي، فاشتعل غضبي منه مرَّة أخرىٰ وقلت وأنا أشير إلىٰ النافذة:

ـ اخرج إليهم يا عبد الله.

نظر إليَّ ولم يفهم، فتابعت:

ـ اخرج إليهم وقل لهم هذه زوجتي، شريفة كريمة، أحببتها واخترتها لتكون زوجتي، ولست بحاجة لأن أثبت لكم شرفها، قل لهم يا معشر الحمقىٰ، كيف ستصدِّقون خرقة قماشٍ حمراء اللون وتكذِّبون أخاكم وابن كبيركم.. قل لهم..

قاطعني عبد الله قبل أن أكمِّل كلامي قائلًا:

ـ لحظة يا زُهرة.. لحظة.

ثم أخذ يفكِّر قليلًا ونهض إلىٰ دولاب أمتعتنا وهو يتابع:

ـ أنتِ علىٰ صواب يا زُهرة، أنتِ علىٰ صواب، كيف يصدِّقُون خرقة قماشٍ حمراء اللون، ويكذِّبون أخاهم

وابن كبيرهم، لنرى إذًا كيف سيصدِّقونها بعد الآن.

ثم أخرج أدوات الرسم خاصتي وأخرج علبة الألوان الزيتية منها، وسألني أن آتيه بالمنديل، لم أستوعب منه ماذا يريد لكنني طاوعته في صمت، أفرغ علبة الألوان فوق المنضدة الصغيرة أمامه وأخرج علبة اللون الأحمر من مكانها، وسكب منها فوق المنديل بعض القطرات، وقام إلى النافذة ففطنت إلى ما يرمي إليه، غضبت ثانية بشدة وصرخت وأنا أجذبه ناحيتي قبل أن يفتح النافذة:

- ليس هذا ما أعني، ليس صمتهم ما أبتغيه، ألم تفهم بعدُ؟

دفعني عبد الله برفق، وقال:

- اصبري.

ثم غافلني وأخرج يده من النافذة بعد أن فتحها ولوَّح بالمنديل الملطَّخ بالون الأحمر أمام الحضور في الساحة، فتعالت الصيحات والزغاريد، وأخذت طلقات البنادق ترقص في تتابع وجنون وتردُّ عليها نغمات المزامير والربابات التي لم أسمعها من قبل، وكأن الفرح سيبدأ من جديد.

جلست على الأرض جوار النافذة وقد أحبطني ما فعله بشدة، وأحسست بأني رخيصة لا أساوي شيئًا، وأيقنت أن عبد الله قد سقط من عيني تمامًا، ولن أستطيع أن أنظر في وجهه ثانية، قلت له بانكسارٍ وأنا أزحف أرضًا إلى ركن الحجرة:

ـ لقد انتهينا يا عبد الله، انتهينا هنا.

فردَّ في نشوة غريبة:

ـ بل قولي لقد بدأنا.

ثم عاد إلى علبة الألوان وجذب علبة اللون الأصفر، وأفرغ منها بعض القطرات على جزء آخر من المنديل ورجع ليضيء أنوار الغرفة كلها ثم عاد جريًا إلى النافذة ومدَّ يده من جديد، بدأت أصوات الصخب بالخارج تهدأ تباعًا إلى أن حلَّ الصمت محلها تمامًا، وعبد الله ينظر إليهم وهو يقلِّب المنديل بين يديه ويديره في شتى الاتجاهات ليتأكد من مرآهم له وكأنه عارض على مسرح، ثم عاد عبد الله كالمجذوب وأخرج علبة لون آخر، وظلَّ هكذا مجيئة ورواحًا إلى أن فرغ من آخر لونٍ بها، وظلَّ ممسكًا بالمنديل في تحدٍّ صارخٍ أمام أهل البلدة، وقد ألجمهم

ما فعلَ، بعد برهة طوَّح بالمنديل تحت أقدامهم وأغلق النافذة في عنفٍ، واستدار إليَّ ثم جلس أرضًا جواري ووضع يده فوق رأسي باسطًا أصابعه حولها، وأخذ يُحرِّكها في هدوء من مقدمتها وحتى يصل إلى كتفي، ثم ضمني برفق إليه وقبَّلني قُبلة هادئة، ثم قال: «آسف».

ظللنا هكذا بعض الوقت لم ننطق بكلمة، ثم قام بعدها وأطفأ النور بالغرفة، وارتمى فوق الفراش دون أن يُغيِّر ملابسه، أما أنا فبقيت على الأرض ساندة ظهري على جدار الغرفة ورأسي لا يكفُّ عن الدوارن والتفكير، ثم قمت بتثاقل وتبعته إلى الفراش وقد سامحته بيني وبين نفسي، ونويت أن أعتذر له بطريقتي الخاصة صباحًا عمَّا قُلته الليلة في حقِّه، وظننت أنه قد غرق في النوم، إلا أنني وقبل أن أغفو تمامًا سمعته يبكي في خفوت، ولم أشعر به عندما قام ليصلي الفجر في المسجد جماعةً لكننا صحونا جميعا في المنزل على صوت الرصاصة بعد انتهاء الصلاة.

* * *

كان منير قد أخبرني سابقًا عن نوبات الصرع تلك التي تهاجم نور من وقت لآخر، وكنت قد قرأتُ شيئًا عنها في بعض المجلات الطبية، وسمعت بعض المعلومات البسيطة أيضًا في برامج التلفزيون، إلا أنني لم أكن أتخيَّل أنها بتلك القسوة والعنف. ما إن سقط نور أمامي أرضًا حتى نسيت همِّي ووجعي تمامًا، وانتفضت من جِلستي على الأرض وجررته إلـيَّ بعيدًا عن المقاعد خوفًا من أن يرتطم رأسه بأحدها، كان جسده أكثر ثقلًا مما توقَّعت أو أن قواي كان خائرة لهول المفاجأة، مَدَّدْته جواري على الأرض وأرحت رأسه على قدمي، ثم أخذت ألطمه لطمًا خفيفًا محاوِلة إفاقته، وقد هربت من رأسي كل المعلومات التي قرأتها عن نوبات الصرع حتى بدأت تظهر عليه تباعًا.

في البداية تحرَّكت أطراف أصابعه برعشة غريبة، ثم تقلَّصت يده اليسرى بشدة قابضة على معطفه، ثم انتصب جِزعه تمامًا كمن يسري به تيار كهربائي عنيف، وكنت مائلة عليه فارتطمت ذقنه برأسي في عنف، ثم أخذ جسده كله يغرق في ارتعاشات بطيئة متواصلة، ثم زادت الارتعاشات عنفًا فصرخت.

كانت المعلومة الوحيدة التي أذكرها عن هذه النوبات هو الانقباض الشديد لعضلات الفكين وضيق مجرىٰ الهواء لدىٰ المصاب، وكنت رأيت رسمًا توضيحيًا لكيفية التخفيف من حدَّتها بوضع حاجز ما حول مدخل الفم والفكين؛ لمنع المريض من قضم لسانه أو أغلاق منفذ الهواء الرئيس لديه في مثل هذه التشنجات، حاولتُ نزع المعطف من يديه إلا أنها كانت قد تقلَّصت بشدة حوله، وقبضت عليه حتىٰ صارا جزءًا لا ينفصل، فلم أتمكَّن من نزعه، فخلعت طرحتي السوداء التي ألفُّها دون عناية فوق شعري، وثنيتها عدة مرات ثم لففتها حول ذقنه وفمه وكانا قد بدآ في التصلُّب الشديد إلا أنني تمكَّنت أخيرًا من إحكام لفها وربطها بعناية حوله، ولم أعلم إن كان ما فعلته سينفعه بشيء أم لا، ثم أرحت رأسه برفق علىٰ الأرض وقمت لأحضر هاتفي، وأنا ملتاعة لا أعلم هل أحادث منير أولًا أم أتصل بالإسعاف، أم أخرج إلىٰ الشارع الصامت وأصرخ طالبة العون.

ما إن أمسكت بهاتفي حتىٰ زادت حدة التشنُّجات إلىٰ حدٍّ جنوني، وبدأ رأس نور يتخبَّط في الأرضية الخشبية محدثًا دويًا مخيفًا، فجريت إليه ثانية، ورفعتها وأنا أجلس

ثانية وهو يواصل التشنُّج بعنف أكثر، ثم دفنتها بين قدمي حتى لا ترتطم ثانية بالأرض أو بالأثاث، وأخذت أضغط عليها بقوة فكان يتخبط ظهره وقدماه بالأرض ثم بدأ زبد ما يسيل من بين شفتيه، وقد غزا اللون الأزرق وجنتيه وشفتيه، وقبضت بعض أسنانه على طرف شفته السفلى فسال منها دمٌ قاتم على ذقنه ورقبته، فأخذت أصرخ وأصرخ إلى أن ردَّ عليَّ منير ولم أدرِ ما قلته له، ولم أفهم إن كان قد استوعب شيئًا من صراخي فيه لكن سيارة إسعاف أتت بعد دقائق طويلة ثقيلة لم أعرف كيف انقضت عليَّ ثم تبعها منير وهو مبعثر الثياب شاحب الوجه.

طمأننا طبيب الإسعاف على وضع نور، وأخبرنا أنه سيروح في سُبات عميق لساعة على الأقل بعد ما حقن به أوردته الهاربة من مهدئات، وأقسم لي بين توسلي له ودموعي أن النوبة لن تواتيه ثانية قبل أيامٍ ما لم يتعرَّض لضغط عصبي شديد أو أدوية غير مناسبة، ثم خطَّ لنا بعض التوصيات لحالته، وبعض العقاقير الاحتياطية حالة ما هاجمته النوبة ثانيةً ـ لا قدَّر الله ـ ولم يستجب لتوسلاتي الباكية له أن ينقله إلى المستشفى، متعللًا بأن حالته مزمنة، ولن يمكنهم استقباله بالمستشفى

ما دامت قد هدأت النوبة، وإن أكثر ما يحتاجه نور الآن هو النوم، ويمكننا نقله في الصباح إلى مستشفى خاص؛ للتأكُّد من سلامته وعمل فحوص أكثر للاطمئنان، ثم انصرف مع الممرضة التي كانت معه والتي لم تكن تفعل شيئًا سوى أن تنظر إليَّ في فضول ووقاحة، بعد أن تبعثر شعري الطويل حول رأسي وكتفيَّ.

سألني منير في خجلٍ عمَّا حدث، فلم أردَّ عليه سوى بنظرة غضب، كنت منهمكة في النظر إلى جسد نور الراقد على أريكة ضئيلة في غرفة الجاليري الخارجية، وقد عاد وجهه ينبض بالحياة من جديد، ثم قلت لمنير في لهجة هي إلى الأمر أقرب: إننا سنبيت هنا الليلة فلم يُبدِ اعتراضًا، فقط أخبرني أنه سيغيب ساعة أو ساعتين مجبرًا، لكنه سيظَلُّ معي يتابعنا على الهاتف إذا ما جدَّ شيءٌ حتى يعود.

أغلقتُ باب الجاليري خلف منير بعد أن انصرف، ثم عدت إلى نور.. أزحت الوسادة البدائية التي صنعها منير من سجادة خيشية ناعمة كانت معلَّقة ضمن مقتنات الجاليري، وكوَّمها تحت رأسه، فأوسدتُه إحدى كفي وقدمي، وأخذت أمرِّر يدي الأخرى فوق رأسه وجبينه، وكانت

عيناه ترقصان داخل جفنيه، فعلمت أنه يحلُم، وأخذت أتساءل عمَّا يحلُم به الآن، ثم أخذ عيني التطريز اللامع على تلك السجادة التي ألقيتها قبل قليل أرضًا، وكانت أشبه بمفرشٍ كبير طوبي اللون، عليها نقشٌ كوفيٌّ جميلٌ يرسم أبياتًا مزيَّلة بجناحي طائر مفرودين كُتِبَ عليهما:

«كــل صبـــاحٍ سوف يأتينـــا بـــالــزهور،

هكذا أنت تقول!!

لكني أتساءل..

أين أخذ الصباح الزهور التي تركها بالأمس؟!»(*)

فكرت مليًا في تلك الكلمات ثم شَردتُ في طائرٍ أبيضِ الريش إلا من خصلة شقراء في عنقه يحلِّق حولنا من بعيد، وأنا أبكي في سكون كي لا أُوقظ نور من حُلمِه الذي دعوت الله في سرِّي أن يكون جميلًا.

* * *

(*) إحدى رباعيات عمر الخيام.



(٣)

نـور

بدأ الأطفال حولنا في الملجأ يرضخون لأوامر القائمين على رعايتهم بالوقوف في صفوف متوازية للعودة إلى غرفهم؛ استعدادًا لوجبة الغداء، انتصفت الشمس في السماء إلا أن أشِعَّتها كانت ضعيفة للغاية وغيمات رمادية تقطع نورها كل فترة، ورياح البحر القادمة من بعيد بدأت حدَّتها تزيد منذرة بليلة طويلة باردة وقاسية.

أتانا وليد وهو يلهث من انخراطه في اللعب مع ذويه من الأطفال، فاحتضنته زهرة وحملته بيدين قويتين،

وأخذت تُقبِّله وتداعب خصلات شعره الشقراء اللامعة التي ورثها من حبيبة، وكان وليد يحبُّ زُهرة ويتجاوب معها دائمًا كلما أتت معي لرؤيته وحبيبة، فقد كانت زُهرة أُمًّا بالفطرة تحمل روحها من الحنان ما يكفي دائمًا للجميع، كانت تدلِّلُني وتواسيني قَبل دقائق، وها هي الآن تداعب وليد وتلاعبه كما تفعل حبيبة وربما أكثر.

سألني وليد وهو بين ذراعي زُهرة إن كنت سآتي معهم إلى أمريكا، فابتسمت نافيًا، وأمسكته من أنفه الرفيع وأنا أقول له:

ـ لو سمعت كلام ماما فسآتي لكَ في الإجازة لنلعب سويًّا، أنا وأنت وماما حبيبة.

فمدَّ يده ناحيتي وهو يضغط على خدي، ويقول بحماس وفرح:

ـ ومع جدووو.

ففتحتُ ذراعي إليه باتساع، ثم ناولتني إياه زُهرة بتلقائية، وقد شَعَرتُ بأنني بحاجة إلى احتضانه عن قريب، فتناولته منها وأخذت ألقي به في الهواء، وأتلقَّفه بين يديَّ وهو يصرخ ضاحكًا من سعادته بلهونا المعتاد هذا.

لمحتُ زُهرة تنظر لنا في شجنٍ وأنا ألاعبه وتبتسم شفتاها في ارتعاش من البرد الخفيف، وهي لم تحسب الطقس سيكون باردًا هكذا عمَّا هو عليه في القاهرة، وكنت أعلم وهي تنظر إليَّ أنها تريد جرِّي للسؤال المكرَّر عن عدم سفري مع حبيبة كما انتظرت مِنِّي أن أفعل، أو حتى تحديد مستقبل محدد معها للأيام القادمة، ولم يكن لديَّ من ردٍّ كالعادة.

كانت حبيبة تجلس بعيدًا في الطرف الآخر من الحديقة فوق أرجوحة كبيرة خُصِّصت للأطفال جوار مقاعد الزائرين من الأهالي الذين يتردَّدون على الملجأ في أيام الإجازة أو من وقتٍ لآخر لزيارة أطفالهم بالتبنِّي وملاعبتهم أو تقضية بعض الوقت معهم حتى يعتـــاد بعضهم بعضًا، إلى أن يحين السن المناسب لانتقال أحدهم للعيش مع الأسرة المتبنِّية، وكانت حبيبة تحمل وليد الآخر - الصغير الذي لم يتجاوز الأعوام الثلاثة - على صدرها وتضمُّه كل فترة وهي تدفع الأرجوحة بقدمها وتنظر ناحية السماء.

أصرَّت حبيبة عندما بدأت الاتفاق على شروط التبنِّي أن يكون اسم طفلها بالتبنِّي وليد، على اسم ابنها من

طليقها، ولم يكن قرار السفر إلى أمريكا قد أخذ مأخذ الجدِّ أيامها، كانت السفارة لا تردُّ علينا بشأن المنحة الدراسية التي تقدَّمت للحصول عليها، ولم تكن قد أتتها معلومات مؤكدة عن مكان والدها في نيويورك.. فلم تشأ هي أن تؤجِّل هذا العمل الطيب أو تعلقه، وتركت نفسها للظروف تفعل هي ما تريد.

التفتت إلينا حبيبة من بعيد ولوَّحت لوليد ابنها ليذهب إليهما، وهي تبدو كطفلٍ يحمل طفلًا، أغرَق وجهي بالقبلات ثم جرى إليها مسرعًا، ثم عاد وكأنه قد تذكَّر شيئًا وقفز إلى حضن زُهرة ليقبِّلها هي الأخرى، ثم ذهب جريًا إلى أمه، ابتسمت زُهرة من تلقائيته وحنوِّه، وقالت:

ـ طيب تمامًا كأمِّه، يظنُّ أنهما سيرحلان حالًا.

ضممت يدي حول بعضهما بعضًا وإلى صدري وكأنني أحتضن نفسي؛ اتقاءً للهواء البارد الذي بدأ يشتد أكثر، وأنا أردُّ:

ـ كل الناس طيبون يا زُهرة، كل الناس طيبون، إلا من أراد الله.

ثم عَدَّلت زهرة من وضع شالها الوردي وقد بدأ

الهواء يعبث به بشدة، ثم عدلت ثانية من وضع شعرها الأسود الذي تطايرت خصلاته اللامعة خارج حجابها الإيراني الذي يُضفي على جمالها رقيًا ووقارًا.

كان أول ما رأته عيني بعد أن أفقت من نوبة الصرع في الجاليري هو وجه زُهرة، فتحت عيني في إرهاق فوجدتها أمامي، تحتضنني وهي شاردة، وكانت عيناها حمراوين مرهقتين وقد خطَّت دموع جافة أخاديد فوق خديها، وكان شعرها الناعم الطويل ملقى بجمال فوق كتفيها، نظرت إليها مليًّا، وابتسمت لها في إرهاقٍ تام، وحاولتُ أن أجمع الأحرف فوق لساني بصعوبة لأقول: «شعرك جميل»، وكان جفناي ثقيلين كالحجارة.

نظرتْ إليَّ بعينيها الجميلتين ودمعتا لثانية، ثم مالت عليَّ وقبلتني في جبيني، ثم بكت بهدوءٍ وهي تحتضنني بقوة باطنها الرقة، وقالت:

ـ الحمد لله على سلامتك.

فتحت فمي لأتابع الكلام، فأغلقته بطرف أناملها وهي تبتسم وقالت:

ـ لا تتحدَّث الآن، أرجوك حاول أن تنام.

فوجدتني أغلق عيني مباشرة في طاعة تامة، وأتابع النوم مرَّة أخرىٰ دون كلام، وكنت مرهقًا كمن خرج توًّا من معركة طويلة، وأخذت أحلُم مرَّة أخرىٰ بالطيور البيضاء التي تلقف حُبًّا من فوق شاهد قبر عالٍ وتلقي بها بعيدًا لتنبت صبارًا طويلًا جوار القبور الأخرىٰ، ثم تطير من قبر لآخر لتكرر ما تفعله، وعندما استيقظت أخيرًا كانت زُهرة نائمة علىٰ الأرض جوار الأريكة التي كنت ممددًا عليها، وقد افترشت لنفسها سجادة طوبية داكنة مطرز عليها كلام بأحرف عربية ذهبية اللون لم أستطع أن أقرأ منها حول جسد زهرة الذي كان يخفي معظمها سوىٰ كلمتي «كل صباح»، وكان هاتفها علىٰ الأرض جوارها يضيء في صمت باسم منير.

تناولت الهاتف، ودلفت إلىٰ الغرفة الداخلية، ورددت عليه بصوتٍ خافتٍ كي لا أوقظها، سألتُه عمَّا حدث فحكىٰ لي ما لحق بي من نوبتي، وأخذ يسرد تعليمات الطبيب التي أعرفها كلها، وتحسست شفتَيَّ وأنا أحادثه وكانت شديدة الجفاف، كما كنت أشعر بعطش شديد، تحسَّست قشرة خفيفة تكوَّنت فوق جرحٍ صغير أحدثته لنفسي أثناء النوبة، إلا أن جزءًا منها كانَ رطبًا بملمس

«كِريم» أو مرطب ما، فمددت إصبعي عليه أتحسسه وقد التقط لساني بعضًا منه فوجدت طعمًا محببًا ومقبولًا، ثم فطنت وأنا أنظر إلى أصبعي أنه أحمر للشفاه، شردت من منير على الهاتف وأنا أنظر إلى جسد زُهرة البعيد النائم أرضًا في استسلام، ثم أنهيت المكالمة معه وقد بدأ صداع خبيث يطرق جوانب رأسي بإلحاحٍ فاتجهت إلى السبرتاية لأعدَّ لنفسي فنجانًا من القهوة.

هاجمتني أول نوبة صرعٍ حقيقية بعد الحادث، كنت قد نسيت عن أمر النوبات هذه تمامًا، فهي لم تطُل معي وأنا صغير على عكس ما تعلَّمته من كتب الطب في الكلية، فقط استمرَّت عامًا ونصف العام ثم رحلت نهائيًا قبل أن أتمَّ الخامسة عشر بقليل، إلا أنها عاودت الظهور وبعنفٍ بعد الحادث مباشرة، وكأن ما كان يهاجمني منها أيام الطفولة هو مداعبة منها، أو تمهيد لي كي أعتادها عندما أكبر.

كانت الخبرة الأولى لي مع النوبات أيام المزرعة، امتدَّت دروس الصيد مع والدي بعد الأهداف الثابتة كالصفائح الكبيرة والزجاجات الفارغة إلى الأهداف الصغيرة كالثمار التالفة وأكواب الماء المصنوعة من الصاج

الرديء، ثم تطوَّرت الصعوبة إلى استهداف العملات المعدنية الصغيرة، وكان أبي يفرح بشدة ويثني عليَّ كلما سمعنا سويًّا صوت ارتطام الطلقة بالعملة المعدنية محدثة رنينًا مميَّزًا، وكان العمال في المزرعة ينظرون إلينا بتعجُّب ونحن نتلف العملات أمامهم طوال النهار.

انتقلنا بعد فترة تدريب طويلة إلى الأهداف المتحركة، كان أبي يعلِّق هدفًا ما في حبلٍ طويلٍ مربوط طرفه في فرع شجرة النبقِ العجوزِ عند مدخل المزرعة ويمسكه بيده في طرف الشجرة ثم يدفعه بشدة ليأخذ مسارًا نصف دائري غدوًا ورواحًا، ويتركني قليلًا حتى أعتاد حركته أمامي، ثم يأمرني صائحًا «الآن يا نور»، فتضغط يدي على زناد البندقية فورًا دون تردُّد.

كان التدريب شاقًا ومملًا، ولم أحبَّ لعبة الأهداف المتحركة هذه كثيرًا، وصاحبني الفشل فيها دون أملٍ في إصابة الهدف المتأرجح أمام ناظري، وكنت أخشى من توبيخ أبي المستمر لي، وبدأت أكره كلمة «الآن يا نور» هذه بشدة، ومع الوقت بدأت أجفل وترتعش يدي فور سماع صوته، يترك الحبل بما يحمله، فأظَلُّ أنقل بصري بينه وبين الهدف المتحرِّك فتزوغ عيني وتتشوَّش

الرؤية لديَّ ثم أفقد التركيز تمامًا، وعندما يصيح بي أن أضرب الهدف كنت أضغط الزناد فقط لأسكته، ثم أتلقَّى نصيبي من التوبيخ المعتاد، وعندما بدأ يضربني على رأسي بعد تكرار الفشل كرهت لعبة الرماية هذه بشدة وكرهت البندقية والمزرعة، وأخذت أدَّعي المرض أمامه كلما حان موعد التمرين اليومي، فكان يأخذني غضبًا، وكلما استمرَّ الفشل ازداد التوبيخ والضرب، وذات مرَّة غضب مِنِّي بشدة فألقى بالحبل بعيدة بقوة مطوحًا به وبالدلو الذي يحمله، فأخذ الحبل يتخبَّط في أفرع الشجرة أمامنا وجاء إليَّ مسرعًا ونزع طبنجته التي يحملها تحت إبطه طيلة اليوم، وأفرغ كل ما كان بها من رصاص وهو يردد «هكذا.. هكذا»، وأصوات ارتطام الرصاص بالدلو واللهب الذي يصدر من الطبنجة يعمي عيني حتى تفتَّت الدلو المعلَّق في الحبل أمامنا، وتناثر إلى صفائح ملتهبة على الأرض تطاير منها الدخان وأنا واضعٌ كلتا يديَّ فوق أذني، وأصوات الطلقات تخترق رأسي وتضربها بشراسة، ثم صرخت وسقطت أرضًا.

في فجر اليوم التالي أوقظني أبي، أمرني أن أتوضَّأ وصلَّى بي ثم سألني عمَّا حلَّ بي أمس، ولم أكن أذكر

منه شيئًا فبان عليه الرضا، قاطعتنا أمي وهي تسأله عمَّا نحن فاعلون، فأخبرها بأننا سنذهب للتمرُّن، فاعترضت عليه ثم تشاجرا وأخذت تصيح عمَّا حلَّ به من غشاوة فوق قلبه، وتتوسَّل إليه أن يتركني اليوم رفقًا بي وتذكره بمَ حلَّ بي أمس، فنهرها بقسوة وهو غاضب وحذَّرها أن تذكر هذا اليوم أمامي مرَّة ثانية أبدًا، ثم جرَّني من يدي كالماشية، وبعد أن خرجنا إلى حديقة المزرعة قال لي وهو واضع كلتا يديه الثقيلتين بشدة على كتفي الهزيل:

ـ اسمع يا نور، لو نجحت في إصابة الهدف اليوم سوف أزيد لك الأرض الخاصة بزراعة الزهور أمام المنزل.

أحكم أبي من ربط الدلو الجديد في الحبل، ثم تركه يتأرجح بهدوءٍ وعاد إليَّ ليقف جواري وقال:

ـ قبل أن تضغط الزناد اكتم نَفَسَك جيِّدًا، ركِّز في حركة الدلو وحرِّك عينيك معه، ثبِّت يديك تمامًا وتوقَّع المكان القادم للدلو والذي سوف تكون فيه الطلقة، هذا الذي يتحرَّك أمامك ليس دلوًا، هذا عدوك الذي

سيقتلك لو فشلت أنت في قتله، هذا هو اللص الذي سيخطفك أنت ونوران، هذا هو جارنا الخائن الذي يريد أن يستولي على الأرض بعد أن يقتلني، وهو أقربائك الطمّاعون، هذا الهدف هو كل شرٍ سيؤذيك يا نور، فاقتله قبل أن ينالك.

رددتُ عليه في تلقائية:

ـ ولكن هذا دلو فقط يا أبي!!

وكنت أتكلم في براءة شديدة أصابته بخيبة أمل، لكنه تابع دون اهتمام:

ـ لا يهم اقتله وسأتركك تزرع الزهور كيف شئت.

لم أفهم كيف أقتل دلوًا وهو ليس بكائن حي، لكني استمعت إلى كلامه جيِّدًا هذه المرَّة، كان كل ما يشغلني الآن هو كم ستفرح نوران لو تمَّ لها هذا الذي يُغريني به أبي، يمكنني أن أزرع الزهور كيف شئت، ورُبَّما تركَني أقطف منها يوميًّا ما أريد أيضًا، أمي أيضًا ستفرح كثيرًا لو تمَّ لنا هذا، بدأ الحماس يدبُّ فيَّ بشدة وأنا أتخيلني أنسِّق الزهور أمامهما كل صباح وهما مبتسمتان تلوِّحان لي، سمَّيت الله قبل أن أضغط الزناد ثم سمعت الصوت

المحبَّب أخيرًا لارتطام الطلقة وهي تخترق الهدف لتُحدِث فيه ثقبًا صغيرًا تخرج منه الشمس كعملة ذهبية.

حطَّت زُهرة يدها فوق كتفي قائلة: «نور! القهوة فارت».

أفقت من شرودي ووجدتني أمام السبرتاية والقهوة تواصل غليانها وفورانها، وتتصاعد منها رائحة السُّكَّر المحترِق، الشبيهة برائحة غزل البنات الذي كانت تعشقه نوران.

التفتَتْ إليَّ زُهرة وهي تعدِّل من خصلات شعرها المتناثرة وتعيد تصفيفها بأصابعها، وهي تسألني برقَّة عن صحتي الآن، فشكرتها لرعايتها لي طول الليل، تناوَلَت الكنكة من يدي، وقالت:

ـ سأعدُّ لك فنجانًا جديدًا، يجب أن تأكل شيئًا أولًا، هل تعرف مكانًا يُقدِّم طعامًا الآن؟

نظرت إليها مدققًا في ملامحها، كانت لها عينان ككشافي النور في سيارة عريضة لامعة قادمة من شارع مظلم، تنظر إليك فتشعر أنك عارٍ تمامًا لكنك غير خجلٍ أيضًا رغم ذلك، بل رُبَّما أحببت هذا الشعور،

وكانت شفتاها لا تزالان تلمعان بنفس لون أحمر الشفاه الذي التقطته من زاوية فمي منذ قليل، سألتها دون أن أنظر في عينيها:

ـ هل قبَّلتِنِي من فمي وأنا نائم؟

ثم التفتُّ إليها ونظرت في وجهها مباشرة، فرفعت حاجبيها في دهشة ثم صمتت وهي تبتسم ولم تردَّ، وعندما انتهت من صبِّ القهوة في الفنجان وكانت الرائحة الزكية قد عادت لتغزوَ المكان من جديد بعد ليلة الأمس القاسية، شعرت بنشوة الإفاقة تتسرَّب إلى روحي، وابتسمتُ ممتنًّا لزُهرة وشكرتها على ذوقها، ثم قلتُ:

ـ يبدو أنني سأدمن القهوة من يدكِ.

ـ لا مانع إطلاقًا.

ثم تابعتّ وهي تنظر إلى نهمي في رشف القهوة كالمدمنين:

ـ تظنُّني تحرَّشت بك يا ولد؟؟

وأطلقت ضحكة جميلة كالأطفال وهي تربِّت على

كتفي، ثم تغمز بعينها مكملة:

ـ ليس وأنت نائم يا صغيري.

ووضعت إصبعها برقَّة شديدة على جانب فمي مكان الجُرح الذي سبَّبته لنفسي وقالت:

ـ كان هنا جُرحٌ يحتاج إلى مرطِّب ما ليلتئم، ولم أستطع أن أتركك وحدك وأذهب لأبحث عن صيدلية، فاستخدمتُ أحمر الشفاه خاصتي، لم أعلم أنك سيئ النوايا هكذا، لا يبدو عليك ذلك!

أحرجني ظنِّي الساذج بها، فقلت أول ما بدرَ بذهني:

ـ وما هو هذا الذي أبدو عليه إذًا؟

قالت دون تفكير:

ـ تبدو كطفلٍ صغير بريء يُخفي سرًا كبيرًا.

تمتمت بيني وبين نفسي: «كم أنت مخطئة في هذا يا زُهرة، فقط لو كان الأطفال يَقتُلون»، ثم قلت لها في طريقة هي إلى الغَزَل أقرب مخافة إرباكها ثانية:

ـ وأنت يا زُهرة، أي الأسرار تخفين؟ أشعر أنَّ وراءك حكايات كثيرة، لكنك لا تبدين كالأطفال على الإطلاق.

فسألتْ في دلال:

ـ وكيف أبدو إذًا؟

ـ تبدين ساحرة.

ـ ساحرة شريرة؟

قالتها وهي تضحك في طفولة ضحكة صغيرة، وقد أصبحت سعيدًا بشدة لانتزاعي الضحكات الحقيقية منها بهذه السهولة والسرعة، ورددت عليها:

ـ بل ساحرة الجمال.

ـ وهل تراني جميلة يا نور؟

أوليتها ظهري وسرت أتمشَّى على مهلٍ في الجاليري، وقلت:

ـ ليس هذا السؤال المناسب.

ـ وما هو السؤال المناسب؟

ـ كيف أراكِ جميلة؟

ـ وكيف تراني جميلة إذًا؟ وإن كنت لا أفهم ما الذي تقصده.

استدرت إليها ونظرت بعمق أتفرَّس في وجهها وملامحها وكأنني أحفرهما في ذهني كي لا أنساهما، ثم عدتُ أنظر للوحات الملقاة على الجدار أمامي وكأنني أهرب منها وقلت مفسِّرًا:

- لا يهمُّ كيف أراكِ جميلة، أنت تعلمين عن جمالك أكثر مِنِّي، رُبَّما أكثر من أي إنسان، لم أعرفك إلا الأمس، ولو كنت أعلم أني سأصحو لأجدني بين ذراعيك الليلة لاخترت يومًا آخر أكون فيه أكثر صحَّة ووسامة، ولوضعت المزيد من العطر.

- أراكَ لم تجبّ عن سؤالي يا نور.

- أرى أن منير كان يعرفنا أكثر مما نظنُّ، أتأكلين معي لو أكلت؟

لم تُبدِ استياءً من هروبي المكرر من السؤال، فردَّت عليَّ:

- أين سنأكل الآن؟

كنت أقف أمام مرآة مزخرفة كبيرة في طرقة الجاليري الطويلة أعدِّل من هندامي، وقد لمحت أثرًا خفيفًا لقُبلتها الباهتة فوق جبيني فلم أزله أمامها، قلت لها:

ـ سنذهب إلى الدقِّي، أعرف مطعمًا هناك لا يُغلَق ليلًا، رُبَّما يوجد هنا في الزمالك واحدٌ، لكني ليست لي خبرة بهذا المكان، فقط أتمنَّى أن نجد تاكسي في تلك الساعة.

ـ لا حاجة بنا إلى ذلك، معي سيارة.

ـ آه.. لقد نسيت، يبدو أنني الفقير الوحيد في هذا العالم، يدفعون جيِّدًا في الجامعات الخاصة، هذا ما أسمع.

قالت دون اهتمام:

ـ لا.. ملاليم، ترك لي زوجي الكثير.

ـ كان غنيًا؟

ـ كان جميلًا.

ثم تنهَّدتْ بعمق، وأشارت إليَّ أن نتحرَّك وهي أمام المرآة تضع حجابها، وتخفي بين ثنياته الجزء المُطَعَّم ببعض دمي، وتضبطه فوق رأسها.

* * *

في الطريق هاتفت منير وأخبرته بوجهتنا وأكدت

عليه أننا بخير الآن، وجَدَت زهرة مكانًا لسيارتها بسهولة أمام المطعم مباشرة، وأخبرتني كم أن هذا شبه مستحيل نهارًا، دخلنا إلى أحد المطاعم التي كنت أتردَّد عليها كثيرًا منذ أقامت حبيبة بمنطقة الدقي، وكان خاليًا من الزبائن تمامًا إلا أن طاقمه كان يقظًا بالكامل، حيَّانا مَن يذكُرني منهم، وهيأوا لنا منضدتي التي أجلس عليها دائمًا في الطابق الثاني جوار النافذة، ونظرت خلسة دون أن تلمحني زُهرة إلى نافذة غرفة حبيبة بالمبنى المقابل، وكان نورها مُضاءً.

أخذت أفكر هل أتصل بها لأخبرها أني هنا، رُبَّما لمحتني وأنا قادم أو قد تلمحنا ونحن مغادران، إلا أني خفت أن تكون قد غفت كعادتها وتركت نور غرفتها مضاءً، فلم أرجُ أن أوقظها، تمنَّيت ألا تكون قد علمت عن قدومي فهي لا تعرفني منذ زمن ولا رغبة لديَّ في أن أفقد ثقتها سريعًا هكذا.

شردت عن زُهرة ثانية وقررت ألا أهاتف حبيبة الآن وليكن ما يكون، ثم قلت لزُهرة:

ـ آسف، أشرد كثيرًا، هذا عيبي الكبير.

ـ لا عليك، كلنا نشرد، هيًّا احكِ لي.

ـ ماذا أحكي؟

ـ ماذا تعمل الآن؟

ـ شيء ساذج، أشبه بمسؤول تسويقي في شركة خاصة للأدوية.

ـ لا أفهم، حدِّثني عنه أكثر، ولماذا تقول عنه إنه ساذج؟

ـ لأنه أشبه باللعب، لا علاقة له بالأدوية أو الطب.

ـ ولماذا إذًا لا تعـــــ...

ثم انتبهت ولم تكمِّل سؤالها، فقلت لها:

ـ أرجوك يا زُهرة، لا أحبُّ الخوض في هذا الحديث أبدًا، لن تفيدك المعرفة بشيء.

ـ متأسفة.

ـ لا.. إطلاقًا، أنا الذي يجب أن يتأسَّف، من الواضح أننا سنغدو صديقين مقربين، وليس من اللائق أبدًا أن يكون إخفاء الأمور البسيطة عليكِ عادة، رُبَّما أحكي لك كل شيء يومًا، لكن ليس الآن يا زُهرة، ليس هذه الأيام، أرجو أن تعذري سخافتي.

ـ لا عليك.

قالتها باقتضاب فسألتها:

ـ هل تحكين لي أنت ما الذي كان يبكيك، هل تذكَّرت زوجك أو شيء كهذا؟

ـ لا تطلب ما لا تستطيع أن تُقدِّمه يا نور، لا يهمُّ الآن ما الذي يوجعنا سويًا، دعنا نحمل بعضنا بعضًا دون أسئلة أو تفاصيل.

ـ لا مانع لديَّ، سأطلب لكِ عشاءً على ذوقي الخاص، هل تمانعين؟

فردَّت مبتهجة:

ـ بشرط أن أعزمك أنا.

ـ لا، فلتطلبي أنتِ لنا، المهم أن أدفع أنا في النهاية، بي عِرق صعيدي بعض الشيء.

ـ ليس لديَّ من شكٍّ!!

قالتها بعد صمت وبحزنٍ تحاول إخفاءه بصعوبة، لكنه كان جليًّا في تحوُّل نبرة صوتها المفاجئ، فكَّرت في جذبها لحديث آخر، فقلت لها:

ـ يمكنكِ أن تعزميني على القهوة في الأمريكين بوسط البلد غدًا إن شئت، سوف أؤجِّل عودتي إلى الإسكندرية لأمرَّ على أختي نوران صباحًا، ورُبَّما نلتقي مساءً.

سألتني على ذِكر القهوة:

ـ ألا تشرب شيئًا غير القهوة؟

ـ نعم، أشرب الماء أيضًا!

ثم ضحكنا سويًّا بصوت مرتفع، وبدأنا نتناول الطعام ونثرثر سويًّا، تحدَّثنا عن منير كثيرًا، وكان من الواضح أن زُهرة تحبه بصدق وتمتدح طيبته كل فترة وأخرى، وشعرت أني أفتقدت جلستي معه فجأة ونويت أن أكلمه رُبَّما أقنعته أن يأتي إلينا ليشاركنا جلستنا هذه، لكن زُهرة رفضت وقالت إنها تريد أن تجلس معي الآن فقط وبمفردنا، وسوف تتكرَّر جلساتنا مع منير كثيرًا بعدئذٍ، بعد قليل سألتني في تردُّد:

ـ ألديك فتاة ما هنا أو هناك؟

قلت وأنا ألتفت لاإراديًا ناحية النافذة:

ـ أظنُّ ذلك، هل يضايقكِ هذا في شيء؟

ـ أبدًا، على العكس، سوف يجعل هذا طريق الصداقة إلى قلبك أكثر أمانًا.

ثم تابعت وكأنها تذكَّرت:

ـ لكن أرجوك ألا تخبرها أني قبَّلتك الليلة، كنت واهنة وأعصابي تعبة، ولم أتمالك مشاعري أمامك وأنت ترقد كالطفل بين يدي.

ـ ليس هناك من شيء يا زُهرة، رُبَّما كنت أحتاج أنا إلى ذراعَيْ أحد ما هذه الليلة تحديدًا، وبالطبع لن أخبرها بشيء.. ليس الآن على الأقل، فنحن لسنا بذلك القرب كي أعترف بذلك أمامها، رُبَّما يأتي هذا لاحقًا لو أننا بقينا سويًّا.

ـ إن شاء الله تظلان سويًا، ما اسمها؟

ـ حبيبة.

والتفتُّ ناحية غرفة حبيبة مرَّة أخرى، فوجدت نافذتها وقد أظلمت إضاءتها تمامًا، فتابعت قائلًا لزهرة:

ـ اسمها حبيبة.

وأشرت بيدي ناحية الغرفة المظلمة دون تفسير، لكن زُهرة لم تسأل.

بعد انتهاء العَشاء كان الفجر قد أذَّن فقمنا لنرحل وقد نشأت بيننا في تلك الليلة الغريبة بوادر صداقة بات من الواضح أنها ستكون عميقة، قالت لي زُهرة ونحن نتحدَّث على العشاء غنَّ أوثق العلاقات الإنسانية وأقواها تماسكًا تكون وقت الوهن والضعف، وقد بدأت بيننا بهما.

أوصلتني بسيارتها إلى كورنيش ماسبيرو، وجلسنا سويًا في السيارة نتطلع إلى بداية الشروق حتى يأتي تاكسي، وقد رَفَضْتُ إصرارها أن توصلني إلى منزل المزرعة بسيارتها، متعللًا بطول المسافة وخوفي عليها من العودة وحدها في مثل هذا الوقت، كانت زُهرة شاردة تمامًا أمام مشهد النيل والمراكب المصطفَّة بطول الشاطئ أمامنا، فلم أشأ أن آخذها من أفكارها، ووجدتنا متشابهين في طبيعتنا وقت الشرود كثيرًا، بعد قليل سألَتْ زُهرة:

ـ كيف قابلتَ حبيبة؟

ـ في السفارة الأمريكية، كانت تعدُّ لمقابلات خاصة بمنحة تريدها وكنت أسعى أنا إلى السفر لنفس المنحة.

أجفلت زُهرة بشدة وتوترت وسألتني فور ردِّي عليها:

ـ هل ستسافر إلى أمريكا؟

ـ رُبَّما، لا أعلم بعدُ، وليس إلى أمريكا تحديدًا، فقط أريد أن أرحل عن هنا إلى أي مكانٍ آخر.. هذه المنحة مجرَّد وسيلة.

ـ ولماذا تريد أن ترحل؟

ـ ولماذا أبقى؟

ـ تبقى مع أهلك ومع أصدقائك، تبقى مع منير وحبيبة، ونوران أختك، أليس اسمها نوران كما ذكرت؟

ـ نعم، اسمها نوران، لكنها ستغادر هي الأخرى، تريد أن تعيش في السعودية بقيَّة عمرها لشيءٍ ما في نفسها، ونحن لم نعُدّ نعيش سويًّا، كان هذا في الماضي ونحن صغار، أما الآن فقد فرَّقتنا الأيام والحياة.

قالت لي وقد بدا عليها عدم الاقتناع بردِّي:

ـ وهل تفرِّق الأيام والحياة الإخوة عن بعضهم يا نور؟!

ـ وتفرِّق الإنسان عن نفسه.

ـ لماذا لا تسافر مع نوران إذن؟ ما دمت لا تشترط

دولة ما، فلتذهب معها إلى السعودية، هل هي ستسافر مع زوجها؟

قلت وأنا أبحث بعيني عن أي تاكسي قد يعبر أمامنا:

ـ ليست متزوجة، ولن تتزوج، وأنا لا أريد أن أعيش مع أحد، فقط أريد أن أبقى وشأني.

ـ لا أفهم شيئًا يا نور، لا أفهم شيئًا، لماذا تعرف حبيبة إذن؟ قلت لي إنها فتاتك منذ قليل؟ ما الذي يجمعك بها ما دمت تريد أن تعيش وحيدًا؟ ما الذي ستجنيه من معرفتك لها وأنت تنوي أن تتركها؟ لست أظنُّك ذلك النوع من الرجال؟

ـ لم أقل أني سأتركها، هي التي ستفعل، وما هو ذلك النوع الذي تقصدين؟

ـ تعرف ما أقصد!

ـ لست كذلك، ولا تتذاكَيّ عليَّ، أنتِ تعرفين كل شيء؟ وإلا فلتقولي لي، لماذا تبقى جميلة مثلك وحيدة هكذا لتقضي الليل كله مع رجل تعرفه فقط منذ ساعات؟ لماذا أنتِ وحيدة مثلي وربما أكثر وحدة؟

أطرقت زُهرة في حزن شديد وقالت في وجوم:

ـ وما الذي يجعلك تُجزم أني وحيدة؟، رُبَّما أكون مرتبطة بشخص ما أو لي من الأصدقاء ما لا تستطيع أن تحسبه أنت، من أين لك بهذه الثقة العمياء؟

ـ أعرف هذه النظرة التي صرخت من عينيك الليلة جيِّدًا يا زُهرة، أعرفها منذ رأيتك جالسة تنتحبين في ركن الغرفة، أراها كلما نظرت إلى المرآة، دعينا لا نلعب أدورًا ليست لنا.

ـ لك ذلك، لكني لا أواعد أحدًا وأنا في نيتي أنوي رحيلًا، كيف تفعل هذا بإنسان؟ لا يليق بمن هو في مثل حزنك هذا أن يفعل هذا الجُرم، لا يليق أبدًا.

ـ لا أفعل مثل هذا، صدِّقيني، أنتِ لا تفهمين شيئًا.

ـ أفهِمني أنت.

ـ ما أستطيع قوله لكِ إنني وحبيبة لسنا على ذلك القدر من العلاقة، هي مجرَّد.. لا أعرف ماذا أقول، سوف أنزل الآن هنا، فقط اعلمي أنه ليس لي من أحد في الدنيا الآن لأبقى هنا من أجله، وحبيبة سترحل عاجلًا أم آجلًا، حتى منير لم أعد أراه كما كنا في الماضي،

ولولا محنة قريبة حلَّت بي لم نكن لنلتقي أنا وأنت اليوم.

ـ ابقَ لأجلي إذًا.

كانت تنطقها وقد لمعت عيناها بشيء من الدموع ولم أُرِدْ أن أجرحها مرَّة أخرىٰ دون قصد أو عمدًا، لكني وجدتني مجبرًا علىٰ قتل ما يبدو أنه سيدور بداخلها الأيام القادمة، وأكثر ما كنت سأكرهه في نفسي أن يتعلَّق بي أحد أو أتعلق أنا بأحد، يكفيني حبيبة هذه الأيام لا أعلم ماذا سأفعل معها، فتحت باب السيارة بهدوء وأنا أقول:

ـ أنا لا أعرفك يا زهرة، كانت نوبة صرع تأتيني كل فترة، ليس أكثر.

قالت بتوسُّل:

ـ اعرفني إذًا ثم قرِّر، فقط صداقتك هي كل ما أرغب، هذا إن كنت تستحقُّها أصلًا.

ثم بكت وتابَعَت بصوتها وقد وهن تمامًا من بكائها المتكرر الليلة، وهي تعيد تشغيل السيارة:

ـ سأنتظرك غدًا في الأمريكين مساءً.

ثم رحلت دون أن تنتَظر ردًّا مِنِّي.

* * *

وصلت إلى منزل المزرعة بعد الشروق بقليل، تمنَّيت ألا تكون نوران نائمة، فلم أكن أرغب في إيقاظها في تلك الساعة المبكرة، كما لم أكن أريد أن أقضي وقتًا طويلًا بالمزرعة؛ لما يسببه ذلك لي من اكتئاب.

عند مدخل المزرعة أخرجت هاتفي، وأرسلت رسالة إلى حبيبة كتبت لها فيها «تعشيت في مطعمنا مع صديقة الليلة»، ورجوت ألا تُغضبها الرسالة كثيرًا.

أصدرت بوابة المنزل الحديدية الكبيرة صريرًا كريهًا وأنا أزحزها بحذرٍ كي لا أوقظ الخفير، كان آخر من تبقَّى من عاملي المزرعة بعد أن بُيِعَ معظم ما في العزبة من أراضٍ، بحثت عنه في خفوت فلم أجده، وجدت بندقيته الطويلة الصدئة ملقاة جوار شجرة النبق العجوز، وتحتها رماد نارٍ منطفئ لا يتصاعد منه الدخان.

كانت نوران تجلس على سجادة الصلاة في الفراندة تقرأ القرآن بصوتٍ غير خافت، ترتدي إسدالًا شديد

البياض كوجهها تبدو فيه كأمّنا تمامًا، وكأنها بُعِثت من جديد أكثر شبابًا وصحّة، مررت أمامها فنظرت إليَّ وهي جالسة لم تقم من مقامها، ولم توقف قراءة القرآن، وقد ابتسمت ابتسامة واسعة كبيرة ثم أسرعت من رتم قراءتها حتى أتمَّت الآية وصدَّقت، ثم هبَّت منتفضة من فوق سجادة الصلاة، وألقت بنفسها عليَّ وهي تصرخ في فرح باسمي، طوَّقتها بذراعي وقبَّلتها في رأسها واحتضنتني هي كثيرًا، وأخذت تربِّت على ظهري كل ثانية، ثم تعود لتقبِّلني في وجهي. تذكَّرت ذراعي زُهرة الليلة وقلت لنفسي إنهما متشابهتان في حنانهما إلى حدٍّ كبير.

جلسنا في شرفة المنزل الواسعة بالدور الأرضي، أرسلت الريح علينا رائحة الزهور التي اعتنت بها نوران بعد ذهابي منذ كنت في الجامعة وإلى الآن، كانت روائحها طيبة تبعث الأمل في الروح وإن كان واهنًا لا محلَّ له من الحياة، لكنه كان مطعَّمًا بروح نوران ولمستها وهي جالسة جواري تسألني عن كل شيء، وتتنهَّد كل لحظة وأخرى حامدة الله وشاكرة نعمه، وتبدي كل دقيقة فرحتها برؤيتي، ثم تقول إنها تدعو لي كل صلاة ولأمنا وأبينا، سألتها:

ـ بماذا تدعين لي يا نوران؟

فردَّت دون أن تفكِّر:

ـ أدعو لك بالرحمة، أدعو للجميع بالرحمة، هل نريد من الدنيا شيئًا أكثر جمالًا من الرحمة؟

ـ وهل يستحق الجميع الرحمة؟ هل أستحقُّ أنا الرحمة؟

قالت بثقة:

ـ لا يوجد منا من لا يستحقُّ الرحمة، الرحمة من عند الله، لم يخلقنا الله ليلعننا، نحن فقط من نفعل ذلك بأنفسنا.

ـ وهل يخلقنا الله لنلعن أنفسنا بأنفسنا، ثم نطلب الرحمة؟

ـ استغفر الله يا نور، لا تقُل ذلك، يخلقنا الله لنعبده، فقط لنعبده ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(*)، صدق الله العظيم.

صمتُّ لبرهة مفكرًا ثم سألتها مستفسرًا:

(*) سورة الذاريات آية ٥٦.

ـ وهل نعبد الله ونحن ملعونون؟

ـ نعبد الله ونحن أي شيء، نعبده ونحن ملعونون أو مكرَّمون، عبادة الله ليست وقفًا على ما نفعله لأنفسنا، كل شرٍّ بأيدينا وكل خيرٍ بيد الله، هل لديك شكٌّ في ذلك؟

ـ كل شرٍ بأيدينا، أي خير ننتظر في هذه الدنيا إذن؟

ـ يكفيك أن تقاوم الشر نفسه، هذا خيرٌ في حد ذاته.

ـ وهل نقاوم أنفسنا ونحن شرٌ يمشي على قدمين؟

ـ فقط إذا رأيت أنك شرٌّ تكون شرًّا، هل تراني شرًّا يا نور؟ هل ترى نوران أختك شرًّا.

ـ أنتِ ملاك يا نوران، لست مثلنا في شيء، لهذا لا تعيشين مع أحد، ولا تريدين أن تعيشي مع أحد.

ـ أريد أن أعيش معك، حتى أطمئنَّ عليك مع زوجتك.

قالتها وهي تبتسم كالماضي، فابتسمت رغمًا عَنِّي أيضا ثم قلت لها:

ـ ألست مسافرة قريبًا؟ كيف تريدين أن أعيش معك وأنت مسافرة؟

ـ ابقَ معي رُبَّما أغيِّر رأيي في موضوع السفر هذا.

ـ لا تضحكي عليَّ، ستسافرين، سواء بقيتُ أم لا.

ـ رُبَّما أغيِّر رأي بعد الحجِّ، فقط أريدُ أن أزور قبر النبي عليه الصلاة والسلام، ثم أقرر بعدها إن كنت سأبقى جواره أم أعود.

ـ ستبقين، يعرف كلانا أنكِ ستبقين.

ـ هل نتراهن؟

ـ أليس الرهان حرامًا؟

قلتها وأنا أبتسم لها بخبث، وأقرصها برفق شديد في خدها، فردَّت:

ـ سنتراهن على لا شيء، نتراهن فقط.

ـ ستخسرين.

ـ نتراهن على أنك أنت الذي ستخسر.

ثم ضحكت بصوت مرتفع كما كانت تفعل وهي

صغيرة، ونهضت أنا أهبط السلالم العريضة من الشرفة إلى مشتل الزهور الواسعة أمامنا، تمشَّيت بين الزهور العديدة فيه، ونوران ما زالت جالسة لم تقُم من جلستها منتظرة مِنِّي ما تعرفه، بحثت حولي فلم أجده، فنظرت إلى نوران لأسألها في صمت، فوجدتها تشير كالطفلة بترقُّب إلى سور السقيا في طرف الحديقة، فذهبت إليه والتقطت مقصًا كبيرًا يُستخدَم في تقليم الزهور، ثم عدتُ إلى الحديقة واقتطعت لها بعض الزهور التي أعرف حُبَّها لها ونسَّقتها حول بعضها، ثم قطعت بعض الأغصان الرطبة من بين الأعشاب بيدي ولففته حول الأزهار، وربطته بعناية؛ لأجعلها متماسكة ثم عُدّت بها إليها، وناولتها إياها.

نظرت إليها نوران بفرح عظيم به شجن طويل، ثم تناولت يدي ومالت عليها ثم قبَّلتها قائلة:

ـ تعالَ عِشْ معي يا نور.. لن أسافر لو أتيت، بل لن أذهب للحج لو وافقت إلا وأنت معي.

تنهَّدت في صبرٍ وقلت:

ـ لا أستطيع، لا أستطيع أن أعيش هنا.

فقالت في حزن:

ـ تتركني وحدي كثيرًا.

ـ تعاليّ أنتِ وعيشي معي، سنبيع ما تبقّى هنا ونشتري أرضًا غير هذه الأرض، أرضًا أكثر جمالًا، وسأزرع لك فيها زهورًا أجمل من هذه.

ـ هل نترك بيتنا يا نور؟

ـ نعم، نتركه.

ـ ألا تفتقد أمّنا؟

ـ لهذا نتركه، كل شيء هنا حزين وكئيب، حتى هذه الزهور.

ـ لكن هذا بيتنا.

ـ هذا شرٌّ.

ـ سامحك الله.

ـ ليته يسامحني.

ثم صمتت نوران وصمتُّ أنا أيضًا، وبقينا بعض الوقت لا نتحدَّث في شيء، ننظر فقط ناحية الشمس،

ويشرد كلانا في ذكرياتنا سويًّا ونحن صغار في هذه المزرعة، قالت نوران بعد صمتنا الطويل:

ـ هل ستنام الآن؟

ـ لا، لن أنام.

ـ هل ما زلت لا تستطيع النوم؟

ـ لا سأذهب الآن.. لا أستطيع أن أبقى هنا كثيرًا، تعلمين هذا.

ـ ستعود إلى الإسكندرية؟

قلت في شرود:

ـ لا أعرف.

ـ على راحتك. اسأل عليَّ، أنا وحيدة، وحيدة بشدة.

ثم بكت طويلًا، فأخذتها تحت ذراعي، ولم أجد شيئًا لأقوله لها، أبقيتها ملتصقة بي هكذا الدقائق، ثم تسحَّبت من بين يديها بعد قليل، وهي صامتة لا تقول شيئًا، ثم سلَّمت عليها من بعيد، وأنا عند البوابة الحديدية، وقد عاد الخفير لاهثًا يُلقي التحيَّة من بعيد، ويُردِّد جُمَلًا لم أسمع منها شيئًا، ثم رنَّ هاتفي برسالة من حبيبة تقول

فيها: «رأيتكما، صديقتك جميلة»، أخذت أفكِّر فيما يمكن أن يكون قد وقع في نفسها من رؤيتها لي مع زُهرة، ولماذا لم تَقُم بالاتصال بي ما دامت قد رأتنا، وخفت أن تكون قد تضايقت فعلًا. نظرت من بعيد إلى المنزل، ونوران ما زالت جالسة وحيدة، ويكاد صوت نحيبها يصلني.

أخذت أتمشَّى إلى الطريق الرئيس تاركًا المنزل والمزرعة خلفي، وتمنَّيت أن أجد تاكسي ضالًا في هذا المكان الموحش ليعيدني إلى وسط المدينة بسرعة، وفي الطريق هاتفت منيرًا وطلبت منه رقم زُهرة.

* * *



(٤)
منير

لم تكن نيتي في الذهاب مع زُهرة إلى الإسكندرية لتوصيلها غرضها الرئيسي إعفاؤها من عناء القيادة في هذا الطريق الطويل، ولا لتوديع حبيبة كما قلت لزُهرة عندما اتفقنا على الذهاب سويًّا.

في السادسة صباحًا مررت عليها وكانت قلقة بشدة على نور، كل من يعرف نور عن قرب يحمل همَّه بعد فترة قليلة، وعندما عرفت زُهرة جيِّدًا وجدت فيها من روح نور الكثير، رأيته في عينيها أكثر من مرَّة، في حكاياتها المتقطعة عن عبد الله وطيبته، وفي حكايتها

عن نفسها أيضًا، ولم أهدأ إلا بعد أن عرَّفتهما على بعضهما، كان يوم التعارف قاسيًا علينا جميعًا، وكنت على موعدٍ يومها مع فتاة جديدة في منزلي، وقد أربك نور اليوم بسؤاله زُهرة عن زوجها الذي لا تتحدَّث عنه إلا من نفسها، ولا تحبُّ السؤال عنه أو عن قِصَّة زواجهما أبدًا.

كان الطريق هادئًا وخاليًا إلى الإسكندرية، لكن روحًا كئيبة كانت تغمرنا طوال الطريق، وكأن حزن نور الذي نعرفه جميعًا كان معنا في المقعد الخلفي للسيارة، وقلق زُهرة البالغ عليه جليًا في حديثها معه كل فترة على الهاتف ونحن في الطريق، ومحاولاتها المستمرَّة للاطمئنان منه على نفسه، وتوسلاتها المكررة له أن يتماسك اليوم، وألا ينسى دواءه أو أن يتعمَّد نسيانه.

حاولت طمأنتها عليه أكثر من مرَّة، لكنها كانت لا تستجيب، وكانت تنعتني بين مرَّة وأخرى بالبارد الصنم وبالرفيق السيئ، فكنت لا أبدي غضبًا أمامها، إلا أنها عندما أشارت إلى شكها في سبب ذهابي الحقيقي إلى الإسكندرية هذه المرَّة كان صمتي فاضحًا، ولم أشأ

أن أكذب عليها في وجهها، لكني أيضًا لم أستطع أن أقول لها شيئًا.

لم تكن زُهرة تسأل كثيرًا، إلا أنها عندما تسأل، يُفتح الوجع سريعًا من وقع السؤال، ويطغى جمالها على من يريد الكذب عليها فيعجز عنه، وتطغى رقّتها وبراءتها البائنة على من يريد الحكي عن وجعه فيصمت، طالما أردت أن أحكي لكِ يا زُهرة، منذ يوم الحسين وأنا أتمنّى أن أقول كل شيء لك أنت وحدك، رُبّما يخفُّ الحمل عن كتفي قليلًا بالبوح، حاولت مرّات ومرّات أن أحكي لنور، لكني كل مرّة كنت أتراجع قبل أن أنطق بكلمة، خشيت أكثر من مرّة أن أخسر محبته واحترامه الحقيقيين لي، وخشيت مرّات أخرى من نفسي أن أتجنّبه بعد الحكي ولا أستطيع أن أضع عيني في عينيه مرّة ثانية، وهو يكاد أن يكون صديقي الطيب الوحيد الذي أعرفه غيرك.

كنت أعرفه كنفسي، وأعرف طيبته منذ تقابلنا أول مرّة في صيدلية الدكتور «عزيز»، منذ أن سألني «أنت مسيحي؟»، وهو ينظر إلى الصليب الصغير على يدي بعينيه البريئتين، قرّرت لحظتها أن أصادق براءته وحزنه

البائنين عليه، جررته أكثر من مرَّة إلى عوالمي الغريبة عليه، فكان يبدو كطفل صغيرٍ يحبُّ الماء بشدة، ويصرخ في إلحاح أن يذهب إلى البحر، لكنه لا يتحرَّك من مكانه فور أن تغمر مياه الشاطئ ركبتيه، يعشق الطيران دون أن يفرد ذراعيه ولو مرَّة واحدة، وكنت أعايره بخوفه أحيانًا، وأثني عليه تحفُّظه البائن تجاه الحياة، وإيمانه الطيب بربه وبرحمته.

كان يجذبه في حياتي حبي الثائر للحياة وللعبث والجنون، ويجذبني فيه حبه الصامت للطبيعة والسكون وبراءة الأشياء، وما اعتدته من حديثه الدائم عن طيبة الناس وضعفهم الموروث تجاه الرغبات والحياة، أخبرني أنه لم يعرف مبررًا حقيقيًا لدراسة الطب غير أن هذا هو نصيبه الذي قدَّره له ربه ليكون آية لرحمته في الأرض.

كنت كلما سمعته يقول: «آية للرحمة في الأرض» أسخر من كلامه بشدة أمامه، لكني كنت أصدِّقه بيني وبين نفسي تمامًا، وكنت أراه ذلك الطبيب الشاب الماهر طيب القلب الذي يحنو على مرضاه رغم فجاجتهم ومللهم وتكرر شكواهم، وكنت أراه يصاحب المسنِّين منهم ويمنحهم

من السكينة والرحمة ما لم يستطع أن يقدِّمه لأمه التي لا يمَلُّ الحديث عنها كلما أتت مناسبة لذلك أو لم تأتِ، وكان ثائرًا دومًا على المرضات المهملات اللاتي يشتكي منهنَّ المرضى؛ لسوء معاملتهنَّ لهم.

في عامنا الثالث بالكلية، كانت صديقتي جورجيت تحدِّثني عن سلمى كثيرًا، تحدِّثني عنها كل يوم تقريبًا، كم هي بريئة، كم هي طيبة وكم أنَّ سلمى أكثر صديقاتها تفهُّمًا لها وقربًا، وأكثر الفتيات ذكاءً في الجامعة، أثار حديث جورجيت المستمر عن سلمى فضولًا صغيرًا بداخلي أخذ ينمو تدريجيًّا حتى تحول إلى رغبة حقيقية في معرفتها عن قرب.

تقابلنا أول مرَّة بعد إلحاحٍ غير واضحٍ مِنِّي على جورجيت، لكنه جعلها تقبل أن تُعرِّفني عليها في النهاية، لكنها قالت بوضوح:

ـ منير.. أرجوك لا تنسَ أن سلمى مسلمة، أرجو أن يكون هذا واضحًا؟

فرددتُ عليها كمن لم يُلقِ بالًا للكلام:

ـ ما لكِ تصنعين موضوعًا من لا شيء؟

لكني كنت متلهفًا بشدَّة إلى معرفة تلك الفتاة التي تصرُّ جورجيت كل مرَّة على نعتها ببنت الناس وبالمهذبة، وأنا أعرف جورجيت وأعرف معظم دوائر صديقاتها جيِّدًا، وتعجَّبت من وصفها المختلف هذا لسلمى، وكانت جورجيت بالتأكيد تعرف الكثير عن مغامراتي الساخنة في شقتي ممن عاشرتهنَّ من صديقاتها، إلا أنها لم ترفض أن تُعرِّفني على سلمى، وكان غريبًا عليَّ أن أسمع عن سلمى هذه منها، ولا يأكلني الفضول أن أراها ولو مرَّة واحدة.

في كافيتيريا الكلية، جاءت جورجيت ومعها فتاة طويلة خمرية واسعة العينين جدًّا، تكاد عيناها أن تكونا كاملتي الاستدارة، تحمل أنفًا رفيعًا وحادًا جوار وجهها الهادئ الذي لا يتَّفق مع جسدها الواضحة ثورته رغم ثيابها المحتشمة تمامًا، والتي كانت تغمره وتخفي مفاتنه.

لكني بخبرتي في النساء كنت أكشف حجابها في خيالي بهدوء؛ لأرى شعرها الثقيل الطويل وقد صنعت منه ذيل حصانٍ طويل ثنته حول نفسه، ووضعت عليه الحناء؛ ليبدو أنعم في مرآتها وهي تضفِّره قبل النوم، وكنت

أرىٰ قميصها الأبيض الواسع الأشبه بقمصان الرجال الذي تتركه يهبط بأريحية فوق جيبتـها الضيقة نوعًا ما، فيرسم قميصها هذا رغمًا عنها بعضًا من مفاتن صدرها وخصرها ويجسِّد تضاريسهما الرخوة بين الحركة والحركة، ووجدتني أخجل من نفسي حينئذ وأغضُّ بصري دون أن أفهم كيف أخجل هكذا لنظري إلىٰ جسد أنثىٰ رُبَّما لأول مرَّة في حياتي.

حيَّتني سلمىٰ بهدوء، ومدَّت يدها لتُسلِّم فرددت عليها بارتباك خفيف، وتساءلت في سري عمَّا حدث لي، طلبت لهما شايًا وتحدَّثنا عن الكلية قليلًا ثم سألتني سلمىٰ كالطفلة إن كنت قد رأيت المسرحية التي تعرضها الكلية هذا الأسبوع، فأخبرتها أنني لم أسمع عن وجود مسرح بالكلية من الأساس، بانت بعض معالم الغيرة علىٰ جورجيت وهي تراني وقد اعتراني اهتمام أكثر مما توقَّعت هي مِنِّي تجاه سلمىٰ، وكنت أعرف معالم الغيرة علىٰ وجه الفتيات فور أن تبدأ، وأشم رائحتها قبل أن تفور، استأذنتني جورجيت بعد دقائق قليلة أمضيناها نتحدَّث أحاديث متقطعة، وطلبت أن تذهبا للحاق بالمحاضرة، تعجَّبت سلمىٰ من سؤالها ثم فَطِنت إلىٰ

أنها تتحجَّج راغبة الرحيل، فطاوعتها وهي خجلة من مجاراتها جورجيت لكذبها الواضح.

عاتبتني جورجيت بعد ذلك على اهتمامي الواضح بسلمى، وقالت لي إنني لم أنزع بصري من وجهها طوال وقوفنا بالكافيتيريا، وقالت إنني كنت كالمراهقين، فرسمت دهشة زائفة على وجهي، ثم حكت لي أنها قد أخبرت سلمى عَنِّي وعن نزواتي وجموحي في الحياة وعبثي المستمر مع الفتيات حتى لا تشعر بذنب تجاهها، موضحة لها ومؤكدة على أننا لا نصلح صديقين ولا أي شيء آخر.

أخبرتني سلمى بعدها أنها لامتها على هذه الغيبة السيئة في حقي، ولامتها أنها عرَّفتها عليَّ ما دامت تراني بهذا السوء.

في المرَّة الثانية تقابلنا أنا وسلمى في ردهة المعمل، ولم تلمح سلمى أني ترَّصدتها طوال اليوم لأفتعل صدفة المقابلة، سألتها مباشرة بعد سلام سريع أن تتناول شيئًا معي في الكافيتيريا إن كانت قد أنهت محاضراتها، فاعتذرت بابتسام كي تلحق بموعد الصلاة في مسجد

الكلية، وبعد أن حيَّتني وانصرفت استدارت إليَّ وقد وجدتني لم أرفع عيني عنها، وقالت وهي تبتعد بخطًا خفيفة بظهرها:

ـ لو كنت موجودًا بعد محاضرة الساعة الرابعة ستجدني في المدرَّج الكبير.

وانصرَفَت ولم تنتظر موافقتي مِنِّي على اقتراحها، وكأنها تعلم تمامًا أنني سآتي إليها، وأنني أودُّ مجالستها بأي صورة.

لم تكن سلمى كجميلات الكلية اللاتي أعرف جميعهنَّ، لا تضع على وجهها الهادئ غير الكُحل الخفيف، وأحيانًا قليلة تضع بعضًا من أحمر الشفاه الوردي، لا ترتدي من ألوان الثياب إلا الألوان الصريحة كالأبيض والكحلي وغيرها، حتى حجابها كان بسيطًا ومباشرًا ودون تعقيدات كسائر الفتيات.

في الصفِّ الأخير بمدرج الكلية كانت جالسة تمسك بشطيرة التهمت جزءًا صغيرًا منها، وتخطُّ شيئًا ما على الورق أمامها، حيَّيتُها بابتسامة فمدَّت يدها لتسلِّم عليَّ ثم قالت مازحة:

- ألا تسلِّم على الفتياتِ بيديك أم ماذا؟ هل أنت متحفِّظ تجاه النساء أم أنك خجول؟

لم أضحك على دعابتها، وودت أن أخبرها أنني ببساطة أرتبك أمامها كل مرَّة وأخجل قليلًا من التعامل على طبيعتي، أو أنني حقًّا لا أستطيع أن أكون كذلك، ناولتني ما تبقَّى من شطيرتها التي كانت تأكلها ولم تنظر إليَّ وهي تفعل ذلك، فشكرتها رافضًا إلا أنها ظلت مادَّة يدها تجاهي ونظرت في وجهي بعينيها الواسعتين، وكأنها تأمرني أن آخذها منها فأخذتها منها خجلًا، ثم أشارت إليَّ بالجلوس.

قضمت من الشطيرة وغلبني الصمت، وأخذت أتفحَّصها وهي جالسة، كانت ترتدي بنطلونًا من الجينز يجسد ضيقه العلوي عند ساقيها جسدها والتفاف فخذيها المتناسق كاملًا، ثم يهبط متسعًا اتساعًا كبيرًا كالجيبة ويغطِّي جزء كبير منه بلوزة سماوية ضيِّقة قليلًا عند خصرها، وقد وضعت قدمًا فوق الأخرى ما لبثت أن عدَّلت من وضعها فور أن جَلستُ جوارها، لتستدير ناحيتي ونحن نتحدَّث، ثم أرخت ظهرها للوراء قليلًا وعقدت يديها تحت صدرها، فازداد امتلاءً، ثم سألتني:

ـ حضرت المحاضرة؟

فأشرت نافيًا وأنا أحاول بصعوبة أن أبعد ناظري الفاضح عن جسدها، فتابعت تسأل:

ـ لماذا؟ هل أنت بليد؟

ضحكت من سؤالها كثيرًا، وقلت:

ـ بليد؟ لم أسمع هذه الكلمة منذ كنت في الابتدائية.

ـ وهل كنت بليدًا في الابتدائية؟

فقلت مبتسمًا:

ـ لا، بل كنت عبقريًا، لكني كنت فاشلًا تمامًا في الثانوية العامة.

ـ لماذا؟ هل كنت قد بدأت مصاحبة الفتيات؟

فاجأني سؤالها الجريء غير المتوقَّع تمامًا، فصمتُّ قليلًا ثم سألتها وقد أغضبني حديثها الأخير:

ـ هل أصبحتْ سُمعتي في الكلية سيئة إلى هذا الحد؟

فقالت مداعبة وببساطة:

ـ أكثر قليلًا، لكن ليس في الكلية فقط، قل في الجامعة.

ثم أكملت بعد ما رأت أنني جادٌّ في غضبي:

ـ لا تغضب هكذا، ألا يحب معظم الشباب هذا الصيت؟ أم أنك تتصنَّع الغضب أمامي؟

ـ لا، لا أتصنَّع شيئًا، وأكره التصنُّع والمتصنِّعين، هل قالت لكِ جورجيت عَنِّي شيئًا؟

ـ نعم، قالت الكثير، بل نصحتني أن أبتعد عنكِ؛ لأنك لا تليق بي كصديق، لكني لم أهتم، عامة أنا أعرف الكثير عنك قبل أن تقول هي أي شيء لي.

ـ ولماذا تجلسين معي إذن؟ ألا تخافين مِنِّي؟

ـ لا، لا أخاف منك، لست طفلة يا منير، كما أنك لا تعضُّ.. هل ستعضُّني بعد قليل؟!

ونجحت هذه المرَّة في انتزاعي من غضبي وإضحاكي بصدق رغم ما وقع في نفسي من أثر سؤالها، وما لفتت انتباهي إليه رُبَّما للمرَّة الأولى في حياتي أنني رُبَّما أكون شخصًا سيئ السمعة فعلًا، ويخشاه المحترمون من الناس، سألتها أن نذهب لنجلس في مكان آخر وقلت: «أنا لم أكن من مريدي قاعات المحاضرات ولو لمجرَّد مصادقة الفتيات».. وتعمَّدت أن أكون صريحًا معها

وقد دفعتني جرأتها وصراحتها إلى ذلك، إلا أنها قالت لي إنه ليس اليوم؛ فهي مرتبطة بموعد كورس الرسم الذي تذهب إليه، سألتها إن كان يمكن أن أذهب معها رغبة في رفقتها المزيد من الوقت، فلم تعترض وخرجنا سويًّا من المدرَّج.

بعد أيام قليلة صرنا صديقين مقربين، كما انتظمت معها في كورس الرسم هذا في البداية؛ لتمضية أكثر الوقت المتاح جوارها، وكنت أرتاح بشدة للحديث معها في أي شيء تختاره هي أو أختاره أنا، ثم وجدتني أحب الكورس ودروس الرسم والنحت جدًّا، رغم محاولاتي لقتل تلك المحبة في الماضي، إلا أنَّ شيئًا ما تفجَّر في نفسي بعد معرفتي بسلمى، فأطلقت العنان لخيالي، ورحت أخطُّ على اللوحات والأقمشة ببراعة أدهشتني وأدهشتها كثيرًا، حتى إنني تساءلت عمَّا جعلني مغيّبًا عن عشقي الحقيقي القديم للفنون بألوانها، وأين ذهب من حياتي العابثة طوال هذه السنوات، وأخذت أتذكَّر المسابقات الفنية التي كنت أفوز فيها وأنا صغير في المدرسة، وسقطت مِنِّي مع تساقُط الأيام حتى نسيتها تمامًا.

كنا نتمشّى أنا وسلمى بعد يوم دراسة طويل نستهلك بعض الوقت حتى يحين موعد كورس الرسم الخاص بنا، فقلت لها:

ـ أعتقد أني أحببت النحت أكثر من الرسم بالزيت، أجد فيه نفسي أكثر، أحببت شكل الحجر عندما يتحوَّل إلى شيء له معنى ويكاد ينقصه أن ينطق لتدبَّ فيه الحياة.

ـ تابع فيه إذن ما دمت قد وجدت نفسك فيه، المهم أن تفعل ما تحب، والأهم أن تذاكر، يقترب العام من نهايته.

ـ لا أخاف من الامتحانات ولا تهمني، أظنُّ أنني لن أنجح هذا العام.

فقالت بلامبالاة:

ـ على راحتك، ما دام هذا سيجعلك أكثر راحة.

ـ هل تستفزينني لكي أقول لك إني سأذاكر؟

ـ نعم.

ـ لكني لن أذاكر فعلًا، لن أكذب عليكِ.

ـ ألا تكذب أبدًا؟

ـ أكذب بالطبع أحيانًا، لكني لن أكذب عليكِ، لن أُحِبَّ نفسي لو كذبت عليك، كما أنني لا أجد داعيًا لذلك.

صمتت سلمى قليلًا، ثم سألت في لهجة غريبة:

ـ قل لي يا منير، ما الذي يعجبك في الفتيات التي تمضي معهنَّ الوقت؟

فاجأني سؤالها ولم أفهم ما وراءه فسألتها:

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد الفتيات اللاتي يذهبن إلى بيتك، أو تذهب أنت إليهن، من تنام معهن يا منير!!

توقَّفت عن السير من وقع المفاجأة، فاستدارت إليَّ وهي مكمِّلة سيرها دون توقُّف، وقالت وغضبٌ ما بدأ يظهر في كلامها:

ـ لا تتوقَّف، الطريق ما زال طويلًا، وما لك تفاجأت هكذا؟ تظنني حقًّا لا أعلم؟

ثم تابعت السير وكأنها لم تقل شيئًا، فمشيت وراءها محنيَّ الرأس ملجم اللسان من وقع السؤال، سرنا

صامتين هكذا لدقائق قليلة، ثم أكملت هي سائلة:

ـ أعني ما الذي يعجبك في هذا؟ ما الذي يدفعك حقًّا إلى فعل هذه الأمور؟ هل هي مجرَّد شهوة لا تستطيع أن تتحكَّم فيها؟ أم أنك تختال بنفسك وأنت تنام كل يومين مع فتاة ما؟ هل يُشبع ذلك إحساسك بالرجولة والفحولة؟ أم أنها متعة شخصية لديك أن تجد نفسك وأنت مرغوب فيك من فتاة ما ترقد عارية على فراش؟ هل هو مجرَّد إطفاء أعمى للرغبة؟ أم هو كل ذلك أم غيره؟

لم أردَّ عليها وشعرت أني أتصبَّب عرقًا فجأة، ووجهي يغزوه الدم، وأشعر بسخونته، وكانت الشمس تنعكس بشدة ووضوح على قباب زجاجية كبيرة ملقاة بعيدًا فوق سقف مكتبة الإسكندرية زادت من إحساسي بحرارة الجو، وتوقَّفت سلمى عن السير، والتفتت إليَّ وقالت بلهجة حادة:

ـ من فضلك أنا أكلِّمك، رُدَّ عليَّ ولا تتركني أكلِّم نفسي، أو اطلبْ مِنِّي مباشرة أن أغلق المناقشة.

صمتنا لدقيقة وأخذت أفكِّر في كلامها وفي أي ردٍّ

عليه، فلم أستطع أن أجمِّع كلامًا منطقيًا مقنعًا لها أو حتىٰ لنفسي، فقلت:

ـ لا أعرف ماذا أقول.

ـ قل عندما تعرف إذًا.

ثم تابعت المسير وقالت: «هيَّا بِنا، ستتأخَّر علىٰ الكورس».. فمشيت صامتًا جوارها دون أن أردَّ بشيء، ووصلنا مبكرًا علىٰ الموعد بالطبع ولم يكن أحدٌ قد أتىٰ بعد، فجلست سلمىٰ تضرب بفرشاتها بعض الألوان علىٰ لوحة بيضاء خالية، وأخذت أنا أخبط في حجرٍ ما لا أعرف ماذا أريد أن أصنع به، ولم ينطق كلانا بحرفٍ طوال اليوم.

أمضيتُ المساء غاضبًا بشدة وشربت كثيرًا في الليل ولم أكن أشرب إلا قليلًا، ثم استيقظت بعد الظهر، وذهبت مسرعًا إلىٰ الكلية، واتخذت قرارًا وأنا في الطريق بألا أتكلم مع سلمىٰ ثانية، وأن أقطع علاقتي بها نهائيًا، وربَّما مع جورجيت أيضًا، أظنهما الآن تتحدثان عَنِّي وتحكي لها جورجيت ما تسمعه من أصدقائنا المشتركين عن حكاياتي مع الفتيات، وربَّما تتمنَّىٰ سلمىٰ في خيالها

أن تكون هي مكان إحداهن لكنها تأبى أن تصرِّح بذلك.. مَن تكون هي لتتدخَّل في أموري الخاصة وحياتي الشخصية بهذه الوقاحة، هذه الحياة هي حياتي وأحبها على ما هي عليه، ولا أنوي أن أغيِّر منها في شيء، ومن لا يعجبه سلوكي أو علاقاتي بالفتيات فأولى به ألا يعرفني أو أعرفه، وألا يدَّعي صداقة من أي نوع أمامي وهو يسبُّني ويحتقرني بينه وبين نفسه.

لم أفهم شيئًا في المحاضرات وكنت شاردًا طوال اليوم، وأفكر كل دقيقة في كلام سلمى ونظرتها لي وهي تقول: «ما الذي يدفعك حقًّا إلى فعل هذه الأمور؟».. وسألت نفسي في لحظة تفكير طويلة: ما الذي يدفعني حقًّا إلى ذلك؟ أهي الشهوة الجامحة التي لا أستطيع أن أوقفها أو أتحكَّم فيها؟ هل تحكمني الغريزة وتتملكني تمامًا وأنا لا أشعر؟ إن كان هذا حقيقيًّا، فهل لو احتجت مالًا قد أسرق أحدًا؟ هل أسرق والدي يومًا؟ أو أسرق مالًا من صيدلية الدكتور عزيز؟ هل سيأتي يوم تعجبني فيه إحداهن وتتمنَّع عَنِّي فأخطفها وأقوم باغتصابها كي أشبع شهوتي؟ ما الذي يدفعني إلى فعل ذلك؟ كيف لم أسأل نفسي مرَّة واحدة عن هذا

الذي أفعل؟ ما زلت في أوائل العشرينات؟ ما الذي سأصير عليه عندما أصبح في الثلاثين من عمري؟ هل سأتزوَّج يومًا ما؟ هل سأخون زوجتي كل يوم؟ هل سأعاشر زوجات أصدقائي لو سُنِحَت لي فرصة؟ هل سأصبح رجلًا سكِّيرًا أو مدمنًا بعد سنواتٍ؟ لماذا لم أجرِّب القمار حتى الآن؟ هل سيأتي عليَّ يوم قد أقتل فيه أحدًا؟

أخذ رأسي يلف ويدور بالأسئلة دون توقُّف، وإحساس غامر بالاختناق يحتلُّ صدري ويُشعرني بالغثيان والرغبة في القيء.

خرجت من المحاضرة في منتصفها ودون أن أستأذن الدكتور أمام الجميع مثيرًا فضولهم، بعد قليل اتَّجهت إلى جدول المحاضرات وبحثت عن مجموعة سلمى في الجدول، ووجدت أنها في المعمل فاتجهت إليها، ظللت منتظرًا نصف الساعة أمام باب المعمل أروح وأجيء في الطرقة الطويلة وسط تساؤلات المعيدين وبعض الطلبة، وألمح سلمى بين لحظة وأخرى وهي تصبُّ السوائل الملوَّنة في أنابيب الاختبار، وتضعها فوق اللهب فأشعر أن روحي هي التي تغلي داخلها.

خرجت سلمى وكانت جورجيت معها وبعض الأصدقاء، فأشرت إليها أن تأتي، ولم أسلِّم على جورجيت أو أي من أصدقائهم، مشت سلمى أمامي وهي تثني المعطف الأبيض الخاص بالمعمل وترتِّبه بعناية داخل حقيبتها، وخرجنا إلى الشرفة الخلفية للمبنى، والتي كانت تطلُّ على حديقة قديمة صارت مع الإهمال أشجارًا جافة ميتة وبركة واسعة راكدة من مياه الري المتسرب تصنع بركًا أخرى صغيرة حول الأشجار، أسندت سلمى ظهرها إلى سور الشرفة القصير، وسألتني:

ـ ماذا بك؟ تبدو غاضبًا! عيناك محمرَّتان أيضًا؟ ألم تنم الليلة؟

ـ فكَّرتُ كثيرا ولم أجد ردًّا.

ـ فكَّرتَ في ماذا؟

ـ فكَّرتُ في سؤالكِ، لماذا أفعل هذه الأشياء؟ لماذا أعاشر الفتيات؟ لماذا أشرب أحيانًا وأذهب إلى البارات منذ سنوات رغم أنني لا أحب الخمور؟ لماذا أدرس في كلية لا أحبها وأصادق أناس لا أثق بهم؟ بل لماذا أحيا؟ ما الهدف من وجودي في هذه الحياة؟ وما الذي سيخسره العالم لو مت الآن؟

قالت سلمى بسرعة:

ـ بعيد الشر عنك، لا تقلْ هذا.

ـ الموت ليس شرًّا، رُبَّما هو رحمة، نحن فقط لم ندرك ذلك بعد.

ردَّت معترضة:

ـ الحياة نعمة جميلة، احمدِ الله أنك حي، وأنك خُلقت إنسانًا وليس جمادًا كهذا المبنى أو شجرة كتلك، أو حتى طائر مثل هذه الطيور.

وكانت تشير بيدها إلى الطيور العديدة التي تقف فوق الأشجار الجافة أمامنا، نظرت إليها وفكرت مليًا ثم تابعت:

ـ ليتنا مثل هذه الطيور يا سلمى، ليتنا طيور نأكل الحَبَّ طوال النهار وننام عند الغروب في بيوتٍ من قشٍ دون تفكير في أي شيء.

ـ يمكنك أن تأكل الحَبَّ وتسكن في بيت من قش لو أردت دون أن تكون طائرًا، ليس هذا بمستحيل.

ـ وهل يمكنني التوقُّف عن التفكير؟

ـ وهل تتمنّىٰ أن تزول نعمتنا الكبرىٰ التي كرَّمنا الله بها عن سائر خلقه؟

ـ وهل يكون العذاب نعمة؟

ـ ليس بعذاب يا منير، العقل ليس بعذاب، إنما هو نعمة كبيرة، لكننا قد لا ندركها إلىٰ أن نموت.

نظَرَتُ مليًا إلىٰ الطيور ثانية، وأعدت التفكير فيما قالته، وسألت نفسي كيف تراني سلمىٰ حقيقة؟ كيف تشعر ناحيتي وهي تعلم عَنِّي ما تعلم؟ هل تراني جديرًا حقًّا بصداقتها؟ إن كانت غير ذلك، كيف تقف معي تناقشني في حياتي وفي طريقة تفكيري؟ هل هي ترغب فيَّ بشدة لكنها تقاوم نفسها وتديُّنها؟

سألتُها وأنا ما زلت أنظر ناحية الأشجار وقد بدأت الشمس تهبط بسرعة ناحية الغروب:

ـ كيف ترينني يا سلمىٰ؟

ـ أراك جميلًا.

قالتها دون تفكير وهي تضع يدها برفق فوق كتفي كأب طيب ناصحًا طفله الصغير، ثم نزعتها بسرعة

وبهدوءٍ أيضًا دون أن أشعر أنها فعلت حقًا، ثم قالت متابعة:

ـ وأراك طيبًا.

رددت عليها وقد أثَّر فيَّ كلامها بشكل لم يحدث لي من قبل مع أحد:

ـ إنما أنتِ الجميلة يا سلمى، ليتنا صديقين منذ زمن.

ـ لا يهم، نحن صديقان الآن، آسفة على ما سبَّبته لك من إزعاج بالأمس، لكني شعرت أنه لا أحد من أصدقائك يسألك عمَّا تفعله بحياتك ولا يلومك على شيء، أصدقاؤك نفسهم معظمهم غير مريحين، فشعرت أنه من واجبي أن ألفت انتباهك إلى ما تفعل، رُبَّما يكون غير ما تريده لنفسك يومًا لكنك لا تشعر.

ـ لا أعرف ما أريد في حياتي إلى الآن، ولا أظن أني سأعرف يومًا، لكن حديثك معي لفت انتباهي رُبَّما للمرَّة الأولى أني لا أستمتع حقًّا بما أفعله في حياتي الآن، حتى في الكلية أيضًا، لست أدري ما هذا الذي أدرسه ولا ما الذي سأفعله به؟

ـ خذ وقتك يا منير، ما زالت الحياة أمامنا طويلة

وواسعة، وأمامنا الكثير لكي نعرفه، نحن ما زلنا صغارًا، صغارًا جدًّا على إجابة هذا السؤال، رُبَّما لا نعرف يومًا ما الذي نريده من هذه الحياة، وربما نعرفه غدًا، من يعلم؟

ـ نعم، من يعلم؟ لكني أريد أن أعرف ما الذي تريدينه لنفسكِ؟ أنت عاقلة وحكيمة ويبدو أنك تعرفين جيِّدًا ما الذي تريدينه لنفسك منذ زمن.

تبسَّمت من كلماتي لها وقالت:

ـ رُبَّما أنت مخدوع فيَّ، وربما أنا أكثر منك جهلًا، فقط أريد الآن أن أنتهي من هذه الدراسة المملة، وأن أتفرَّغ بعدها لدراسة الرسم، أرغب بشدة أن يكون لديَّ جاليري كبير ذات يوم، هنا أو في القاهرة، زرت جاليري مرَّة بالزمالك عند قريبة لي هناك، ولم أنسَ منه تفصيلة إلى الآن، أعتقد أن هذا هو حلمي السري، هل تعلم؟ لم أحكِ لأحد عنه قبل الآن؟ أرأيت؟ كم هذا غريب؟! يبدو أنني أثق بك أكثر مما أدرك.

سرت قشعريرة جميلة في جسدي وأسعدتني جملتها هذه بشدة، وتمنَّيت لو أمكنني أن أحتضنها ولو للحظة،

لكني كنت أعرف أن هذا مستحيل، فنظرت إليها طويلًا، بينما ابتسمت هي في صمت، بعد برهة من النظر إلى بعضنا في سكون قلت لها:

ـ سأعزمكِ على الغداء اليوم.

فابتسمت قائلة:

ـ بل قل ستعزمني على الإفطار.

ـ ألم تأكلي شيئًا أنتِ أيضًا منذ الصباح؟

ـ منذ الفجر، اليوم واحد رمضان يا أستاذ، كل سنة وأنت طيب، أنا صائمة، وماذا تقصد بأيضًا هذه؟ ألم تفطر أنت بعدُ؟ هل تصوم معنا أم ماذا؟

تنبَّهت إلى ما تقصد وقلت:

ـ لا أنا لا أفطر عادة، حسنًا، سأعزمك اليوم على الإفطار في مطعم جيِّد أحبه جدًّا في محطة الرمل قريب من المرسم.

ـ لا ليس اليوم، أول رمضان دائمًا للأسرة.

ثم نظرت إلى ساعتها وتابعت:

ـ سيفوتني العصر، وسأتأخر على الأفطار معهم هكذا، لابد أن نغادر الآن.

كانت قد أوشكت أن تتحرَّك، فصحت بها بتوسُّل وأنا أنظر إليها بعمق:

ـ قولي لي على شيء تتمنَّينه يمكنني أن أفعله لكِ، أي شيء فقط يكون في مقدرتي فعله لكِ.

فكرت قليلًا ثم قالت:

ـ أريد أن أفطر يومًا من أيام رمضان هذا العام في الحسين بالقاهرة، هل تسافر معي نفطر هناك سويًّا، ثم نرجع بعد الإفطار؟

رددتَ عليها دون تفكير:

ـ أسافر.

ـ اتفقنا إذًا، دعنا نرتِّب غدًا لموعد مناسب للذهاب.

ثم نظرتْ إلى ساعتها ثانية وتابعت:

ـ لابد أن أتحرَّك الآن، هل ستوصلني أم ستتركني أسير وحدي.

ـ سأوصلك بالطبع.

ـ حسنًا، سأصلي العصر سريعًا وأعود إليك، لن أتأخر.

ـ خذي وقتكِ.

ثم مضت مهرولة ناحية المسجد وبقيت مكاني أنظر ناحية الأشجار مرّة أخرى، وكانت الطيور قد بدأت تتجمَّع فوق الأفرع الجافة، وما زالت بعض الطيور البيضاء تعود تباعًا من السماء.

* * *

ما زلت أسأل نفسي إلى الآن، وبعد كل هذه السنوات عمّا جرى بيننا يوم الحسين، هل أنا من قام بشد الخيط لتنفرط منه حبات الوجع هكذا دون توقُّف؟ أم أن ما جرى كان مقدرًا لكلينا ولم يكن من بُدٍّ في منع حدوثه.

اتفقت وسلمى على الذهاب في منتصف الشهر تحديدًا إلى الحسين، كانت لي معرفة كبيرة به، فأنا ممن عاشوا في القاهرة وقضيت فيها معظم سنين عمري، أعرف طرقاتها وزحامها وصخبها وخنقتها التي تزعج من لم ينشأ فيها فور أن تطأ قدمهم أرضها، إلا أنه لم يكن أحد لينكر بريق

العاصمة مهما بدا منها من عوامل طردٍ للمقيمين بها قبل زائريها. قضيت وسلمى أسبوعين في الإسكندرية نذهب للمحاضرات سويًّا ولا نكاد نبتعد عن بعضنا طوال اليوم إلا عندما تذهب هي للصلاة، أو عندما تتعارض محاضراتنا في جدول الكلية، أصبحت لا أصادق أحدًا تقريبًا ولا أتكلم مع أحد غيرها، ابتعدت تمامًا عن رفقائي المتناثرين في معظم الكليات والذين كنت أتردَّد عليهم طوال أعوام الدراسة من كلية لأخرى كالفراش، وأحرزنا تقدمًا ملحوظًا في ورش الرسم والنحت التي أصبحنا نحضرها كلما أتاح لنا الوقت ذلك، وصار المرسم كبيتنا الذي نحبه ونذهب إليه جريًا كلما واتتنا فرصة، وكلما أخذنا الحنين إلى قضاء الوقت بين الألوان واللوحات.

حدَّدنا السفر يوم الجمعة وقضيت ليلة الخميس وحدي في المرسم بعد أن أصبحت أبوابه تُفتح لي وقت أن أذهب دون موعد وقد حفظ وجهي القائمون عليه، أخرجت اللوحة التي كنت أخبئها من سلمى وأعدُّها مفاجئةً لها فور أن أنتهي منها، لم يكن قد تبقَّى فيها شيء تقريبًا عندما انتصف الليل، فقط كنت أشعر بأنها ينقصها شيء ما لا أعلمه، كان القدِّيسون الثلاثة يقفون متجاورين

وقد سبق أحدهم الآخرين بخطوة ما في وقفته ومكانه من اللوحة، وكانت ملامحه تليق حقًّا بالقديسين، كان يحمل ورقًا كثيرًا بين يديه كالمبشِّرين الذين ذُبِحوا قديمًا في العصور الأولى التي اضطهدت المسيحية لعقود، أما الأوسط فكانت ملامحه غير صريحة ولا تدلُّ على شيء، بها بعض الطيبة وبعض الوجوم، ووجدتني أضرب بفرشاتي في ملامح الثالث منهم لأجعل وجهه مظلمًا شرس المنظر رغم الهالة التي تحيط به كالآخرين، والتي لم أستطع أن أجد مبررًا في نفسي لعدم رسمها، وكانت السماء تمتدُّ حولهم من أرضية اللوحة وحتى تغمر اللوحة كلها وتغرق تفاصيلها جميعًا بالأزرق الخفيف، وكأن ثلاثتهم خارجين لتوِّهم من سحابة كبيرة في طريقهم إلى الأرض للتبشير بالثواب والإنذار بالجحيم الذي ينتظر الضالين من البشر.

أخذت أسأل نفسي طوال الليل عمَّا ينقص هذه اللوحة من لمسة أخيرة تجعلني راضيًا عنها فلم أجد لذلك إجابة شافية.

أتت سلمى متأخرة عن موعدها في الصباح، أخذنا تاكسي من أمام المكتبة مكان لقائنا وكان اليوم إجازة

والطريق شبه خالٍ، وعندما وصلنا إلى محطة سيدي جابر كان القطار يصفّر من بعيد معلنًا لنا في تحدٍّ أننا فقدناه، ويسؤالنا في المحطة عن موعد القطار التالي وجدنا أنه ما زال أمامنا حوالي ثلاث ساعات كاملة من الانتظار، غَضِبتُ بشدة وحاولت سلمى أن تهدأني رغم توترها الملحوظ، إلا أني كنت متضايقًا بشدة وقد أحسست أن السفر قد يُلغى في أية لحظة، قالت لي وهي تُخرج شيئًا ما من حقيبتها:

- أحضرت لك مفاجأة ستعجبك، انظر.

ثم أخرجت مسبحة جميلة من العاج الدقيق تنتهي بصليب خشبي طويل، وقالت في فخر:

- اشتريتها لك أمس عندما رفضت أن أخبرك أين كنت مساءً. قل لي رأيك بصراحة، هل تعجبك؟

تناولتها منها وأخذت أتحسَّسها بيدي وقد غمرني إحساس قوي بالبهجة، نظرت إليها بفرح شديد وقلت بصوت خرج خافتًا:

- رائعة، لم أمتلك صليبًا من قبل سوى هذا.

وكنت أشير إلى يدي، وفرحت بشدة من هذه المفاجأة

التي لم تكن بسيطة بالنسبة لي، سألَتني وقد رأت الفرحة في عيني:

ـ هل سترتديه؟

فكرت قليلًا ثم قلت:

ـ لا، أخشى أن يسقط مِنِّي أو يضيع، سأحتفظ به في شقتي، رُبَّما عندما أصير غنيًا وأشتري سيارة سأعلقه فيها، لأراه أمامي طوال الطريق.

ـ افعل ما تشاء، الآن ماذا سنفعل، أمامنا ثلاث ساعات طويلة، كيف سنقضيها؟

أخذت أفكِّر وأنا أمسك بالمسبحة في يدي، وكلي فرح، وشردت منها تمامًا، ثم انتبهت إلى أنها بدأت تتضايق فعلًا، عرضت عليها أن نتمشى على البحر قليلًا حتى يحين موعد القطار التالي، فاعترضت وقالت إنها تخاف أن يلمحها أحد في هذا الوقت، وهم يعلمون الآن أنها في القطار المتجه إلى القاهرة، وقد يرفضون أن تصرَّ على الذهاب إذا ما أخبرتهم أنها قد فاتها موعد القطار المناسب للوصول في وقتٍ مبكِّر لقضاء اليوم والرجوع في نفس الليلة دون تأخير، سألتها وهي تفكر في كيفية

قضاء الساعات المتبقية خارج المحطة:

ـ ماذا قلتِ لهم وأنت خارجة اليوم؟

ـ قلت لهم إنني مسافرة إلى القاهرة وسأفطر في الحسين، هم يعلمون أني أرغب في ذلك منذ زمن.

ـ وهل قلتِ لهم مع من ستسافرين؟

ـ بالتأكيد، هل تظنني كذبت عليهم في أمر كهذا؟

ـ لا لا أقصد، ولكن هذا يبدو غريبًا.

ـ ما الغريب في هذا؟

ـ أنهم تركوكِ تذهبين مع شاب وحدكما إلى القاهرة وتمضيان اليوم كاملًا، ليس هذا طبيعيًا في أسرنا على ما أعتقد.

ـ لا، لا تشغل بالك بهذا، أسرتي مختلفة في الكثير عن الأسر المعتادة التي تقصدها، هم يثقون بي قبل كل شيء، كما أنهم يعلمون أنك صديقي المقرَّب، أتحدَّث عنك أمام فاطمة دائمًا ويعرفون عنك الكثير.

ـ هذا ممتاز، يريحني أن يكون التعامل بينكم هكذا، هل تعلمين، لا أحد في بيتي يعلم شيئًا عن حياتي هنا

في الإسكندرية، هم تقريبًا لا يعلمون حتى أين أقيم أو ماذا أفعل؟ فقط بعض المكالمات المتباعدة من وقتٍ لآخر.

ـ أفهم طبعًا، ولديك عذرك، لو كنت أحيا حياتك لم أكن لأقول لهم أي شيء، سأجلب لنفسي وجع القلب دون فائدة.

نظرت إليها معاتبًا:

ـ إن كنتِ تلمِّحين إلى ما فهمت فسأغضب منك، أنت تعلمين أن هذا العبث قد انتهى الآن، فتحنا صفحة جديدة فلا داعي لذلك التلميح.

ـ لا ألمِّح إلى شيء، إنما يثيرني أنَّ أصدقاءك القدامى قد ذهبوا فجأة، ولم أعد أرى منهم سوى ذلك الشاب الذابل الذي يأتيك على حياء من يوم لآخر، ولا يتحدث مع أحد.

ـ آه.. تقصدين نور، لا هذا زميلي في الصيدلية وصديقي المقرَّب حقًّا، لكننا لا نتقابل كثيرًا، قد تحبينه لو عرفتِه، فهو لا خوف منه على الإطلاق، هو خام تمامًا.

ـ ما الذي تقصده بـ«خام» هذه؟

ـ أعني أنه بريء تمامًا، ليس لديه من خبرة في العبث الساذج الذي كنت عليه حتى وقت قريب، كان يرافقني أحيانًا إلى بعض الأماكن والمغامرات البسيطة لكنه يتوقف دائمًا وقت الجد، هو مثلكِ تقريبًا يا سلمى، يعرف حدود نفسه جيِّدًا، ويعرف متى يبدأ ومتى يتوقَّف، لكنه أكثر تحفُّظًا مع الغرباء، قد أعرِّفك عليه يومًا، رغم أنني سأغار منه بالتأكيد.

سألت سلمى بتعجُّب:

ـ تغار؟!

فتابعتُ دون أن أدعها تلمح توتري:

ـ بالتأكيد؛ لأنكما قد تعجبان ببعضكما.

ـ أتغار عليَّ يا منير؟

ـ نعم أغار، أغار حتى من صديقاتكِ.

ـ إمم.. هذا غريب، دعنا إذًا من موضوع الغيرة هذا وقل لي أين سنذهب الآن؟ لن أقضي ثلاث ساعات وسط صفير القطارات المزعج هذا.

كانت القطارات تدخل وتخرج إلى الأرصفة المصطفَّة

أمامنا وهي تطلق صفيرًا مزعجًا فعلًا، فكرت قليلًا أين نذهب ثم خطرت لي فكرة ما، فقلت لسلمى:

- تعالَيْ معي، سأريكِ شيئًا ما سيعجبك، أنا أيضًا عندي مفاجأة لكِ.

سألتني وهي تتحرَّك ورائي وقد وجدتني قد تحركت فعلًا وبخطوات سريعة ملأها الحماس:

- أين سنذهب؟ قلت لك لا يجب أن يراني أحد اليوم هنا.

- فقط تعالَيْ.

ثم أشرت لتاكسي خارج محطة القطار، وتوجَّهنا إلى المرسم، وقفت أمام مدخل المرسم وناديت على العامل بالداخل فكان نائمًا، تسحَّبت وسلمى إلى الداخل، وهمست إليها ألا توقظه لكنها أيقظته رغم طلبي، فقام نصف مدركٍ لتحرُّكنا داخل المرسم وتساءل عن وجودنا مبكرًا هكذا، لكنه ما إن رآني حتى سلَّم عليَّ في كسل، ثم عاد ليكمل نومه بعد أن طلب مِنِّي ألا أفسد تنظيم الصالة الخاصة بالمحاضرة التي ستبدأ بعد ساعتين.

تعجَّبت سلمى من ردِّ فعله، ثم أمسكتني من ذراعي

وقالت لي بحدة:

ـ أتاتي هنا من ورائي يا خائن؟

ـ كل يوم تقريبًا.

قلتها وأنا أغمز لها لأغيظها مداعبًا، فضربتني برفق في كتفي وسألت:

ـ وما الذي تفعله من ورائي، هل تنحت تمثالًا جديدًا؟

ـ سأريكِ الآن، لكن جاوبي أولًا عن سؤالي بصراحة.

ردَّت بسرعة:

ـ أنا لا أكذب.

ثم ضربتني في كتفي ثانية ولكن برفق أقل، ولاحظت أنها تمدُّ يدها بنيَّة المزاح كثيرًا اليوم، نظرت إلى عينيها الواسعتين وقلت في صوت خافت قليلًا:

ـ لا تنسَيّ، قلتِ إنك لن تكذبي.

ـ اسأل!

ـ ألا تغارين عليَّ من الفتيات؟

سكتت ولم تردَّ، ووجدتها ارتبكت قليلًا وقد فاجأها السؤال، ثم قالت:

ـ ما الذي يدفعك لهذا السؤال؟ ليس من حقك أن تعلم، أنت حُرٌّ في غيرتك عليَّ لن أحجر على مشاعرك، لكنك ليس من حقك أن تعلم عَنِّي ما لا أريد.

قلت وقد أعجبني ارتباكها من سؤالي:

ـ أيعني هذا أنكِ تغارين؟

ـ يعني هذا أنك بدأت تخرِّف، منير، نحن مجرَّد صديقين.

ـ متأكِّدة؟

ـ منير، أنا مسلمة وأنت مسيحي، ما الذي ترمي إليه؟

ـ لا شيء.

صمتت برهة ثم قالت بحدة:

ـ منير، هل سأندم على ثقتي بك؟

ـ صدِّقيني لا شيء، فقط قلت ما بداخلي، لا أخبئ

عنكِ شيئًا، لا تغضبي هكذا، أقسم لكِ أني لم أكن أفكر في شيء، فقط ذِكر نور نبَّهني إلى أنك يومًا ما ستكونين زوجة أو حبيبة لشخص ما ليس أنا بالتأكيد، فوجدتني أغار عليك مِن هذا الذي لم يأتِ بعد، فأردت أن أعرف هل هذا شعور طبيعي أم ماذا، تعرفين أني لا أكذب عليكِ.

- سأصدِّقك، لكننا سنتحدث عن هذا مرَّة ثانية لاحقًا حتى لا نفسد اليوم، الآن دعني أرى ما تخبئ هنا واتركنا من هذا الحديث المخيف.

أخفيت خجلي الذي تسرَّب واضحًا أمامها وأنا أبرِّر سؤالي الغبي لها، وأخذتها إلى اللوحة الموضوعة على الحامل والتي غطَّيت معظمها بقماش أبيضٍ خفيف حتى لا يراها أحد قبل أن أنهيها، سألتها أن تغمض عينيها لأريها المفاجأة فرفضت، وقد بات من الواضح عليها أنها بدأت تفقد ثقتها بي فعلًا، أزلت القماش في حركة مسرحية وقلت لها:

- ما رأيك؟

نظرَت في دهشة إلى اللوحة وشعرت لحظتها أن

اللوحة رائعة، رُبَّما أول مرَّة أراها رغم أنني أمضيت ساعات طويلة في رسمها، اقتربت سلمى ببطء ناحية اللوحة وقد ابتسمت وتغيَّرت ملامح وجهها فكانت وكأنها ستضيء من فرط انبهارها باللوحة، نظرت إليَّ بعينيها اللتين لن أنساهما أبدًا وقالت:

ـ رائعة، رائعة جدًّا.

ـ هل تجاملينني؟

ـ هائلة فعلًا.

ملأتني نشوة الثقة والفخر بما صنعت وقلت:

ـ إلى هذه الدرجة؟

ـ رائعة يا منير، كيف فعلتها؟

ـ لا أعلم، يبدو أنني فنان بالفطرة.

ـ أنت فنان فعلًا، كيف تسكت عن هذه الموهبة كل هذا؟ وألوانك ممتازة، أكثر من جميلة، ما شاء الله عليك.

أطربني إطراؤها بشدة، وأنساني التوتر الذي أصابنا قبل قليل، فرحت أحكي لها في فخر عن الساعات التي

كنت أسهرها وأنا أرسم هذه اللوحة لأسبوع طويل، ثم وجدت أن فرحتي لن تكتمل قبل أن أتجاوز الموقف السابق، ويختفي هذا التوتر الذي اختبأ داخلنا في لحظة النشوة بجمال اللوحة، فقلت لها وأنا انظر في عينيها مباشرة:

ـ أنا آسف يا سلمى، هل تسامحينني في غبائي هذا؟

ـ أي غباء تقصد؟ أتعني إخفاء اللوحة عَنِّي؟

ـ لا، بل كل هذا الكلام الساذج عن الغيرة وعنكِ.

أطرقت تفكِّر وقالت بتنهيدة حارة:

ـ فقط لو كنت صريحًا معي، هذا مهم لكلينا، قل لي بصدق، هل تشعر ناحيتي بأي شيء غير الصداقة؟ هل هناك شيء لا أعرفه؟

ونظرت إليَّ وكانت عيناها بها من الحزم ما لم يدعْ لي أي مجال للكذب، فقلت:

ـ لا أعلم، رُبَّما، لن أكذب عليك في شيء، فقط أريد أن أقضي اليوم كله معكِ دون سبب واضح غير أن أكون جوارك، أحيانًا أرغم نفسي على الابتعاد عنك

في الكلية حتى لا أتمادى في شعور لا أفهمه، رُبَّما كنت معجبًا بكِ ولا أستطيع أن أصرِّح لنفسي بذلك، ورُبَّما نحن مجرَّد صديقين مقربين، قد أكون أراكِ أختًا لي ولذلك أشعر بالغيرة عليكِ، لا أعرف حقًّا، هل يزعجك هذا؟

ـ لا، لا شيء يزعجني غير أن تكذب عليَّ، ولأكون صريحة معك أنا أشعر تجاهك أيضًا نفس الشعور، وأحبُّ تمضية اليوم معك، لكن دون تعقيد مثلك، فقط حين أحب أن أكون معك أطلب أن أكون معك، رُبَّما أكون أكثر تحديدًا منك في إحساسي ناحيتك، وقد أكون معجبة بك أيضًا لكني أعلم في داخلي أن الموضوع لن يتجاوز أكثر من الإعجاب بك كصديق، لذلك الموضوع أكثر بساطة لديَّ.

فكرت في كلامها سريعًا، ثم قلت:

ـ وكيف تكونين معجبة بي وتعرفين أن الموضوع أكثر بساطة؟ ولماذا لا أشعر أنا بتلك البساطة؟

ـ منير، أرجو أن نتوقَّف عن هذا الكلام، سوف تُفسد شيئًا جميلًا ونادرًا بيننا الآن، هذا إن لم تكن قد

أفسدته بالفعل، نحن صديقان ولن نكون غير ذلك.

ـ أعلم هذا جيِّدًا، فقط أريد أن أعرف إن كنت تشعرين بنفس الشيء، أنت لا تدركين كم هذا مهم لديَّ، لا تدركين كم سيفرق معي أن أعلم أنك أنت بالذات رغم ما بي من سوء قد ترغبين بي في يوم من الأيام، فقط لو كانت الظروف غير الظروف.

ـ وما الذي يميِّزني عن الأخريات يا منير؟ تعشقك أجمل البنات في الجامعة، وقد صادقت معظمهن، كلانا يعرف ذلك جيدًا، ما الذي يضيفه إعجاب فتاة عادية إليك، أهو الغرور مرَّة أخرى؟

ـ أنت لا تفهمين شيئًا، أنت غير الجميع، غيرهم.

ـ أنت الذي لا تفهم شيئًا، من تظنني يا منير؟ السيدة العذراء؟ ألا تعلم كم تضايقني نظراتك المستمرة لي كالقديسة هذه؟ هل تصدِّق حقًّا أنني أحكي لأهلي عنك، وأنهم يعلمون أنني معك في القطار الآن؟ هل تصدِّق حقًّا تلك الصورة الملائكية التي رسمتَها لي في خيالك منذ التقينا أول مرَّة؟ أفِقْ يا منير، نحن لسنا في الجنة.

لم أفهم شيئًا من كلامها، وإنما زادني تعقيدًا أكثر

مما أنا عليه، فقط بدأت أشعر أنني لست وحيدًا في حيرتي هذه، وأدركت أن سلمى قد تكون هي الأخرى تحمل لي من المشاعر ما لم أفكر فيه بشيء من الجدية قبل ذلك، وأعدت التفكير في كلامها، فوجدت أن ما بيننا سيُفسَد فعلًا لو استمرَّ الحديث أكثر من هذا، ولست مستعدًا أن أخسر روحها الجميلة هذه تحت أي سبب، سألتها محاولًا الخروج من الموضوع لأعود إليه بطريقتي الخاصة، رغم أنني كنت واثقًا أن كلامي لن يلقى ردًّا لديها:

ـ ينقص شيء ما لا أعرفه في هذه اللوحة، هل تشعرين بذلك؟

وكنت أشير إلى اللوحة في توتُّر وأنا أبعد عيني عنها، فنظرت هي إلى الأرض قليلًا ثم حاولت مجارتي بالابتعاد عن هذا الحديث، ونظرت بتركيز إلى الوحة، واقتربت أكثر منها ثم قالت:

ـ ينقص هنا إضافة ما، رُبَّما ينقص هذا السحاب بعض القتامة، كما تحتاج هنا إلى طائر أو اثنين.

ورجعت خطوتين للوراء مبتعدة عن اللوحة وهي

تنظر إليها بمزيد من العمق؛ لتتخيل ما اقترحته توًّا بينما كنت أهرب من أفكاري المحمومة في كلامنا السابق، قاومت نفسي التي تجرُّني إلى العودة للحديث عَنَّا مرَّة أخرى لكنني فشلت في النهاية، وجدتني أقف خلفها وأمد يدي لأضعها على كتفها، وأنا أقول:

- سلمى، لم يعُدّ من مبرِّر للكذب أكثر، رُبَّما هذا هو آخر ما سيكون بيننا، يبدو أنني أحـــــ.

التفتت سلمى إليَّ كمن أصابته صاعقة، ووضعت يدها قبل أن أكمل كلمتي فوق شفتي، ويدي ما زالت ثابتة في مكانها فوق كتفها، ثم اتسعت عيناها في رُعّب وهي تنظر ناحية الباب، وكان اثنان من الطلبة في المرسم ينظران إلينا في صمت.

تصنَّمنا جميعًا من هذا الموقف المربك، وكانت سلمى أول من تحرَّك بعد لحظات من صمتٍ طويل يمتلئ ناحيتي بالغضب واللوم، أخذتّ حقيبتها على عجل، وانصرفت مهرولة خارج المرسم، وظللت أنا واقفًا أبحث عن تفسير أو ذريعة أخفِّف بها من أثر الحرج أمامها فلم أهتدِ لأي شيء، زاد ارتباكي وشرعت

أبحث عن شيء أفعله لأذهب بوجهي عنهما، فأزلت اللوحة من فوق الحامل ثم خرجت، وأنا أصرف عيني عنهما، وبحثت عن سلمى بالخارج فلم أجدها، ثم عدت إلى البيت وأخذت أفكر فيم قد يحدث لنا.

قضيت اليوم كله جوار الهاتف منتظرًا أي اتصال منها قد يطمئنني عليها، وأخذت أفكر فيما قد يقوله زميلانا في المرسم لأصدقائهما، وهل يمكن أن يكونا قد فهما شيئًا أم أن الموقف كان أقلَّ من أن يُسبِّب لنا هذا الرعب، خاصةً أنهما لا يعرفوننا، وأخذت ألوم نفسي على أنانيتي وحمقي المبالغين، وكيف كنت أتجاهل نظرات الأصدقاء لنا في الجامعة طوال هذه الأيام، وكيف لم أفكر أبدًا في سلمى وما قد يحدث لها إذا انتشرت شائعة ما عن علاقتها بي، وما قد يسببه لها هذا من أذى يضرُّ بها وبسمعتها، وأعدت كلامها في ذهني عن كذبها على أهلها بشأن معرفتهم عَنِّي وعن صداقتنا، فازددت خوفًا وعدلت عن التفكير في محاولة الاتصال بها بعد تردُّد طويل.

قبل الفجر بقليل أتاني اتصالها، وكان صوتها خافتًا بشدة وكانت تبكي بصوتٍ متقطع، حاولت أن أهدِّئ من روعها لأفهم منها ما تقول فلم أفلح، وظللت أستمع

إلى أنفاسها وبكائها لوقت طويل، بعد محاولات عدة قالت لي بين بكائها الخافت:

ـ لقد أخبرتهم عمّا حدث.

سألتها ولم أفهم:

ـ أخبرتِ مَن؟

ـ أخبرتهم في البيت.

ـ لماذا؟

عادت إلى البكاء ثانية، ثم استجمعت قواها وقالت:

ـ لا أعرف، كنت مرتبكة عندما عدت وخائفة، ولم أقاوم الأسئلة وقلت لنفسي لن أنتظر حتى يسمعوا كلامًا من أحد.

سألتها وقد وصل خوفي إلى أقصاه:

ـ قلتِ لهم ماذا؟

ـ لا أعرف ماذا قلت، قلت الكثير يا منير، لا أذكر، لا أذكر، لا أعرف كيف فعلت هذا.

ثم بكت كثيرًا وحاولَتْ أن تخفض من صوتها ثانية،

ثم تابعت:

ـ أنا خائفة، خائفة جدًّا.

ثم صمتت تمامًا لثوانٍ، وقالت بسرعة وبصوت ملؤه الرعب:

ـ يجب أن أذهب الآن، أنا آسفة.

وأنهت المكالمة دون أن أفهم منها شيئًا، ثم اختفت بعدها ولم أرها ثانيةً.

* * *

قضيت يومين بالمنزل لا أفارق الهاتف في انتظار اتصالٍ آخر من سلمىٰ لم يأتِ إلىٰ الآن.. في اليوم الثالث ذهبت إلىٰ الجامعة غير آبهٍ بما قد يحدث، جررت قدمي وأنا أدخل إلىٰ الكلية فلم أجد ما يُريب، سألت علىٰ سلمىٰ في مجموعتها فأخبروني أنها لم تأتِ منذ يومين، ثم ذهبت إلىٰ جورجيت وسألتها عنها فأخبرتني أنهما لا تتحدثان كثيرًا مؤخَّرًا، تردَّدت أن أحكي لها ما حدث ولاحظت هي تردُّدي فأخذت تسأل إن كنت قد ضايقتها في شيء أو ما شابه، فلم أقل لها سوىٰ أن تحاول أن تتصل بها في البيت لتسأل عنها، وهربت من

نظرات فضولها وما يملؤه من لوم وشك، ثم ذهبت إلى المرسم فلم أجد شيئًا غير طبيعي أيضًا عند دخولي، تفقَّدت أوجه الموجودين بحثًا عن الطالبين فلم أجد أحدًا منهما، ظللت أذهب ليومين متتاليين فلم أجدهما، ثم علمت بعد ذلك من العامل أن درس الجمعة كان محاضرة استثنائية لطلبة قادمين من جامعة القاهرة.

عاودت الاتصال بجورجيت وقد بلغ خوفي على سلمى أقصاه، فوجدتها لم تهتمَّ بالسؤال عنها كما طلبت منها، ثم سألتني أن أحكي لها كل شيء، حكيت مضطرًا ثم طلبت منها أن تبحث عن فاطمة أخت سلمى، وأن تصل إليها بأي طريقة، في المساء هاتفتني جورجيت وكانت تصرخ وطلبت مِنِّي أن ألجأ إلى الكنيسة بالقاهرة فورًا، فوالد سلمى قد قدَّم بلاغًا فيَّ يتهمني باغتصاب ابنته، وأن الشرطة رُبَّما تكون في طريقها إلى منزلي الآن، سألتها عن سلمى وعمَّا حدث لها، فقالت لي إن الموضوع أصبح أكبر من مجرَّد علاقتي بسلمى، وقد يتحوَّل إلى فتنة تحرق الجميع في ساعات لو تمَّ القبض عليَّ، ولما وجَدَتْ من العناد لدي ما وجدت قالت لي صارخة:

ـ لماذا فعلت ذلك يا منير؟ لم تكن سلمى تستحقُّ هذا أبدًا.

لم أفهم ماذا تقول جورجيت، فسألتها وأنا أشعر بالغباء:

ـ فعلت ماذا، لا أفهم؟

ـ لقد عرفوا أنها ليست بنتًا، لماذا يا منير؟

* * *



(٥)
حبيبة

أول ما طلبه نور مِنِّي بعد أن حكى لي عن صديقته الجديدة زُهرة كان طلبًا مباشرًا ومتوسلًا بشدة ألا أغار عليه منها، كان هذا بالطبع كافيًا جدًّا لكي أحترق من وجودها غيرةً وأشتعل غضبًا من طلبه.. يمكنني ألا أغار وحدي دون أن تطلب ذلك مِنِّي يا نور، لكن الطلب في حدِّ ذاته بمثابة إشارة للأنثى أن تغار، ما دمت تخشى بشدة أن تخسرها هكذا فما من سبيل لديَّ سوى الغيرة.

أنظر إليكما الآن وأنتما تلاعبان وليد ابني فلا أشعر

تجاهها سوى بالحب والطمأنينة، بقي على سفري ووليد ساعات قليلة، الطائرة تنتظر وداعنا فقط لكي تأخذني عنك بعيدًا مرَّة أخرى بعد أن وجدتك بعد هذا الوجع الطويل، وأهديتني أنت زهرة أختًا لم يُنجبها أبواي، وأقول لنفسي الآن وأنا راحلة بعد قليل إنني لا يطمئنني رغم قلقي الشديد عليك من وهنك ومن نوباتك، إلا وجود زُهرة جوارك، وأنا أعلم أنها لن تتخلَّى أبدًا عن حمايتك ودعمك بعد رحيلي، وأضحك على نفسي أيام عرفتها وما حملته تجاهك من غضب وتجاهها من غيرة، أذكرني وأنا ألومك وأعاتبك بشدة بيني وبين نفسي، تقضي ليلة كاملة معها ثم تأتيان أمام منزلي تتباكيان، أراكما من نافذة غرفتي وهي أمامك تدفعها برفق لتدخلا مطعمًا عرَّفتك أنا عليه قبل أيامٍ، لتجلسا سويًّا إلى ما بعد الفجر، وأراك تنظر إلى نافذتي من وقتٍ لآخر، وأنت تخشى أن أكون قد رأيتكما وأنتما تدخلان إلي المطعم، ثم تطلب أنت مِنِّي ببساطة ألا أغار، تقول لي ببراءتك التي ذوَّبتني فيك عندما التقينا في السفارة أول مرَّة إنها «مجرد صديقة، لكنها صديقة جميلة».. وتظنني لن أغار، أبتسم رغمًا عَنِّي وقتها وأنت تقول عنها إنها إنسانة طيبة،

وتشرد سارحًا في طيبتها أو جمالها أو كليهما وأنت معي على الهاتف صباحًا بعد عودتك من عند أختك نوران..
كم أنت بريء يا نور، وكم ظننتني تعسة حينها وأنا أقول لنفسي: «ها هو الطيب الجديد يسقط رغمًا عنه أمام أول جمال من طرازه يقابله في الطريق.»

لم أشكَّ لحظة في جمالي ولا في أنوثتي وفي أثرهما عليك، ورثت الشَّعر الأشقر عن أمٍّ لم آخذ منها غير الملامح والألوان، رأيت العديدين وهم يغيبون داخل عينيَّ الزرقاوين ويتردَّدون كثيرًا في التودُّد إليَّ منذ الصغر وهم لا يعلمون شيئًا، كنت أحتاج طول الوقت إليهم، وكانوا يبتعدون هم طول الوقت مخافة جمالي وجرأتي البائنة، والتي كنت أتوارى خلفها كل ثانية حتى لا يرى أحد هشاشتي وضعفي الشديدين.

عاتبني معظم من عرفت عندما تمسَّكت بشدة بأن أطلق اسم وليد على طفلي الآخر بالتبنِّي، وظنَّ بعضهم أنني أتحدَّى ياسر طليقي أو أحاول أن أضايقه؛ للتأثير عليه كي نرجع ثانية، وأن موضوع التبنِّي هذا ليس إلا محاولة مِنِّي للضغط عليه بشكل أو بآخر لأثير قلقه على ابننا وليد.

لم أهتمَّ أن أبرِّر لأحد أي شيء، الحقيقة هي أنني لم أعد أكترث لوجود أحد في الحياة بعد وليد، هربت من أمريكا من أقرب اثنين لي في الحياة، من زوجي ومن أبي، صارت الحياة مجرَّد تمضية للوقت، وقد اكتشفت متأخرة جدًّا أن هذه التمضية هي لوقتي الخاص وليست لوقت أحد، وأنا فقط من يدفع ثمن هذا الوقت وما يترتب عليه من أفعال تطوح بالعمر في عزِّ نضارته.

الناس حولي منذ خُلِقت وهم يريدون لي الأشياء على مزاجهم الخاص دون رغبة حتى في معرفة ما أريد وما لا أريد. منذ أن خرجت إلى الدنيا وكل شيء يحدث لي، يحدث فقط نتيجة لما يراه الآخرون صائبًا أو على الأقل مناسبًا، بداية من وجودي أصلًا في هذه الدنيا، لم أطلب يومًا من أبي أن يعاشر الشقراء التي سلبته عقله فور أن أتى إلى أمريكا ثم يعرض عليها أن ترافقه رحلة عودته إلى الإسكندرية ليعرض عليها الزواج أمام البحر، فتوافق بسذاجة المراهقين ثم ينجبانني، وبعد هذا يبدآن في كُره بعضهما، وكأن هذا الزواج تمَّ فقط للزجِّ بي في الحياة؛ لدفع ثمن رغبتهما ليس أكثر!

قضيت السنوات من عمري أتوسَّل المحبة من الناس كالمنبوذين.. في البداية كان توسُّلي أن يمنحوني إياها عن طيب قلبٍ أو عن شفقة أو حتى عن صدقة، ثم بدأت أتوسل أنا منحها إياهم، ولم يكن يُجدي هذا ولا هذا نفعًا، كانوا يتجنَّبون تودُّدي خوفًا مِنِّي أو من أبي أو من جمالي، لم أعرف سببًا أبدًا، يتعجَّبون من تلك الشقراء ذات الأصول الغربية التي تمازح البائعين والجيران وأطفالهم، وتتحايل على صبية الشارع أن يلعبوا الكرة معها بعد أن هجرها معظم صديقاتها البنات غيرةً من جمالها الذي أخذ الصبية من حولهن، وكنت أحزن بشدة عندما أرى الصبية أنفسهم وهم يتشاجرون بسببي دون أن يقترب مِنِّي أحدهم، فقط كانت الشجارات تدور أمامي وأعرف تمامًا أني سبب فيها، ثم لا شيء، دائمًا تنتهي للا شيء، لم يتخذني أحدٌ صديقة مقرَّبة، ولم يطلب وُدِّي أحدٌ ولو للتباهي بي أمام الآخرين، فقط كنت للعرض أمام الجميع كالسلعة باهظة الثمن، والتي يدرك الجميع قيمتها لكن لا يملك ثمنها أحد، رغم أنها كانت لتمنح نفسها لأول من يمدُّ يده إليها دون ثمن.

في الجامعة بدا وكأن كل شيء سيتغير، انهمرت الصداقات حولي وبات من الواضح أني سأعاني كثرة الأصدقاء بعد أن كنت أعاني نُدرتهم، وكان هذا صحيحًا في البداية، أو هكذا ما ظننت، ثم تعلَّمت درسي الأول في الحياة، أنه لكل شيء ثمنًا، حتى المحبة الصادقة لها ثمن يجب أن يُدفع يومًا ما، وكلٌّ يطلب المقابل حسب رغباته، والتي غالبًا ما كانت معي منحة الجسد أو التباهي المجرَّد وإرضاء الغرور، وما كنت أملك غير الروح، ولم أظنَّ أبدًا أنَّ العرض سيكون صريحًا وبتلك الوقاحة هكذا، لكني كنت ساذجة، ساذجة كما لفتاة لم تصادق في حياتها أحدًا أن تكون.

أنـهـيـت سنوات دراستي في غربة طويلة لم أخرج منها بشيء، ولم أعرف ماذا أفعل بعد أن أنهيت الكلية التي لم أفهم لها مغزى في هذا البلد، كنت أخرج من الجامعة بعد البحث الطويل عن شيء له هدف أفعله بعد تخرُّجي يائسة كارهة للحياة، ولا يعينني على التحرُّك سوى التمشية وحيدة في شوارع الإسكندرية، وصوت الهواء القادم من البحر وتحطُّم الأمواج فوق الصخور يمزقانني مع وحدتي، فأتمنَّى لو كانت

روحي موجة كتلك الأمواج ترمي بها الحياة على أحد الصخور، فتتفتت إلى قطرات من الماء لا يقدر على جمعها أحد.

أسمع الكلمات من السائرين حولي تغزُّلًا فيَّ وفي جمالي بحزن وسكون، لا أردُّ على أحدٍ ولا أنظرَ إلى أحدٍ، فقط أختبئ داخلي كلما ازدادت الكلمات وقاحة، وكلما اتَّسعت العروض فجورًا، وتهرب مِنِّي الدموع حزنًا على نفسي وخوفًا من مستقبلي البائنة وحدته القاسية والتي لا أعرف لها سببًا حقيقيًا سوى أنني وُلِدْتُ.

كنت أعود إلى المنزل لأجد سيدة غريبة عَنِّي تمامًا لا أعرف عنها سوى أنها أمي، تقرأ المجلات الأجنبية وتشرب الخمور صباحًا ومساءً وتسبُّ البلد والناس طوال الوقت، ولا تعرف من الأصدقاء سوى شركائها في الشرب والقمار في كلوبات الإسكندرية الملقاة بطول البحر، فقط أسألها عن أبي عند دخولي إن كان قد اتَّصل من أمريكا أو علمت عنه شيئًا فتسبني وتسبه، وتبدأ في صَبِّ اللعنات علينا حتى يأتي موعد الخروج الليلي الذي يمتدُّ حتى ساعات الفجر الأولى، لتعود متطوِّحة إلى المنزل وتزيد من سمعتنا السيئة في هذه المدينة، وعندما

توقَّف أبي عن إرسال الأموال إليها مباشرة وبدأ في إرسالها إلى حسابي الخاص وتحديد رقم محدد لها لتنفق منه على نفسها، فاض بها الأمر، فرحلت إلى حيث أتت، وأصبحت وحيدةً تمامًا لا أعرف ماذا أفعل هنا أو كيف أحيا، فسافرت إلى أبي في أمريكا، وأنا كارهة له ما فعله بي من تركه لنا كل هذه السنوات حتى أرحل أنا إليه مضطرة.

في الطائرة كنت قد قرَّرت ألا ألوم أبي على شيء عندما أراه، نويت أن أعطيه فرصة أخيرة للم الشمل والبدء من جديد، لم يعد لي من أحدٍ في الدنيا غيره، وأنا كنت صغيرة عندما تركنا ورجع إلى أمريكا ليتابع أعماله التي كان قد بدأها هناك قبل الاستقرار في مصر وأصبح يسافر ويرجع على فترات متباعدة، إلى أن أصبح لا يزورنا إلا مرَّة كل عام في الإجازة السنوية، ولا نصل إليه أبدًا وقت أن نريد، وقلت لنفسي أنا لم أعلم أبدًا ظروفه، وما الذي قد يكون دفعه إلى تركنا وأنا صغيرة بين يدي هذه المرأة القاسية التي لم تكن تمثِّل لي إلا زوجة أبي رغم أنها هي التي أنجبتني، وتخيَّلت أن حياته معها كانت جحيمًا لا يُطاق، فقد كنت دومًا

ما أسمع شجارهما المستعر داخل البيت وسبابها الأجنبي الذي لا أفهم منه شيئًا، ونوبات سُكرها الشرسة، وتركها المنزل أحيانًا في بعض المشاجرات ونزوله خلفها في منتصف الليل؛ للبحث عنها والعودة بها حافية القدمين أحيانًا أو وقد اختفى قرط ما من أذنها أو بعض حليِّها وقد باعته لتشتري به خمرًا أو لتقضي به الليلة في فندق ما أو نادٍ للقمار.

كان الشيء الوحيد الذي يُغضبني من أبي هو لماذا لم يأخذني معه عندما رحل، لماذا تركني لها وأنا صغيرة لا أقوى على حمل نفسي، ولم تكن تعطيني النقود التي يرسلها إليَّ ولا تجلب لي احتياجاتي من الدراسة أو أي شيء أساسي قد تحتاجه مَن هي في سنِّي وفي كُلِّيتي، ولولا نوبات سُكرِها المتعدِّدة وإدراك أبي لهذا لكنت تسوَّلت احتياجاتي من الجيران أو الغرباء، وقد كان أن حدث ذلك أحيانًا لكني أسقطته من ذاكرتي حتى أستطيع أن أعيش مع وجعي دون أن أجنَّ أو أنتحر.

عندما نزلت من الطائرة ولفحني هواء نيويورك المثلج وسرت قشعريرة الغربة الجديدة في جسدي وجدتني أفتقد أبي بشدة وأشتاق إليه، وفي صالة الاستقبال وجدت

شابًا وسيمًا له ملامح شرقية يحمل لافتة عليها اسمي، وعرفت منه أنه زميل أبي في العمل وكان مصريًا مثلي، وقد أرسله أبي إلى المطار؛ نظرًا لانشغاله.

كان ودودًا ومرحًا بشدة، وتعارفنا سريعًا في الطريق، وكان يبالغ في الاعتذار عن عدم مجيء أبي ليستقبلني في المطار، وبعد ثلاثة أشهر في نيويورك وبعد أن أصبح هو مرافقي الوحيد في هذه البلدة الغريبة، كان زواجنا.

في الأشهر الأولى من الزواج كان كل شيء يبدو عاديًا، كنت جوار أبي طول الوقت وياسر زوجي يعمل معه في نفس الشركة، وثلاثتنا نقضي الأوقات الطيبة معًا ولا أشعر أن شيئًا ينقصني، وكان ياسر يمتدح جمالي كل يوم عندما نرجع إلى منزلنا قبل أن ينام معي بجوع لا يشبع منه أبدًا، لم تكن تُقلقني شراهته في ممارسة الجنس معي قدر ما كان يُقلقني أن يستمرَّ الوضع هكذا بعد أن كانت طلباته الغريبة قد بدأت تأخذ محمل الجدِّ تجاه علاقتنا، وعندما كنت أتمنَّع عنه أحيانًا كان يهبط إلى البار الموجود في غرفة المعيشة بالمنزل كسائر البيوت الأمريكية؛ ليتناول كأسًا أو كأسين ثم يعود إليَّ أكثر لطفًا ويبدأ في مغازلتي

من جديد، وكثيرًا ما كنت أرضخ لرغباته في النهاية؛ خوفًا من إدمانه للشرب وإيجاده بديلًا له عَنِّي، وحتى لا أرى نموذجًا كريهًا آخر لأمي بعد سنوات.

إلا أنَّ ياسر الحقيقي ظهر بسرعة بعد أن بدأ وليد ينمو داخل أحشائي ببطءٍ، وبدأت نوبات القيء والتعب تهاجمني، وأنا لم يمرَّ على زواجي من ياسر أكثر من العام، ظهر على استحياء ذلك الشاب المصري الذي يكره بلده وأهله وشرقيته، ويعبد الغرب بناطحات سحابه المبهرة وجموحه اللامحدود، بل وشذوذه الكريه أحيانًا كثيرة.

كان يختفي من المنزل بالأيام بحجة العمل والشركة، وبدأ أبي يجاريه في كذبه عندما كنت أسأله عنه بين اختفاء وآخر، وكنت متأكدة أنه هناك أخرى بدأت تدخل بيننا بفطرتي كأنثى، رغم أنه لم يكن لدي من صديقات أشكو إليهنَّ أو آخذ ما لديهنَّ من خبرة في هذه الأمور، لكنني وببعض البحث وراءه اكتشفت أنها لم تكن أنثى واحدة فقط هي التي دخلت حياته، وإنما العديدات، وكان ما قاله لي أبي ببساطة هو أنه لا يُجبرني على شيء إطلاقًا، وأنه يمكن أن يساعدني أن

أستقلَّ بحياتي بعيدًا عن ياسر إن شئتُ ذلك، أو حتى أن أعود إلى الإسكندرية، لكن العقل يقول أن أحافظ على بيتي وأنَّ هذه النزوات عادة ما تمرُّ بها الزوجات، وأن الزوجة العاقلة يجب أن تتعامل مع هذا بشيء من العقل حتى لا ينشأ ابنها دون أب كما حدث لي معه.

لم يكن من شيء بيدي لأفعله وطفلي مقبل على الخروج إلى هذه الدنيا، وجدت أن وقت التخلُّص من الحمل قد تجاوز مرحلة التفكير، كما أنني كنت أرغب فيه بشدة، شيء ما داخلي كان يدفعني إلى التمسُّك به رغم حياتي التعسة التي نشأت فيها، كما لو كنت أرغب في أن أمنح حياة أفضل لأي روح في هذه الدنيا، وتمنَّيت أن تكون هذه الروح هي طفلي.

كانت الطبيبات حولي يبتسمن لي طول الوقت قبل الولادة، ولم أكن خائفة من عملية الولادة قدر ما كنت أشعر بالعجز والوحدة، وأنا أرقد ممددة على الطاولة في غرفة العمليات، يمنحني الغرباء من حولي الابتسامات وإشارات الطمأنة كالصدقة، وليس معي من أم أو أخت أو صديقة تفهمني وأفهمها وتربِّت على كتفي من حينٍ لآخر، صديقات ياسر المصريات اللاتي عرضهن عليَّ كي

يرافقنني معي وقت الولادة كنت أعرف أنه عاشرهنَّ جميعًا، ولم أكن لأثق بواحدة منهن أن تحمل طفلي أو تكون معي في غرفة واحدة وأنا ملقاة فاقدة الوعي بين يديّ ربي، وكان ياسر وأبي يقفان في استراحة المستشفى يدخِّنان السيجار الغليظ باهظ الثمن ويتحدَّثان دون شكٍّ عن العمل كالمعتاد، يغيب وعيي تدريجيًا وأسلِّم نفسي إلى الله ولا ألمح سوى أعين الأطباء المخيفة تحت الإضاءة المرعبة لغرفة العمليات، فأنطق بالشهادة وأخفي داخلي أمنيتي السرية بألا أفتح عيني ثانية.

كان غضب ياسر المتكرر من بكاء وليد الصغير في منتصف الليل دائمًا مبالغًا فيه بشدة، غضب لم أكن أفهمه، وكأنه يرغب أن يلقي بِنا بعيدًا بعد أن اقتحمنا حياته الهادئة نحن الاثنين رغمًا عنه، كان يلفظني ووليد بمنتهى القسوة والخيانة، ولم أعد أطيق هذا الإحساس البشع بأنني شخص غير مرغوب في وجوده، حتى وأنا أعلم أن هذا البيت مِلك لأبي ومكتوب باسمي، وأن ياسر ما هو إلا ضيف ثقيل عليَّ وعلى وليد، لكنني ما كنت لأثق بردِّ فعل أبي لو قُمْت أنا بطرده، كما أنني كنت أشعر في حقيقة الأمر أنني أنا الدخيلة، أنا من

أتت إلى هنا رغم أنها لم تكن تريد ذلك، وأنا من تزوَّجت هذا الشخص الكريه قبل أن تعرف عنه شيئًا، وأنا أيضًا من أنجبت منه رغم شكِّي الذي نما مع الأيام أنه لا يصلح زوجًا أو أبًا أو حتى صديقًا.

وجدتني لم أتخلَّص من مصريَّتي وشرقيَّتي بعدُ وأنا أحزم حقائبي ووليد الباكي جواري على الفراش، وأنفجر في وجه ياسر لأعلمه بأنني سأذهب لأبي حتى أحصل على الطلاق، كان يحكم من عقد رابطة عنقه أمام المرآة وكأنني شبح يهذي في الفراغ خلفه ولا يبدي أي انزعاج، فقط سألني ببروده القاتل:

- متى ستعودين؟

نظرت إليه وهو يوليني ظهره وجسده الرياضي الممشوق أمامي، وتعجَّبت من ردِّ فعله المبالغ في البرود، فقلت له لأستفزه:

- إلى مصر تقصد؟ لا أعرف تحديدًا، رُبَّما بعد الطلاق مباشرة.

فنظر إليَّ بابتسام وكأنني أجامله، ثم عاد يضع المزيد من العطر فوق قميصه الأبيض، وتابع:

ـ والدكِ لن يوافق، تعلمين هذا جيّدًا.

ـ والدي ليس له شأن في هذا، إنه أمرٌ يخصني وحدي.

ـ تقصدين أنه يخصنا وحدنا، لا تنسَيّ أنكِ ما زلتِ زوجتي.

ـ تقصد عاهرتك.

ـ عاهرتي التي على ذمَّتي.

ـ حيوان.

ـ احفظي أدبكِ يا حبيبة.

نظرتُ إليه بتقزُّز وردَّدت مرَّة ثانية:

ـ حيوان.

ثم انصرف كأنه لا يسمع من سبابي شيئًا، كنت أتمنَّىٰ أن يضربني، أتمنَّىٰ أن أفقِده بروده وتماسكه ولو لمرَّة واحدة، فقط أن أرىٰ فيه أي شيء يمتُّ للبشر بِصِلَة، كان باردًا كهذا البلد وناسه، وكنت هشَّة كريشة طائر يُطوِّح بها الهواء كل دقيقة في مكان. أنهيت جمع حقائبي وذهبت إلىٰ أبي في منزله، لم أجده متفاجئًا ولم

يُبْدِ أي قلق من مرآيَ أمامه وحقيبتي في يدي ووليد الذي أتمَّ عامين فقط في يدي الأخرى، فقط احتضنني بهدوء وترحيب هادئين وكأنه كان ينتظر قدومي اليوم، ووجدته قد جهَّز لي غرفة خاصة بي وبوليد، وتناولنا فطورًا سويًّا، وطلبَ مِنِّي ألا نتحدَّث في شيء يخصُّ ياسر قبل أن أهدأ تمامًا، وحتى نستطيع أن نتحدَّث بجِد وموضوعية في طلب طلاقي ثم ذهب إلى عمله.

قضيتُ بضعة أيام مع أبي ولاحظت أنه يتجنَّب دومًا حديثي وشكواي عن ياسر كلما حاولت جرَّه إلى موضوع الطلاق أو حتى عن حياتي معه، بعد أيام من بقائي فهمت أنه يرغب في أن يظلَّ الوضع قائمًا على ما هو عليه لفترة، وطلب مِنِّي ألا أظلَّ في المنزل طيلة اليوم وأن آخذ وليد وأخرج به إلى حدائق مانهاتن حتى لا نصاب سويًّا بالاكتئاب المزمن من الركود هكذا بين الجدران.

أحببت منظرًا هادئًا ومريحًا للأعصاب اتَّخذته موطنًا لي ولجولاتي نهارًا، حيث كنت أجلس على أحد المقاعد العامة المخصَّصة للزائرين، وجواري وليد في عربته الخاصة يلهو مع الطبيعة بعينيه وأشرد أنا في بحيرة

حديقة «سنترال بارك»، وحولنا الزوار يروحون ويجيئون بينما أشرد أنا في حياتي التي لم أفهم لها سببًا حتى الآن، وأنقل بصري بين دقيقة وأخرى إلى وليد وأسأل نفسي عمَّا ستفعله به الحياة بعد أعوام من الآن، وقد بات واضحًا أنه سوف ينشأ دون أب في حياته، وأخذت الشهور تمضي بي ووليد يكبُرُ أمامي وأبي يذهب ويعود دون أية بادرة منه عمَّا سأفعل في أمر طلاقي من ياسر.

ذات مساء بعد أن كان قد انقضى أكثر من العام لا أعرف عن ياسر شيئًا ولا يسأل هو عَنِّي ولا عن ابنه، عُدّت إلى المنزل بعد رحلة تسوُّق لفقتها لنفسي أمضي بها يومًا آخر من أيامي الثقيلة في هذا البلد.

عند دخولي ووليد في يدي يسير صارخًا بفرح وهو يضرب بقدميه في الأرض ابتهاجًا بتماسكه في المشي ودفعه لعربة التسوُّق الصغيرة أمامه، كان ياسر وأبي يجلسان في صالة المنزل يضحكان ويشربان شيئًا ما في فنجانين أمامهما، لم أنطق بكلمة أمامهما وأخذت وليد بسرعة من يده وحملته إلى صدري وقد تملَّكني خوف أن يكون ياسر قد أتى هنا ليأخذه مِنِّي أو أي شيء آخر، أغلقت غرفتي على نفسي وتملكني الخوف

من أن يحدث لي أي شيء، وأنا لم أفهم علاقة أبي بياسر إلى الآن، وعندما انصرف أتى إليَّ والدي وسألني أن أتناول العشاء معه ولم يلمِّح إلى شيء.

على العشاء سألت أبي في قلق عمَّا أتى بياسر اليوم إلى هنا، فردَّ دون اهتمام:

ـ كان أمرًا عاجلًا في العمل، فاضطرَّ أن يأتي هنا.

سألته في قلق أكثر:

ـ فقط؟

فردَّ مؤكدًا:

ـ بالتأكيد، ماذا تظنين يا حبيبة؟ هل سيأخذك مِنِّي غصبًا؟

استفزَّني ردُّه بشدَّة فقلت له وقد بدأ الغضب يلوح بين كلامي:

ـ يأخذني منك؟! وهل أنا معك الآن حقًّا حتى يأخذني منك أحد؟

ـ ماذا تقصدين يا حبيبة؟ هل أضايقك في شيء دون أن أعلم؟ أراكِ غاضبة مني.

تركت الطعام من يدي وتابعت كلامي ناظرة إليه في حدة:

ـ لا يا أبي، لا تضايقني في شيء، ولا يوجد ما تفعله لي كي أغضب، لا يوجد شيء على الإطلاق، أنت فقط... لا أعرف، أنت فقط غير موجود، لا أشعر أنك هنا؟ هل تفهم ما أعني؟

ـ هل تقصدين أني أغيب عنك كثيرًا في العمل؟ عندك حق في هذا، لكننا لسنا في مصر يا حبيبة، الوقت هنا يجب أن يُترجم إلى مال، مال مكتسب أو مال منفق، ولديَّ مشاكل في العمل لا تنتهي أبدًا لا أريد أن أثقلك بها الآن، لكنها ليست بمشاكل صغيرة على الإطلاق.

ـ لذلك أسألك هل تفهم ما أعني، ليس هذا ما أقصد يا أبي أبدًا، وقل لي ما الفارق بين هنا ومصر؟ أسمعك تقارن بين أمريكا ومصر وكأننا كنا نمضي السنوات سنويًا في الإسكندرية كأب وابنته، هل تذكر لي ماذا كنت تفعل لي بمصر؟ رُبَّما أكون قد ظلمتك في شيء دون أن أدري.

وتوقَّفنا سويا عن متابعة الطعام، وأخذ وليد يخبط

بملعقته في أطباق الطعام على المنضدة، وصمت أبي واجمًا، وكنت أعلم أنه ليس لديه ما يقوله لي، فتابعت وأنا أقوم من على مائدة الطعام:

- تركتني مع أمي لسنوات وأنت تعرف أنها ليست بالشخص الذي يُعَاشَر، رُبَّما تكون قد هربت أنت منها، لكنك تركتني، تركتني وأنا صغيرة جدًا، ولم يكن لي من أحد غيرك، قاطعني الناس بسبب أمي وتصرفاتها، وتركتني أنت هاربًا إلى أعمالك وتجارتك وتركتني أمي إلى شربها وأصدقائها، ثم ماذا؟ أتيت إليك مرَّة أخرى عساني أجد فيك ما لم تستطع أنت أن تقدمه لي في مصر، فإذ بك تلقي بي إلى صديقك السادي هذا كـي يكمل ما اعتدت من الدنيا أن تفعله بي، وكأنك لم تكن تعرف عنه شيئًا، أو كأنني لست ابنتك.

ثم ألقيت بنفسي فوق أريكة واسعة في الغرفة وقاومت بكائي الملحَّ عليَّ وهو ما لم أفعله أمامه منذ كنت طفلة، فقام هو أيضًا من على المائدة وجلس جواري، ثم ربت على كتفي وجذبني إلى صدره في سكون، وأخذ يربت على ظهري فلم أتمالك نفسي وأخذت أبكي في صمت، ثم علا صوتي تدريجيًا وأبي صامت لا يقول شيئًا، ثم

تبعني وليد أيضًا في بكائه وهو لا يفهم شيئًا، تركت والدي وقمت إليه أحمله وأهدِّئ من بكائه، وظلَّ أبي ساكنًا، ثم قام إلى الهاتف وأجرى محادثة طويلة لم أسمع منها شيئًا، ثم عاد إليَّ في غرفتي واستأذنني في الدخول وهو ما لم أعتده منه أن يفعل، ثم جلس جواري على الفراش، وقال لي في حنان لم أسمعه منه قبل ذلك:

- هل تثقين بوالدكِ يا حبيبة؟

نظرتُ إليه غير فاهمة قصده، وأردت بشدة أن أقول له إنني بالطبع لا أثق بأي إنسان لكن حنانه غلب صراحتي، فرددت:

- بالتأكيد.

- قومي إذًا وجهزي حقيبتكِ، سوف يأتي ياسر بعد قليل ليأخذك إلى المنزل، وأعدك أنه لن يحدث لك شيء سيئ بعد اليوم.

وكان يربِّت عليَّ في حنان حقيقي؛ ليشعرني بالأمان في كلامه لكن ما نطق به لم يكن يمثل لديَّ سوى خوف جديد، مما يطلب مِنِّي أن أفعل، قلت له بطريقة حادة عساه يفهم كلامي وما أقصده:

ـ لا أريد أن أعيش معه، أنت لا تعرف، مجرَّد رؤيته تضغط على أعصابي بطريقة لا تُحتمَل، ألم تقل لي إنك ستساعدني على إيجاد عمل هنا؟ وإنك لا تمانع أن أستقل بنفسي وبحياتي إن أردت؟ افعل لي هذا إذًا وسوف أكون بخير، فقط أريد أن أنفق على ابني وأربيه كما كنت أتمنى لنفسي، لا أريد شيئًا آخر من الدنيا، هل تفعل هذا لي؟

بدا وكأنه لم يسمع من كلامي شيئًا، أو كأنه لديه رأي سابق فيه، ردَّ محاولًا إقناعي بما يريدني أن أفعل:

ـ ثقي بوالدكِ يا حبيبة، وأعطي ياسر فرصة أخيرة، وسوف أفعل لكِ أي شيء تريدين بعد ذلك.

حزنت بشدة من قوله الأخير هذا وكيف أنه لا يفهمني إلى هذه الدرجة، وبقيت صامتة في مكاني أفكِّر حينًا في كلامه ووعده الواثق بشدة هذا في أنه لن يصيبني شيء، وأفكر مرَّة أخرى في ياسر والأشهر الجافة الباردة التي قضيتها معه، وكلما تذكَّرت شكله ووجهه وطلباته الشاذة مِنِّي وخياناته اللانهائية لي وإهماله لوليد وكل هذا الألم الذي عشته في حياتي لا أهتدي لشيء، فقط يُجبرني

عقلي وقلبي أنه لا راحة لي في هذه الدنيا مهما فعلت.

استسلمت في النهاية لأبي، وعُدْت مع ياسر بعد أن أتى وأهداني زهورًا جافَّة مثله ليس لها رائحة، لكن حمله لوليد وهو جواري وانهماكه في تقبيلهما لبعضهما وابتسامة أبي الراضية عن موقفنا هذا أهدتني مزيدًا من الأمل الكاذب في أن تحمل لي الحياة ولو هدنة قصيرة من هذا الوجع.

كان تغيُّر ياسر في معاملته لي ملحوظًا جدًّا، أخذ يُفرط في تدليلي وإغراقي بالهدايا دون مناسبة، وهو ما لم يكن يفعل قبل ذلك، وكان يأخذنا لنخرج سويًّا نهاية كل أسبوع لنشاهد فيلمًا في السينما أو عرضًا مسرحيًّا ونتناول العشاء خارج المنزل، كما بدأ يتردَّد معي على المكتبات بعد أن كان يرفض ذلك دائمًا، وساعدني في الوصول إلى بعض الكتب التي تتحدَّث عن الأطفال فاقدي الأهلية والمنظمات العالمية التي تعمل على هذه القضية، وكان هذا الموضوع يأسرني طوال عمري، وكنت أرغب أن أصل فيه إلى شيء أستطيع أن أقدِّمه في حياتي قبل أن أرحل عن هذه الدنيا القاسية.

إلا أن تعلُّق ياسر بوليد كان مليئًا بالادِّعاء، فقد

كان ياسر يبدي تذمُّرًا سريعًا من أقل ضوضاء يُحدثها وليد أو إلحاح في طلبٍ ما، وكنت أخشىٰ علىٰ وليد منه يومًا بعد يوم، كما أن رعايته المادية له لم تكن كرعايته لي علىٰ الإطلاق، وبعد نصف عامٍ فقط من عودتي لياسر لاحظت عودته الخفية إلىٰ الشرب المتباعد بين ليلة وليلة، كما عادت المحادثات الهاتفية الخافتة للظهور مرَّة أخرىٰ.

فقدت أملي في أن أحيا معه حياة طبيعية، وقد كنت أعلم ذلك داخلي تمامًا ومن البداية، وعندما بدأت يد ياسر تمتدُّ علىٰ وليد اتخذت قرارًا نهائيًا بتركه دون تفكير مطوَّل، عاد من عمله مترنحًا بشدة تلك الليلة وعندما رأىٰ الحقائب المعدة أمامه علىٰ الفراش طوَّح بها أرضًا، ونظر إليَّ في شراسة لم أعتدها في وجهه قبل ذلك، ثم قال بصوت عالٍ مخمور:

- أين تظنين أنكِ ذاهبة؟

- ليس هذا من شأنك.

ألقىٰ بنفسه فوق الفراش وبدأ في نزع ملابسه حتىٰ صار عاريًا ثم قال لي بغلظة:

ـ تعالَيْ هنا.

وكان يشير إلى الفراش، فلم أُلْقِ له بالًا، ورُحت أرتِّب ما بقي من أغراضي فتابع في صوت أعلى:

ـ قلت لكِ تعالَيْ هنا، أريدك الآن.

بدأ الخوف ينتابني من حدته، وكان جسده العاري كالثور على الفراش أمامي شديد التقزز، فخرجت من الغرفة إلى فراش وليد، وتمنَّيت ألا يكون قد استيقظ على صوت هذا المخمور، وما إن فتحت الغرفة حتى وجدت ياسر خلفي وهو ما زال عاريًا وكانت أنفاسه ملؤها رائحة كريهة هي مزيج من الخمر والتبغ الثقيل، جذبني إليه في عنف دون صوت وهو يعلم أني لا أرغب في أن يصحو وليد على هذا المشهد الكريه، فخرجت من الغرفة صامتة، وجرَّني من يدي كالأغنام وألقى بي فوق الفراش وعيناه زائغتان تمامًا، وكان واضحًا عليه أنه أفرط في الشراب كما لم يفعل من قبل.

كانت ليلة شاذَّة بكل ما تحمله كلمة الشذوذ من معانٍ، رأيت فيه كائنًا لم أسمع عنه في حياتي، وكان يعبث بجسدي كالضباع حين تلتقط فريسة وليدة،

وكنت مستسلمة له تمامًا أرغب فقط في أن ينتهي مما هو فاعله حتى يذهب عَنِّي، وحين انتهى كانت كرامتي وجسدي قد انتهيا، وأقسمت ألا يلمس جسدي رجلٌ بعد ذلك اليوم.

غاب في نوم عميق جواري، وكان يُصدر أصواتًا كأصوات البهائم حين تخور، وكنت أبكي بصوتٍ خافت أكتمه داخلي بصعوبة بالغة، وكنت فقط أريد أن أخرج من هذا البيت اللعين، حملت وليد علي يدي وهو نائم، ثم طلبت تاكسي إلى المنزل، وتسحَّبت بهدوء خارجة، وفي التاكسي أرحت جسد وليد على المقعد جواري، وطلبت من سائق التاكسي أن يذهب إلى عنوان أبي، ثم أشرت إليه ألا يفزع مما سيحدث، ثم وضعت كلتا يديَّ حول وجهي، وأخذت أصرخ وأصرخ بصوت يوقظ الموتى، وأضرب رأسي في زجاج السيارة، وتوقَّف سائق التاكسي مرعوبًا بينما أفاق وليد من النوم، وأخذ يصرخ باكيًا جواري، فضممته إليَّ، ثم أشرت للسائق أن يكمل طريقه، وأخذت أتوسَّل إليه أن يفعل ذلك وأنا أكتم الصراخ حينًا وأفلته مِنِّي حينًا آخر، حتى وصلت إلى بيت أبي فلم أجده.

* * *

قضيت ليلة سوداء أمام منزل أبي حتى أتى في ساعة متأخرة، وكان أول ما قلته له أن يرسلني إلى مصر حالًا، ثم نتحدَّث بعد ذلك فيما يشاء، لم يقُل لي كلمة، طلبَ مِنّي بإشارة من يده أن أصعد إلى غرفتي، وقبل أن ينتصف نهار اليوم التالي كنت في المطار، ودَّعني في صمتٍ وقال لي إنه سوف سيأتي إليَّ قبل أن ينتهي الأسبوع.

لم يأتِ بالطبع قبل نهاية الأسبوع وانقضى ما كان معي من مالٍ، فرحت أبيع ما أملك من الحلي حتى أجد مشترٍ لشقة الإسكندرية، وأبدأ رحلتي الشاقة في البحث عن عملٍ أقتات منه وأنفق على وليد، حتى أتاني أبي بعد أن انقضت حوالي ستة أشهر لم نتحدَّث فيها إلا مرَّة واحدة عبر الهاتف، أخبرته في تلك المكالمة القصيرة أنني لا أبغي أن أراه، وأنني لن آخذ شيئًا من الأموال التي يضعها في حسابي كل شهر، وأنني فقط أريده أن يختفي من حياتي كأمي، وعندما أتى وكان بيننا ما كان كنت قد أصبحت أكثر قوة، واستعدت من روحي جزءًا ضئيلًا جدًّا مما فقدته، ووجدت عملًا في منظمة حقوقية تابعة للأمم المتحدة لم أعرف كيف

قبلت بي دون مؤهلات لديَّ أملكها سوىٰ ملامح أجنبية أكرهها ككرهي للحياة نفسها إن لم يكن أكثر من ذلك.

في السفارة الأمريكية بالقاهرة كان قد انقضىٰ علىٰ عودتي أكثر من العام، ومضىٰ علىٰ ما دارَ بيني وبين أبي في الإسكندرية بضعة شهور، كنت قد تقدَّمت بأوراقي للسفر مرَّة أخرىٰ، لكن طلب التقدُّم كان ممهورًا بمنحة دراسية عن الأطفال فاقدي الأهلية ودور رعاة الأيتام، ولم يكن هذا هو السبب الوحيد لديَّ، لكنني لم أخبر به أحدًا غير نور بعد أن أصبحت أثق به كأول إنسان أشعر ناحيته بشيء في حياتي.

في السفارة كان لقاؤنا، كان تقدُّمه بنفس الأوراق التي تقدَّمت بها لكنه لم تكن له سابق زيارة قبل ذلك إلىٰ أمريكا، كان ممسكًا ببعض الأوراق التي تحمل شعار نفس المنظمة التي تعطي تلك المنحة، وكانت تقتضي بمنح عام لمن تقبله السفارة أن يذهب إلىٰ الولايات المتحدة لمدة يقضيها في الدراسة، مع هامش مالي يؤمِّن له سبل المعيشة والإنفاق علىٰ نفسه ودراسته.

لم أتردَّد بعد أن رأيت نفس الأوراق في يديه أن أذهب لأحدثه بعد أن أنهي المقابلة، ولم أعلم وقتها أنه قد لمحني، وأنا أبحث عن مكان آمن أترك فيه وليد مدة المقابلة التي لن تزيد على دقائق كما علمت، تقدَّمت إليه دون جميع الموجودين، وقد أراحني هدوؤه المطمْئن، ولاحظت رعشته الخفيفة التي تظهر بين حين وآخر في يديه، وسألته أن أترك وليد معه هذه الدقائق القليلة بابتسام إذا لم يمانع، ولاحظت ساعتها أن تردُّدي كان زائفًا، فقد كان في صوته وقبوله دون تردُّد، وكأنه ينتظرني، وهو ما شجعني وطمأنني على وليد، شكرته مبتسمة بينما جلس هو أرضًا على قدميه ووضع يده المرتعشة فوق رأس وليد، وأشار بيده الأخرى إلى المسدس اللعبة الذي كان يحمله وليد، وقال له مداعبًا:

ـ ما هذا؟ هل أنت ضابط؟

ثم ابتسم وابتسمت معه تشجيعًا لوليد، فرفع وليد يده مصوِّبًا مسدسه ناحية نور، وأطلق منه طلقات وهمية ألقى نور بجسده بعدها أرضًا فضحك وليد بشدة، واطمأننت عليه وبعدها دخلت لأنهي مقابلتي.

* * *



(٦)
نـور

أنظر إلى حبيبة في الملجأ وهي تقوم من جلستها لتقترب من مكاننا أنا وزُهرة، ويراودني السؤال القبيح الذي أكرهه بشدة، ما الذي أتى بي إلى هنا؟ ما الذي حرَّكني من فراشي صباحًا لآتي هنا وآخذها من يديها إلى طائرة أعرف أنها محطة نهاية لنا؟ أم أقول محطة نهاية لي؟ ما الذي دفعني إلى الصعود خلف نجوى في المستشفى، وأنا لا أبغي منها شيئًا؟ ما الذي حرَّكني إلى السفارة رغم تردُّدي وخوفي من مجهول أعرف يقينًا أنه مملوء بالوجع؟ بل إن السؤال الحق، ما الذي جعلني

أطاوع أبي في ذلك النهار البعيد أمام ذلك الطائر الأبيض النبيل؟ كل شيء بدأ عنده، لكنه لم ينتهِ أبدًا.

انتبهت إلى أن زُهرة كانت تقول شيئًا ما وهي تشير إلى حبيبة القادمة من بعيد فلم أردَّ.

كانت أيام مستشفى الإسكندرية سيئة، سيئة إلى حد موجع، وكان منير يملُّ حكاياتي عن الإهمال والمرضى وشجاراتنا مع طاقم التمريض حينًا ومع صيدلية المستشفى وبنك الدم حينًا آخر، وكنت أردِّد لمنير دومًا كم هو لعين أن تعمل بمهنة الطب في بلد كبير محدود الإمكانيات يغزوه الجهل والفقر خلف كل جدار، وكنت أشعر في نفسي في بداية دراستي أنه قد يتيح لي القدر يومًا أن أكون سببًا في تخفيف وجع أحد أو مساعدته بأي صورة، فصرت أرسم الأحلام والمشاريع مع منير قبل أن يختفي من الجامعة عن العيادات النظيفة والمعامل الراقية التي سنتشارك فيها سويًّا، وكيف أننا سنعامل المرضى برفق نعوِّضهم به عمَّا يلاقونه لدى الأطباء في المستشفى هنا.

كنا صغارًا حالمين، وكان منير يأخذ كلامي على محمل

الجدِّ حينًا ويسخر منه حينًا آخر، لكني كنت متأكدًا تمامًا أنه لو أتيحت لنا هذه الفرصة يومًا فلن يتردَّد أبدًا عن مشاركتي هذا الحُلم الجميل، إلا أنه بعد اختفائه وتغيُّر خارطة حياته تمامًا بعد عودته صار الحلم أكثر صعوبة، ولم أكن أحلُم وحدي أبدًا.

في المزرعة كنت ونوران نتمدَّد سويًّا عند المساء نراقب النجوم ونعدُّ منها ما نستطيع، وإذا غلبنا النوم كنا نتفق أن نحلُم نفس الحُلم سويًّا، فكنا نكذب على بعضنا دومًا ويحكي كل منا نفس الحُلم للآخر، وربَّما يضيف إليه بعض التفاصيل البسيطة التي تضفي عليه واقعًا أكثر جمالًا.

كنت ممددًا في تلك الليلة فوق سطح بناية مستشفى الجامعة أدخِّن سيجارة بعيدًا عن صراخ أهل مريض يبحثون له عن أكياس دم في بنك الدم، وأنا أعرف أنهم لن يجدوه هنا وليس لديَّ ما أقوله لهم سوى الصمت العاجز.

أخذت أبحث في السماء عن نجمة الدبِّ الأكبر فلم أهتدِ إليها، بحثت مرَّات ومرَّات وانتهت سيجارتي

وأشعلت غيرها، لكني لم أعدّ أذكر كيف كانت تبدو وسط هذه الشموع المعلَّقة في السماء البعيدة، حاولتُ تجميع ما علَّمني إياه أبي في المزرعة فلم أذكر منه شيئًا، ثم ظهر وجه نوران أمام عيني وسط السماء فجأة وهي تبتسم، فتذكَّرت ما قلته لها عن تلك المجموعة الغريبة من النجوم التي تشير ناحية الشمال.

كانت نوران تبتهج دائمًا كلما نقلت إليها شيئًا جديدًا علَّمني إياه أبي، رغم كرهي لمعظم ما تعلَّمته منه، لكني كنت أحتفظ به في رأسي جيّدًا؛ كي ألقِّنه نوران في المساء، لكني كنت أرفض إلحاحها المستمر كلما حاولتْ جرِّي للحديث عن الصيد، وكنا نتشاجر كثيرًا بسببه، وكانت المرَّة الوحيدة التي تخاصمنا طويلًا فيها يوم حاولت العبث ببندقية الصيد ونحن نائمون في منزل المزرعة، قبضت على يدها في ذلك اليوم بشدة وصحت بها غاضبًا وأنا أدفعها بقسوة، واستيقظ والدنا على صوتي ونهرنا نحن الاثنين بشدَّة ثم ضربها كثيرًا، وظلَّت نوران تبكي طيلة الليل ولم تُكلِّمني في الصباح التالي ولأيام عدة حتى مرضتُ ولازمت الفراش لفترة، فجاءتني ذات مساء ورقدت جواري صامتة، ثم ربَّتت

علىٰ رأسي في رقة وقبَّلتني، ثم ذهبت فقمت جريًا وراءها وذهب مرضي في لحظتها.

ابتهجت روحي بشدة لتذكُّري نوران في رقدتي هذه علىٰ سطح المستشفىٰ، وأخذت أنظر إلىٰ النجوم ثانية وأرسم ملامح نوران في السماء، وأجعلها تبتسم وتضحك، وكلما عاتبتني علىٰ بُعدي الطويل عنها صرفت الفكرة من رأسي، وهربت من مواجهة نفسي بأنانيتي الشديدة تجاهها، وعُدّت أرسم وجهها وملامحها بعد أن كبرت وصارت تشبه أُمَّنا كثيرًا، فصار وجهها أكثر نورًا وهي تضع شالًا أبيضَ وسط السماء، ووجهها مضيء تمامًا كالقمر بين النجوم، فاتسعت ابتسامتي كثيرًا.

شممت رائحة غريبة وتوتَّرت الصورة فجأة، واهتزَّت نوران أمامي، وأصبحت ملامحها حادة وقاسية وعينيها غريبة عَنِّي، ووجدتها ترتدي بالطو أبيض، وتنظر إليَّ وهي تبتسم ابتسامة شرسة وتقول:

ـ هذا هو مخبأك السري إذًا، لم أكن أعلم أنك تدخِّن يا دكتور نور!

تنبَّهت من شرودي فجأة، وأفقت منه علىٰ وجه

نجوىٰ زميلتنا في المستشفىٰ، والتي تعمل بصورة غير رسمية في قسم الأطفال؛ لكونها ابنة أحد الأساتذة الكبار في الكلية، كانت تقف جواري وأنا راقد علىٰ الأرض ترتدي جيبة قصيرة وحذاءً ذا كعب عالٍ يبدو كمطرقة صغيرة مغروسة في الأرض، وتضع يديها في جيب معطفها الأكثر طولًا من جيبتها، وتنظر إليَّ كمن ضَبَط مجرمًا.

تضايقت كثيرًا من اقتحامها لصورة نوران بهذه الفجاجة، ولم أتحرَّك من رقدتي ولم أنظر إليها، فقط أشحت بوجهي بعيدًا عن مرآها ولم أردَّ مباشرة، سحبتُ نفسًا مطولًا من السيجارة التي قاربت علىٰ النفاد ثم قلت:

ـ أحبُّ أن أختلي بنفسي قليلًا هنا من وقتٍ لآخر، أيضايقكِ هذا أو يضايق أحدًا في شيء؟

ـ إطلاقًا.

ـ إذا يضايقك أني أدخن؟ لا تقلقي هذا ليس حشيشًا، هذه سجائر عادية.

لاحظت من زاوية وجهها البائنة ناحيتي أنها تبتسم بخبث وهي تقول:

- لماذا تظنُّ ذلك؟ ولن أتضايق لو كنت تدخن حشيشًا أيضًا، أنت حُرٌّ فيما تفعل، فقط لم أكن أعلم أنك تدخِّن، لا يبدو عليك ذلك.

استفزَّني كلامها الملفوف وتعكيرها لخلوتي تمامًا، فقلت لها بلهجة تبدو حادة وأنا أنظر لها:

- وكيف يبدو من يدخن إذًا؟ هل يحمل إشارة مدخِّن فوق جبهته؟

ضحكت نجوى ضحكة ثقيلة مستفزة كوجودها، ثم جلست أرضًا وتربَّعت قبالتي وقالت:

- بل يبدو مثلي، لا يهرب من أحد.

ثم تناولت علبة السجائر جواري، وألقمت شفتيها المصبوغتين بأحمر الشفاه القاتم سيجارة منها، وزفرت دخانها ناحيتي، ونظرت ناحية السماء.

لم أجد لنفسي مبررًا منذ أن عرفت نجوى في قسم الأطفال أن أتجنَّبها هكذا، كانت روحها ثقيلة وتُشعرني بأنها تُطبِق على صدري فور حضورها، توتِّرني رائحة عطرها الحاد الخانق كلما اقتربت مِنِّي ونحن نفحص مريضًا أو نتناقش مع أحد الأطباء في شيء، والدلايات

الغريبة التي تضعها فوق صدرها المكشوف دائمًا، ورغم أنها كانت تتشاجر دائمًا مع معظم الأطباء أصدقائنا في المستشفى إلا أنا كانت تعاملني دائمًا بلطفٍ واضحٍ غير مبرر.

في بداية تخرُّجي بالكلية قضيت فترة التدريب أتنقَّل كالجائع بين أقسام المستشفى؛ أبحث عن التخصص الذي سأجد نفسي فيه، في البداية استهواني تمامًا العمل في قسم الجراحة، كانت بسيطة مباشرة وجافة كحياتي، أحببت التدخُّل المباشر لقتل الوجع لدى المرضى، لا علاجات مطوَّلة ولا فحوص كثيرة وتشخيصات مختلفة ومتناقضة، فقط مشرطًا دقيقًا وخيطًا ضئيلًا ويدًا متمرِّسة خفيفة قادرة على أن تُنهي وجعًا ثقيلًا لدى المريض، كما أحببت كثيرًا حالة الغياب عن الوعي التي يقضيها المريض ملقىً بين المعاطف البيضاء ينظر لسقف غرفة العمليات في ترقُّب وخوف، ثم يغيب بهدوء لفترة قليلة، ويستيقظ بنفس الهدوء ليجد أن وجعه قد ذهب، كم كان هذا رائعًا بالنسبة لي، ليس أجمل من أن تغمض عينيك لدقائق فيمدّ غريبًا يده في جسدك ليقبض على وجعك بإحكام، ثم ينزعه من

داخلك دون أن تشعر، فتشكره ببساطة وتذهب دون أن تراه ثانية، كم كنت أتمنَّى أن يفعل غريبٌ هذا معي، إلا أن أسرار الروح لم تكن ضمن ما يُدرَّس في علم الجراحة.

كانت أيامًا أحببتها كثيرًا إلا أنها ككل ما أحببته في هذه الحياة لم يدُمْ طويلًا، بدأت أرتعب كلما توتَّر جهاز قراءة نبضات القلب أثناء الجراحة أو تغيَّرت المعدلات الحيوية لدى المريض وجسده مشقوق أمامنا كالذبيحة لا يُحرِّك ساكنًا، وكلما اقتربنا من فقدنا لمريض في جراحة، خاصة لو كانت بسيطة سهلة لازمتني حالة وهن شديد في جسدي، وميلٌ قوي للقيء أثناء الجراحة، ولازمتني حالة وجوم واكتئاب مطوَّلتين بعدها، وبدأت أخاف من نفسي، وأخاف أكثر أن تعود النوبات القديمة إلى سابق عهدها.

انتقلت سريعًا إلى قسم الأطفال بعد أن نصحني من هم أكثر خبرة مِنِّي بذلك، كانت قدرتي على تحمُّل صراخ الأطفال وأمراضهم المكررة المعتادة أكثر راحة وتقبُّلًا على روحي، إلا أنها كانت مملَّة ومرهقة، وكان وجود نجوى وحده في هذا القسم كفيلًا بأن يجعله مكانًا كريهًا.

كنت أسأل نفسي دومًا لماذا أشعر ناحيتها بهذا الثقل، كنت أعرف أنني أكره الطريقة التي عملت بها معنا في القسم اعتمادًا على منصب والدها فقط، ورغم أنها كانت ترأس طاقمنا أحيانًا؛ لأنها أكبر مِنَّا سنًا إلا أنها أحيانًا ما كانت تُبدي جهلًا أمام بعض الحالات البسيطة المباشرة، كما أنها كانت لها طريقة فظة أحيانًا في معاملة أمهات المرضى من الأطفال، خاصة من تبدو حالتهم رثة يغزوها الفقر، وكانت معظم الحالات في المستشفيات كذلك، ومنذ أن وجدتها تترصدني من وقتٍ لآخر أُغلقت ناحيتها تمامًا، وكنت قد ترسَّخت نيتي في الانتقال من القسم بعد أن أستقرَّ على قسم آخر، ثم أصبح وجودها دافعًا قويًّا لذلك. كان ثمة شيء غير مريح آخر لم أفهمه وقتها يتحرَّك داخلي كلما وجدتها أمامي، لم أعاملها بسوء لكني فقط تجنَّبتها قدر ما استطعت.

بحثت عن وجه نوران مرَّة أخرى في السماء علَّها ترحمني من هذه الروح الثقيلة إلا أنها رفضت تمامًا أن تأتي، وجدت أن نجوى لن تذهب فاعتدلت من نومتي وجلست قبالها أنوي الذهاب.

نظرت إليها بحدة وكان ثوبها القصير يوشك أن يصل إلى ما فوق فخذيها فصرفت نظري عنها، لاحظت هي ذلك فلملمت أطراف المعطف الذي ترتديه وسترت به بعضًا من ساقيها، وقالت وقد بدا أنني أصبتها ببعض الحرج:

ـ أيضايقك ثوبي؟

لم أردَّ، وتضايقت من نفسي قليلًا لكني لُمتها على وجودها قبل ذلك، عدَّلت نجوى من ثوبها أكثر ثم سألت:

ـ لماذا تركت قسم الأطفال بعد هذه المدة الطويلة، كنا نراك جميعًا متميزًا؟ كما أنك كنت خير من يعامل المرضى فيه.

قلت لها بهدوء:

ـ لم أجد نفسي فيه.

ـ فقط؟

قالتها بشيء فيه خبث ودلال لم أدرِ كيف أعجبني، فتابعت وقد بدا أن الحديث لن يكون مملًا:

ـ هل ترين شيئًا آخر؟

ـ بالتأكيد.

ـ وما هو إذًا؟

ـ لا يهم.

قالتها ثم نهضت وهي تنفض عن معطفها الأبيض ما علق به من تراب أرضية السقف، ثم تمشَّت بهدوء إلى سور السطح، وقد علا صوت كعبي حذائها في أذني، وجدتني ألقي بنفسي على الأرضية ثانية، وأمدِّد جسدي وأعود لأنظر بين النجوم ثانية، ولم تكن نوران هناك ولا أبي ولا أي أحد، إلا أن توتري كان قد ذهب بعيدًا، تناولت سيجارة أخرى أشعلتها دون رغبة، وسألت نجوى ببعض الرقة غير المعتادة في حديثي معها:

ـ هل يفتقدني أحدهم هناك في القسم؟

التفتت ناحيتي وكرَّرت سؤالها مرَّة أخرى:

ـ هل يضايقك ثوبي؟ أعني هل تضايقك طريقتي في اللبس؟

رددت بعد تفكر وقد كان يضايقني حقًّا لكن منها هي فقط:

ـ لماذا تظنين ذلك؟

ـ أرىٰ أنه الشيء الوحيد الذي يجعلك تتجنَّبني دائمًا هكذا.

استشعرت شيئًا من غضب في كلامها، فلم أردْ أن أزيد من مضايقتها دون سبب، فقلت مبرِّرًا:

ـ أعتقد أني أتجنَّب الجميع، ليس لديَّ أصدقاء هنا لو كنتِ تفهمين قصدي.

ـ أعلم ذلك، لكن لا أحد يرغب بصداقتك من الأساس سواي، ومع ذلك أراك تتجنَّبني تمامًا.

تضايقت من قولها إنه لا أحد يرغب في صداقتي رغم أني لم أكن أبغي مصادقة أحد في المستشفىٰ، إلا أن إحساسًا سيئًا لازمني بعد جملتها هذه، وغلبني الفضول فسألتها:

ـ ولماذا لا يرغب أحد في مصادقتي؟ هل أنا شخص سيئ أو غير مريح.

ـ لا أعلم، الجميع هنا يرىٰ أنك مجنون، هل أنت مجنون يا نور؟

ـ أظنُّ ذلك، ما رأيكِ أنت؟

ـ أعتقد ذلك، لكني أحبُّ جنونك.

ـ حقًا.

ـ نعم، أحبه كثيرًا، أتعلم أنني مجنونة مثلك؟ لكني أكثر جنونًا منك، أكثر من هؤلاء المجانين الذين تصادقهم في قسم الرعاية.

ـ من تقصدين؟

ـ المرضى الذين ينتظرون الموت والذين تقضي الليل بصحبتهم تتحدَّثون وتلعبون الشطرنج حتى يموتوا، لا أعلم ما الذي أعجبك في هذا التابوت البارد الذي انتقلت إليه، كيف تقضي وقتك تصادق مرضى ينتظرون الموت بين لحظة وأخرى؟ ألم تتعلم من أساتذتنا في المستشفى أنه لا يجب عليك مصادقة من هم مشرفون على الموت حتى لا يتأثر عملك؟ هل أنت بهذه السذاجة؟ ما المتعة في ذلك؟

قلت لها غاضبًا:

ـ من فضلكِ لا تتحدَّثي عنهم هكذا، ثم من قال لك إن العمل في هذه الخرابة لا بد أن يكون ممتعًا.

ـ لا يجب أن يكون كذلك، أعلم هذا، لكني أعلم أيضًا أنك لا تفعل سوى ما تحب، أنت تركت قسمي الجراحة والأطفال؛ لأنك لم تسترح فيهما، ما الذي وجدته ممتعًا في مجالسة الموتى الأحياء هؤلاء لتقضي عامين فيه حتى الآن؟

ـ قلت لكِ لا تتحدثي عنهم هكذا، لماذا تتعمَّدين استفزازي؟

ـ لا أتعمَّد شيئًا، أنا فقط لا أفهمك، ما هو السر؟

ـ لا سرَّ هنالك، فقط وجدت راحتي هناك، لست الطبيب الوحيد بالمناسبة الذي يعمل في هذا القسم، هناك الكثير من الأطباء والممرضات يعملون جميعًا معي.

ـ أمم، إذًا فالسر في الممرضات الحسناوات اللاتي يعملن هناك، هنَّ أجمل من العجائز الأخريات الموجودات بقسم الأطفال.

اعتدلت من رقدتي، وقرَّرت أن أترك لها المكان وأذهب، وقلت لها وأنا أنهض:

ـ أنتِ إنسانة غريبة يا نجوى.

ـ وأنت أيضًا، لذلك أنت تشبهني في كثير من الأشياء لكنك تخشىٰ أن تعترف بذلك.

قلت لها متعجبًا:

ـ أنا؟؟ أشبهك أنت!!

ـ تمامًا، لكني أكثر منك جرأة، أفعل ما يحلو لي دون تفكير، اترك نفسك لرغباتك يا نور حتىٰ تحيا سعيدًا، لا يكفي أن تفعل ما تستطيع فعله فقط كي تكون سعيدًا، يجب أن تفعل ما تحب وما لا تستطيع أن تفعله، هذه نشوة لا يفهمها سوىٰ القليل.

ـ تقصدين سبابكِ المستمر لأهل المرضى مثلًا، هل هناك سعادة لا أعرفها في ذلك؟

تحفَّزت من قولي وقالت مدافعة:

ـ لماذا تتهمونني جميعًا بذلك، تركت لكم الرقة والطيبة التي أستطيع أن أمارسها أفضل منكم مائة مرَّة، واتخذت موقف القسوة حتىٰ نستطيع أن نمارس عملنا بصورة أفضل، ألا تدرك كيف سيتحول القسم لو تعاملنا كلنا برقتك وطيبتك السخيفتين، نتلقىٰ أكثر من مائتي حالة يوميًّا وليس لديك سوىٰ عشرين فراشًا،

هل تقل لي كيف ستحنو على طفل يشكو من الزكام على حساب آخر ينتظر زراعة للكلى، لا تكن طفلًا، أفق يا نور نحن في مستشفى عام وليس ملجئًا.

كان بكلامها بعض من المنطق، لكني كنت أعلم أن قسوتها هذه نابعة من شخصها أكثر من إدارتها للعمل، قلت متابعًا اتهامي لها:

ـ بعض التفهُّم لن يضر يا نجوى، يمكنكِ أن تفعلي ما تشائين دون كل هذا الصراخ والسباب الذي لا ينتهي بينك وبين المرضى.

ـ تركت لك الرقة، أنا حرة.

ـ نعم أنتِ حرة، بعد إذنك.

ثم تركتها واتجهت بعيدًا إلى باب السطح، فسمعتها تتحرك خلفي وسألتني بصوتٍ يبدو عاليًا:

ـ لماذا لا تجيب عن سؤالي بصراحة؟

التفتُّ إليها ولم أفهم قصدها وكانت تقترب أكثر وقد خلعت البالطو الذي كانت ترتديه وتركته هناك على السور يطوح به الهواء، قلت وقد أقلقني اقترابها مِنِّي:

ـ أي سؤال تقصدين؟

ـ أقصد ملابسي؟ لماذا لا تعترف أنك تحب طريقتي في اللبس لكنك تبدي عكس ذلك؟ لا تخش شيئًا، لن أخبر أحدًا بذلك.

نظرت إليها وإلى ثوبها الضيق القصير ولم أرد، وتوقفت عن حركتي تمامًا فتابعت هي:

ـ لماذا تنكر أنك ترغب فيَّ بشدة، لن يضايقني هذا.

لم أردَّ عليها أيضًا، وددت أن أقول لها أنني لا أرغب فيها ولا في غيرها لكني لم أنطق وزاد توتري ووددت لو أجري من أمامها لكني خجلت، توقفت أمامي وأخذت تنظر إليَّ وهي تتفحصني طويلًا ثم استدارت وأولتني ظهرها وقالت وقد تحركت مبتعدة ثانية:

ـ هل تعلم؟ لست وحدك من يهرب إلى السطح هنا من صخب المستشفى، في الليالي التي نقضي فيها النوباتجيات الطويلة آتي هنا وحدي دون أن يعلم أحدٌ، خاصة في تلك الليالي المقمرة، أغلق هذا الباب جيِّدًا وأخلع ملابسي كلها، وأترك نفسي لهواء البحر يعبث بي كيف يشاء، أنت لا تعلم كيف هذا الإحساس، تلك

نشوة لا تعلم أنت عنها شيئًا ولا تجرؤ أن تجرِّبها يا نور، قل لي، هل تفعل هذا معي الآن؟ هل تجرؤ؟

ثم استدارت إليَّ وبدأت تقترب أكثر، كانت تبتسم بشدة ووضعت يديها خلف ظهرها وبدأت في خلع ثوبها، صمت لثانيتين من هول جرأتها وجنونها ثم قلت لها وأنا أهرب مبتعدًا:

ـ أنتِ مجنونة،، مجنونة حقًّا.

وكنت أرغب في أن أقول لها إنها سافلة لكني لم أفعل، وأخذت أهبط السلالم في سرعة وكدت أن أسقط. لن تفهم نجوى أبدًا ما الذي جذبني في قسم الرعاية المركزة دون بقيَّة الأقسام، لن يفهم أحدٌ أبدًا، لا أحد يعلم عَنِّي هنا شيئًا، ولن يفهم شيئًا لو علم.

كانت الحالات الكثيرة التي نفقدها يوميًّا في قسم الجراحة تثير جنوني، مشهدنا ونحن واقفون حول المريض وكلنا عجز أمام سرِّ الروح التي تغادر الجسد وتتركه باردًا كهواء الغرفة الكئيب، كان الجميع يتجاوز الموقف بعدها بدقائق، وسرعان ما يُجهِّزون الغرفة لمريض آخر قد يلقى نفس المصير، وكنت أظنُّ أنني سأعتاد الأمر

بعد فترة كسائر الأطباء، إلا أن إحساس العجز كان يزداد يومًا بعد يوم، إلى أن انتقلت لقسم الأطفال، وحدث أن أتتنا يومًا حالة حرجة لفتى يعاني من عدة أمراض وكانت حالته شديدة الخطورة، ودخل من بين أيدينا في غيبوبة طويلة، وبدأت أجهزة جسمه في الانهيار البطيء أمامنا.

تم نُقِلَ الفتى أمام صراخ والديه إلى قسم الرعاية المركزة، وقد أعلن بعض الأطباء بصورة غير رسمية أنه شارف على مفارقة الحياة حتى يجهز والداه نفسيهما لتلقِّي الفاجعة، فغضبت منه بشدة واستجبت لتوسلات أمه أن أذهب إلى قسم الرعاية أنقل لها حالته كل فترة.

في القسم كانت الأسرَّة المتراصة بعيدًا عن بعضها صامتة كالقبور، معظم المرضى حالاتهم حرجة، وأكثرهم في غيبوبة كاملة، كان مشهدًا مُقبضًا كئيبًا ونويت ألا أعود إلى هنا ثانية، ذهبتُ إلى الفراش الذي استقرَّ عليه الفتى وقضيت بعض الوقت مع الطبيب بعض أن أوصِل جسده الواهن بأجهزة المراقبة، وعلَّق له بعض المحاليل التي لن تجدي مع حالته شيئًا، ثم صعدت إلى والدته وطلبت منها أن تهدِّئ من روعها وطمأنتها كذبًا وسألتها أن تدعو له.

أخذت تبكي بشدة وتصرخ فينا حتىٰ أن نجوىٰ اقتربت منها واحتضنتها بقوة، وظلت معها هكذا حتىٰ هدأت قليلًا، ثم اقتربت مِنِّي والدته وطلبت مِنِّي وسط دموعها الغزيرة أن أقرأ له قرآنًا جوار رأسه، وأخذت تتوسَّل لي حتىٰ إنها مالت علىٰ يدي وقبَّلتها، لم أنطق بكلمة وقد أحرجني تصرُّفها أمام الجميع في المستشفىٰ، ولم أعلم ماذا عليَّ أن أفعل، نظرت إلىٰ نجوىٰ في صمت، فقالت بصوتٍ خافت:

ـ هناك مصحف صغير في درج كبير بغرفة استقبال الطوارئ.

ثم جذبت المريضة من يديها وتركتنا وذهبت بها للداخل وأجلستها علىٰ أحد المقاعد المخصصة لنا في القسم.

ذهبت إلىٰ غرفة الاستقبال بحثت عن المصحف حتىٰ وجدته، ثم ذهبت إلىٰ قسم الرعاية ونفَّذت ما طلبته مِنِّي أم الغلام، وأخذت أقرأ له حتىٰ انقضت ساعة، وكنت أسترشد أثناء قراءتي بنوران وكيف كنا نحفظ القرآن سويًّا، وكانت هي أكثر قدرة مِنِّي علىٰ حفظ الآيات الطويلة.

ساءت حالة الفتى في الليلة الأولى، ثم استقرت في اليومين التاليين، لكنها لم تتحسَّن، وتوقَّفت كُلْيتاه عن العمل، وكنت أهبط له كل يوم مرَّتين في القسم أقرأ له قرآنًا؛ استجابة لتوسُّلات أمه، وبدأت أتابع بعض الحالات الأخرى في القسم وسط تعجُّب الأطباء والممرضات العاملين فيه، بعد يومين آخرين تحسَّنت حالته قليلًا، وعادت بعضُ ملامح الصحة تغزو وجهه الشاحب، وتعلقت بعض الآمال أنه رُبَّما يفيق من حالته ويسترد صحته، إلا أنه قبل نهاية الأسبوع سلَّم روحه لخالقه، وسكن جسده تمامًا.

لم أحزن على الفتى كما توقَّعت، فقط حزنت كثيرًا على لوعة أمه وهي تنظر إلى جسده البارد على الطاولة أمامها، وتجاوزت الموقف سريعًا خلال أيام إلا أن فكرة الأمل الذي انتابني وأنا أتابع حالته كل يوم، وأنا أقرأ له القرآن وأطمئنُّ على سريان المحاليل المعلَّقة له بنفسي أشعرتني بحالة من الراحة والسلام النفسي لم أكن أعلم عنها من قبلُ في المستشفى، كانت الحالات التي تدخل في الغيبوبة العميقة مع مصاحبة العديد من الأمراض وتقدُّم سنِّ معظم المرضى في هذا القسم

تجعل نسبة النجاة من الموت في هذا المكان قليلة جدًّا، لكن التعلُّق بالأمل كان مريحًا، كان جميلًا، جميلًا إلى حد كبير، وعندما رأيت أول حالة تابعتها عن قُرب تفيق من رقدتها ثم تغادر المستشفى وسط فرحة أهل المريض قررت أن أنتقل للتدرُّب في هذا القسم، واستمررت فيه لأعوامٍ ثلاثة إلى أن تركت المستشفى نهائيًا.

بعد أن هربت من نجوى سمعت صوت سارينة الإسعاف مدويًا يخترق الصمت، وتوقَّعت أنها حالة ستحوَّل مباشرة إلى قسم الجراحة، فعدت إلى قسم الرعاية وأخذت أفكر في تلك المجنونة وما كانت تريدني أن أفعل.

في القسم كان المرضى أكثر صمتًا وهدوءًا وأشد احتياجًا للمساعدة والرفق بهم، وكنت لا أشعر بتعبٍ أو مجهودٍ أثناء فترة النوباتجيات، رغم تكرار شكوى العاملين فيها من المرضى وتذمرهم المستمر وإلحاحهم الدائم في رؤية أهلهم، وقد كانت أوقات الزيارة هنا لا تتجاوز الدقائق إن كانت حالة المريض تسمح من الأساس، لكني كنت أتفهَّم رغباتهم جيِّدًا، كان من يدخل العناية المركزة من المرضى هو شخص ساءت

حالته بشدة، أو هو مريض معرَّض لخطورة بالغة إن قلَّت الرعاية به، وكانوا يشعرون طوال الوقت أنهم مفارقون الحياة بين لحظة وأخرى، فكان طلبهم في رؤية أقاربهم وأصدقائهم مفهومًا جدًّا لديَّ، ومبرَّرًا تمامًا، وكان التحذير المستمر الذي نأخذه من الأطباء في المستشفى والذي مللته هو ألا تنشأ أي صداقة بيننا وبين المرضى عامة، ومرضى العناية المركزة بشكل أكثر تحديدًا؛ حتى لا نصبح عرضة لمفارقة الأصدقاء طول الوقت، وألا نتعلق بأشخاصٍ هم مفارقون الحياة عمَّا قريب إذا ما كانت حالاتهم خطيرة.

لم أكن أكترث لهذا الكلام، ولم ألقِ له بالًا، لم يكن يهمني من سيرحل ومن سيخرج معافى، كل شيء بأمر الله وكل الأرواح بين يديه، يطلقها متى يشاء وكيف يشاء، كنت أحزن بالتأكيد كلما فارقنا مريضًا أحببته أو تعلقت به فترة وجوده، لكني كنت أكتسب حكمة مع الوقت برؤية الموت أمامي كل لحظة وهو يطرق باب أحدهم، تمامًا كما كنت أفهم حكمة الله في عباده كلما نجت حالة مستعصية من الموت المحتَّم أمامنا ونحن جميعًا نقف عاجزين أمامها وقد سلَّمنا للموت أن يأتي

في أي لحظة يرغب، فأتت بدلًا منه حياة جديدة كتلك التي نحلُم بها جميعًا.

بعد ساعتين من إجراء الفحوص للمريض الذي أتى؛ تمَّ تحويله مباشرة إلى قسم الرعاية المركزة؛ لمتابعة حالته.

في اليوم التالي جاء تشخيص أطباء الجراحة بسيطًا وواضحًا، شلل رباعي نتيجة حادث سيارة تسبَّب في إصابات متعددة بعموده الفقري وبقاع الجمجمة، وأرقدنا على الفراش عجوزًا حُكِم عليه بالبقاء هكذا إلى ما شاء الله.

* * *



(٧)
زُهــرة

كانت تطأ بقدميها على العشب في حديقة الملجأ وكأنها تطير، تمسك بيد وليد ابنها في قوة كمن يخشى أن ينتزعه منها أحدٌ، وتحمل وليد الصغير الآخر بيدها الثانية في رقة وكأنها أمه الحقيقية، لا تبتسم ولا توجم، فقط تنظر إلينا وهي قادمة بعودها الرشيق الطويل كنجمات السينما العالمية وهنَّ يسرن على البساط الأحمر في حفلات الأوسكار، وكلما اقتربت، اختفت الشمس خلفها ليبرق ما حول كتفيها ورأسها، ويضيء شعرها الأشقر بلون ذهبي أكثر لمعانًا من أشعة الشمس نفسها

وقد بدأت الشمس تنكسر بنعومة تحت الغيوم التي تكاثرت عليها في السماء.

أحببت حبيبة من نظرتها المتعلِّقة بشدة ناحية نور، لم يخبرني عن تعلُّقها الشديد به في ليلة الجاليري لسبب لا أعلمه، كان يخفي علاقتهما القوية متعللًا بقِصَر عمرها ويكرر دائما أنهما يعرفان بعضهما حديثًا، حتى عندما عرَّفني عليها في الأمريكين.

تنظر حبيبة إلى نور في صمتٍ طويل ثم تبتسم إلينا بعذوبة وطفولة، وتفلت وليد ابنها من يدها وتقترب مِنِّي لتقبِّلني في خدي ثم تضع يدها بهدوءٍ على ذراع نور وتسأله:

- أنت بخير؟

فلا يرد، فقط ينظر إليها طويلًا جدًّا ثم يطرق أرضًا بعدها مشيرًا إلى أنه ليس بخير على الإطلاق، أتساءل داخلي أين اختفى منير كل هذا الوقت؟ فمنذ أن أوصلنا إلى الملجأ صباحًا ثم استأذننا في الذهاب إلى أمرٍ ما لم يوضحه لنا وأخبرنا أنه سوف يعود بعد قليل لم أسمع عنه شيئًا، أنتزع نور وحبيبة من حزنهما بسؤالي

عنه، فيُخرج نور هاتفه ليتصل به بينما تعيد حبيبة الإمساك بوليد مرَّة أخرىٰ بيدها وتسألني في خوفٍ:

ـ هل تناول دواءه اليوم أم تناساه؟

أردُّ عليها مُطَمْئنة:

ـ لا تقلقي، تأكدت من ذلك بنفسي، لا تقلقي يا حبيبة، سيكون بخير، هو فقط قلِق عليك أنت.

ـ ليس هناك ما يدعوه إلىٰ ذلك، أشهر قليلة ستمر ثم أرجع إليه، أعني إليكما، أريد فقط أن أطمئن علىٰ أبي وأنهي هذه الشهادة بأي صورة ممكنة، تعلمين كم هذا مهم بالنسبة لي، لو لم يكن بيني وبين أبي ما حدث ولو لم أقسُ عليه عندما أتىٰ هنا ما كنت لأسافر ثانية أو أترك نور وحيدًا لحظة.

ربَّتُّ علىٰ كتفها مشجِّعة إياها وقلت:

ـ لا تلومي نفسكِ علىٰ شيء، كلُّ مقدر بأمر من الله، ولا تقلقي علىٰ نور، سيكون بخير، صدقيني، اعتني أنت بنفسك وبوليد وعودي إلينا سريعًا.

كنت بالطبع أكذب، وكنت أعلم أنني أكذب، نور

ليس بخير على الإطلاق، ولم أعلم هل تناول دواءه حقًّا أم كذب هو الآخر علي، أنهى نور مكالمته وأخبرنا أن منير سوف يمر علينا بالسيارة في فندق «كليمنت هاوس» بعد ساعة من الآن ثم يذهب معنا إلى المطار.

في الأمريكين، كان لقائي التالي بنور في اليوم التالي بعد ليلة الجاليري، وبعدها بأسبوع واحد، طلبَ مِنِّي أن يعرفني على حبيبة، سألته في الهاتف إن كانت قد غضبت منه بسببي، وعمَّا قاله لها عَنِّي، أعلم جيِّدًا أنها لابد وأن تغار عليه مِنِّي، عشت هذه الحكايات كثيرًا، وفقدت بسببها أغلب الأصدقاء القليلين الذين عرفتهم في حياتي الطويلة، وكنت متمسكة بنور بشدة، وأرغب في البقاء جواره، خاصة بعدما رأيته أمامي وهو يكاد يحتضر في الجاليري.. لم أكن أعلم عن حبيبة شيئًا سوى وجودها، ولا أعلم عن أصدقاء نور سوى منير، فقط فهمت منه أنه معتزلٌ الدنيا والناس منذ فترة، وأنه يرغب في الرحيل عن هنا لمجرَّد الرحيل.

أصرَّ نور أن أقابل حبيبة، ولم أكن بحاجة إلى إصراره في شيء، كنت أودُّ مقابلتها حقًّا، وأودُّ أن أعرف مع من يقضي وقته ويبوح بأسراره التي أعرف أنها كثيرة ولا أعلم عنها شيئًا.

في الأمريكين كان نور متأنقًا بشدة، وظهر واضحًا اعتناؤه بمظهره أمام حبيبة، سلَّم عليَّ في ابتسام ورحَّب بي ثم قدَّمني إلى حبيبة، كنا نجلس بالدور العلوي للكافيه جوار الزجاج المُطِل على الطريق، وكان الشارع مزدحمًا بشدة، وتصلنا أصوات أبواق السيارات المتصارعة على العبور رغم أن النوافذ جميعها كانت مغلقة، وكان وليد ينظر بفرح إلى السيارات وهو واقف على مقعده أمام الطاولة، وتنهره حبيبة دونما جدِ منها كل فترة عن ذلك.

كان وليد يشبه أمه كثيرًا، أخذ منها كل ملامحها باستثناء لون عينيها الأزرق بشدة كماء البحر، كانت عيناه رماديتين شديدتي الاتساع كسائر الأطفال في سِنِّه، كما أن بشرته كانت أقلَّ بياضًا من أمه تميل إلى بعض الحمرة في وجنتيه، إلا أن شعره تمسك بنفس اللون الذهبي كحبيبة تمامًا، طلب نور لنفسه قهوة بالطبع وكذلك فعلت وفكرت حبيبة قليلًا ثم طلبت لنفسها هي الأخرى قهوة مثلنا فمازحناها على ذلك، واحتارت ماذا تقدِّم لوليد فسألتها أن أطلب له أنا فلي خبرة بالمكان أكثر منهما فلم تعترض.

هاجم الصمت جلستنا سريعًا، ولم يسع نور أن يساعدنا على التعارف بفتح أي مجال للحوار، وعلمت من نظرات حبيبة الهاربة إلى وجهي وجسدي وملابسي أنها غارت سريعًا، وكنت أعلم سلفًا أنها ستفعل، خشيت أن أجرَّها إلى أي حوار فتقوم بإحراجي بسبب غيرتها هذه، وكان خوفي أيضًا من التسبُّب في إحراج نور، بادرتني هي بالسؤال عن عملي قائلة:

ـ سمعت أنكِ تُدرِّسين بالجامعة، هل هذا صحيح؟

حاولت أن أتبيَّن من نبرة صوتها ما يؤكد ظني من غيرتها ناحيتي، فلم يتضح لي شيء، رددت عليها قائلة:

ـ ليس بالشكل المفهوم، أعطي بعض الكورسات الخاصة بالفن التشكيلي إضافة إلى دروس جانبية للطلبة الراغبين في المزيد من التعلُّم عن الرسم بالزيت.

هزَّت رأسها في فهم ووجدتها جميلة.. جميلة جدًّا، وقلت لها بيني وبين نفسي «مم تغارين يا ساذجة؟ أنتِ أجمل مِنِّي بالكثير نضرةً وشبابًا».. نويت أن أسألها عن عملها جذبًا للحديث إلا أنها سبقتني سائلة:

ـ وهل تحبين عملك؟ أعني التدريس؟ هل تجدينه ممتعًا؟

ـ جدًّا.

وكنت صادقة في هذا، كنت أحب عملي وأحب الطلبة وأسئلتهم وسذاجتهم ومزاحهم، كنت أحب فيهم صخبهم وإزعاجهم لي طيلة الوقت، كان التدريس وزخم الطلبة هو الشيء الوحيد الذي يستطيع انتزاعي من التفكير في عبد الله إذا ضعفت أمام ذكراه.

صمتت حبيبة بعد إجابتي القصيرة عليها فسألتها بدوري:

ـ وأنتِ ماذا تعملين؟ قال لي نور إنك تحضِّرين لدراسة ما بالخارج.

لم ترد مباشرة، فكَّرَتْ قليلًا ثم قالت:

ـ أعمل في منظمة حقوقية مهتمة بشؤون الأطفال، تابعة للأمم المتحدة ومنظمات حقوق الإنسان، هو شيء غير مفهوم لا أستطيع شرحه لكِ بسهولة، لكني أعمل أساسًا مشرفة في ملجأ للأطفال في الإسكندرية، أتيت للقاهرة هذه الأيام لمتابعة التقدم لمنحة دراسية بأمريكا.

ـ أمريكا؟؟ أنتِ أيضًا تريدين السفر؟ أم أقول الهروب؟

وأشرت إلى نور الصامت جوارنا وهو يشاهد حديثنا كمن يتابع برنامجًا تلفزيونيًا دون أن يتدخَّل، بالطبع استفزَّه كلامي فقال لي معاتبًا:

ـ لن أحكي لكِ عن شيء بعد ذلك، ولا أريد هروبًا، أريد رحيلًا، هناك فارق كبير.

تدخَّلت حبيبة لتقول وهي مبتسمة:

ـ لا هروب ولا رحيل، إن شاء الله سيتم رفض طلبك، وسأسافر وحدي، وأنت ستنتظرني هنا على أحرَّ من الجمر.

قلت رغمًا عني:

ـ إن شاء الله.

أثار ردِّي العفوي غيرة حبيبة، فنظرت إليَّ بابتسامة غير مفهومة، وقالت وهي تنقل بصرها بيني وبين نور:

ـ ماذا كنتما تفعلان منذ أسبوع فجرًا في المطعم؟ أعني أن الدنيا لم تكن لتنفد حتى تخرجا سويًّا في منتصف الليل هكذا.

اعتدل نور في جلسته ونظر إلى حبيبة في لومٍ وهمَّ

بأن يردَّ، لكني سرقت الكلام من فوق لسانه وقلت لحبيبة مباشرة:

ـ هل ستغارين مِنِّي سريعًا هكذا يا حبيبة؟

قالت وهي تهزُّ كتفيها في اقتضاب:

ـ رُبَّما؟ هل هناك ما يمنع؟

بدأ نور في التوتر وقال لحبيبة في لوم شديد:

ـ ألم نتحدَّث في ذلك يا حبيبة؟ قلت لكِ إن زهرة صديقة.

فردَّت بسرعة قائلة كطفلة:

ـ لكنك لم تقل لي إنها كالقمر هكذا.

ثم ابتسمت رغمًا عنها، فضحكت من ردِّها بصوتٍ عالٍ وابتسم نور بشدة، أشرت إلى وليد أن يأتي إليَّ فنزل من فوق المقعد مسرعًا وهرول إليَّ، تناولته من يديه وأجلسته على قدمي ثم أشرت إلى حبيبة وإلى نفسي وأنا أسأله:

ـ أنا أحلى أم ماما يا وليد؟

ابتسمت حبيبة مرَّة أخرىٰ، ونظر إلينا نور بعينيه وكأنه يسأل نفسه ذات السؤال، وانتظرت حبيبة ردَّ ابنها وهي تتابع الابتسام، قلَّب وليد الصغير بصره بيننا كثيرًا، وأخذ يُحرِّك رأسه ويهزها في لهوٍ ويصدر أصواتًا غير مفهومة، ثم أشار في النهاية إلىٰ نور.

رفع نور يديه دلالة علىٰ الانتصار، وضحكت وحبيبة بصدقٍ وعمقٍ، وأخذت أقبِّل وليد في وجهه وقلت له:

ـ برافو، هذه هي الحقيقة فعلًا.

ثم أخذته مِنِّي حبيبة وقد أزيل حاجز ما بيننا، وشرعنا في شُرب قهوتنا التي قاربت أن تبرد باستثناء نور الذي كان قد أنهاها بالفعل، وتركنا نتحدَّث بشأنه وهو منهمك في الاستمتاع بها.

لاحظت أن حبيبة لم تسألني عن كوني أرملة وهي بالتأكيد تعلم ما دامت قد تحدثت ونور بشأني كما فهمت من عتاب نور لها، لكني استنتجت ببساطة أن نور رُبَّما يكون قد نهاها عن ذلك؛ خشية رد فعلي بعد ما رأىٰ مِنِّي في الجاليري عند سؤالي، لكن الفضول كان يأخذني ناحية حبيبة ووليد، وكنت أرغب بشدة

في معرفة ما خلفهما، قلت لها مستدرجة إياها للحديث عنهما:

ـ لماذا تركتِ أمريكا؟

شردت حبيبة ببصرها عَنّا بعيدًا، وكأنها تبحث عن إجابة للسؤال، وقالت في حزنٍ:

ـ قضيتُ أيامًا سيئة هناك، أسوأ ما عشت.

ـ هل هي بلد قاسٍ إلى هذه الدرجة؟

وأحسست أنها لا ترغب أن تحكي شيئًا عن حياتها هناك، ونويت ألا أتابع الفضول أكثر من ذلك، لكنها عقّبت بالرد:

ـ ليس البلد وحده القاسي، أيامي نفسها كانت جحيمًا، أحمد الله أني عدت هنا دون أن أقتل نفسي أو يصيبني الجنون.

ـ لماذا تعودين إذًا؟

ثم ندمت على الفضول الذي لم يوقفني عن السؤال، وأحسست أني أسأل فيما يخص حبيبة؛ لكونها فقط حبيبة نور ليس لشيء آخر، لمت نفسي على سؤالي الأخير، ونظرت

إلى نور الذي كان يتابع حبيبة وردودها عليَّ باهتمام كبير، قالت حبيبة:

ـ أعود للدراسة هذه المرَّة، وشيء آخر في نفسي يجب أن أنهيه حتى أبدأ حياتي في مصر دون همٍّ قديم، هو نوع من التطهُّر.

لم أفهم جوابها الأخير كاملًا، ونظرت إلى نور مرَّة أخرى وكان يربِّت على يد حبيبة في حبٍّ مطمئنًا إياها بلمسته تلك، أمسكت حبيبة وليد وأجلسته على يد المقعد جوارها، وأخذت تطعمه من الآيس كريم الذي طلبته له، قال نور موجهًا كلامه لي ولحبيبة وابتسامة ما تخرج من عينيه الطيبتين:

ـ والآن، هل أصبحنا أصدقاء أم سنعود إلى موضوع الغيرة هذا مرَّة أخرى بعد يومين؟

ثم نظر إلى حبيبة وكان السؤال موجهًا لها فقط، ولم تكن طريقته قد أصابت مداعبتها كما حاول، قالت دون أن تنظر إليه وإنما كانت ناظرة إلى فنجانها:

ـ أنا لا أغار من زُهرة، فقط أغار.

رددتُ عليها وقد وجدتني سأحبُّها بسرعة:

ـ لن أتركك تغارين مِنِّي في شيء، سنكون أختين وصديقتين، اتفقنا؟

تابعت حبيبة كمن لم تسمع قائلة لنور:

ـ هل تعلم؟ كان ياسر يخونني كل يوم، مع مصريات وأجنبيات، رُبَّما كان يخونني مع رجال أيضًا، لا أعرف، لكني لم أشعر بغيرة عليه قَط، فقط كنت أكرهه.

أوجعني كلام حبيبة بشدة، وكانت نظرات نور الحزينة تلتقط كلامها ويتحرَّك فيها الألم ناحيتها، لكنه قال معاتبًا وهو يضع يده على رأس وليد:

ـ لا تتحدثي عن والده هكذا أمامه.

ردَّت حبيبة بغضب:

ـ وكأنه يسأل عنه أو يهتم!

تابع نور:

ـ وهل يسعدكِ أن يسأل؟

ـ لا يسعدني سوى ألا أسمع عنه أو أراه ثانيةً.

ردَّ نور بلهجة من ينهي الحديث في خطب ما:

ـ إذًا لا تتحدثي عنه ثانية، لا أمام وليد ولا من وراء ظهره، هذه أيام مضت وانتهت.

نظرت حبيبة إلى الشارع جوارها عبر زجاج الكافيه وقالت متمتِمة لنفسها: «لا شيء ينتهي بسهولة»..

آلمني كلام حبيبة عن زوجها هذا كثيرًا، تذكَّرت عبد الله الذي لم يكن يغيب عن ذهني لحظة، وأخذني التفكير فيه إلى يوم رحيله، حيث انقلب الفرح مأتمًا بعد الفجر بساعات قليلة، حتى مصابيح الإضاءة الخاصة بالعُرس لم يتمَّ تغييرها، علا صراخ والدته بعد تلقِّيها خبر موته عقب صلاة الفجر، ولم ينقطع طوال اليوم رغم نَهْر أبو عبد الله لها أكثر من مرَّة، وتوالى قدوم النسوة في البلدة طيلة اليوم؛ لمشاركتها الحزن والصراخ.

أما أنا فلم أدرِ يومها ما الذي حلَّ بي من صمت، سمعت الخبر من أبي بعد الصلاة مباشرة، ولم أصدق رغم أنني صحوت كالجميع على صوت الرصاصة، احتضنتني أمي وأخذت تبكي وتضمني بشدة وأنا لا أفهم شيئًا مما تقول، صرخت أم عبد الله في وجهي

أكثر من مرَّة وجذبتني أخت عبد الله الصغرىٰ من رأسي وألقتني أرضًا بين النسوة اللاتي أتين إلىٰ المنزل وخلَّصني أمي وأبي من بين أيديهنَّ ولم أفهم ما الذي يحدث، أتاني أبو عبد الله يسألني أن أنزل معهم لمقابلة ضابط الشرطة لكي يأخذ أقوالي فتبعته وأبي معي في صمتٍ ولم أنطق بكلمة، ثم أخذني أبي إلىٰ غرفته - ووالدتي بعد ذلك وأخبرني أننا لابد وأن نبقىٰ أيامًا ثلاثة حتىٰ ينتهي العزاء ثم نرحل فلم أرد.

حين حلَّ موعد العزاء نطقت، صرخت في أبي عندما منعني أن أنزل وسط النسوة حتىٰ أجلس معهنَّ في العزاء، صرخت فيهم أنني سألقي بنفسي من الشرفة لو لم يتركوني أحضر العزاء، توسَّلت إلىٰ والد عبد الله أن يدعهم يتركوني أحضر العزاء فضمن لهم حمايتي وشدَّد عليهم ألا يكلمني من النسوة في العزاء أحد، كنت أجلس متَّشحة بالثوب الأسود الذي أجبروني علىٰ ارتدائه وكانت النسوة تنظرن إليَّ جميعهن في كُرهٍ وشرٍّ بائنين، وكنت أزوم وأصدر أصواتًا كالهررة، وكلما رأيت وجه عبد الله أمامي وهو يلوِّح بالمنديل لأهل البلد من النافذة وجدتني وقد قتلته بيدي، وكلما

سمعت بكاءه في أذني وهو ممدد جواري في الفراش منذ ليلة واحدة أيقنت أنه كان يعلم بالتأكيد ما سيفعلونه به، لكنه لم يقل لي شيئًا، ولم يكن بيده شيء، أخذت أسأل نفسي هل سيأتي الدور على أهلي وعليَّ الليلة أم غدًا، تمنَّيت بشدة أن يقوم قاتله بإرسالي إليه الآن، ولم أخشَ على والدي شيئًا، سيرحمني ويرحمهم من يفعل بنا ذلك دون أن يعلم، جريت إلى والد عبد الله وأمسكت بثوبه وأنا أصرخ وأتوسَّل إليه أن يخبرني بمن فعل بعبد الله ذلك كي يقتلني أيضًا أو أقتله، أقسم لي برحمة عبد الله أنه لا يعلم، اتَّهمته وسط العزاء أنه هو من فعل به ذلك، فأطرق حزينًا وقال لي:

ـ وهل أقتل ولدي يا ابنتي؟!

ولم يستطع أن يمنع نفسه عن البكاء وسط الرجال، وأخذت أنا أصرخ فيهم وأمي وأم عبد الله تجرانني من وسطهم وأنا أردد:

ـ من قتله منكم يا خونة؟ يا خونة ماذا فعلَ لكم؟

وسقطت مغشيًا عليَّ ولم أفق إلا لمامًا ليومين متتاليين، وكنت أهرب إلى النوم وأدعو على نفسي بالموت كل

دقيقة حتى رحلنا من البلدة في اليوم الثالث وقد مُتُّ فيها ولم أبعث من جديد.

تردَّد الأطباء على منزلنا طيلة الشهرين التاليين للوفاة، ولم يعرف أحد ما حلَّ بي، وكنت الوحيدة التي تعرف علَّتها ودواءها، وكانت علَّتي ذنبي الذي اقترفتُ دون قصد، وكان دوائي عبد الله حيث الموت، فشلت في مواصلة التفكير في الانتحار مخافة ربي وغضبه عليَّ، لكن مرآى عبد الله المكسور أمامي مذلَّة من طلبه وغضبي عليه ولطمي له لم يفارقاني منذ رحيله.

أتانا أبو عبد الله بعد شهرين ليسلِّمني إرثًا كبيرًا ليس لي، ومالًا كثيرًا لم أبتغِه، فوَّضت كل شيء إلى والديَّ ولم أجلس معهما وقد ألمني مرآه، فرقدت ثانية ملازمةً غرفتي، ولم أستردَّ عافيتي إلا بعد أن مرَّ ما يقارب العام بعد رحيل عبد الله.

كانت والدتي قد انتظرت أن يحدث الحمل في الأشهر الأولى للوفاة، ولم أخبر أحدًا أن عبد الله لم يلمسني ليلة الزفاف، وغضبت من رغبة أمي الضالَّة هذه في أن يكون ميراثي من عبد الله أكبر بوجود طفل لديَّ منه، رغم أنه لم يكن بالقليل وأنا فقط زوجته، أحسست

أنه لا أحد يشعر بي بعد هذه الأيام، أو أنني أنا التي لم أعد أشعر في الدنيا بأحد، تملَّكتني رغبة ملحَّة في أن أذهب إلى شقتنا بالقاهرة التي كنا قد أعددتها مع عبد الله للعيش فيها بعد رجوعنا من بلدته، وعندما دخلتها علمت أنني لن أخرج منها أبدًا، خُضْت أيامًا وأيامًا من الشجار والنزاع مع أبي وأمي كي يتركاني وشأني في شقة زوجي رحمه الله؛ عساي أجد روحي وما انتزعته تلك اليد الخائنة مِنِّي يوم فرحي. كان خوف أمي عليَّ من الاستقلال بحياتي كبيرًا، كما أن خوفها الأكبر والذي كنت أفهمه هو أن أكون قد ألغيت فكرة الزواج من رأسي نهائيًا، وكنت قد فعلت منذ عدت إلى القاهرة بعد الوفاة، لكني أخبرتها وأقسمت أمامها كذبًا أن هذا لم يحدث، وأخذت أقابل الخطَّاب بعد ذلك حتى أؤكد لها ولأبي أنني لا أفكر في ذلك على الإطلاق، وكنت أعرف أن أبي يعلم ما يدور داخلي، وكنت أعرف أيضًا أنه يتفهَّمني.

بعد أن باءت محاولات أمي بالفشل في إبقائي معها بالبيت، استسلما لرغبتي، وبعد أن كنت أتسلَّل إلى شقتي أسبوعًا بعد أسبوع ثم أخبرهم بالهاتف أنني

سأقضي اليوم بها دون استعداد للدخول في مناقشات أو نزاع بشأن ذلك فوَّضا أمرهما إلى الله بعد مئات المحاذير والتوصيات الخاصة بالمعيشة وحدي، وكانا يأتيانني يومًا بعد يوم دون موعد للاطمئنان عليَّ أو مغافلتي فيما أكون قد أفعل دون علمهما، ولم يكن يضايقني شيء، عاد إليَّ جزءٌ كبير من روحي بعد أن أصبحت أقضي الليالي في شقتي وحيدة مع عبد الله في خيالي، وأستحضره متى شئت دون تدخُّل من أحدٍ في البيت بطلب أو سؤال، علَّقت صورًا له فوق كل جدار ونقشت فوقها أبياتًا من الشعر وآيات من القرآن تتحدَّث عن المغفرة والرحمة.

بعد سنوات طويلة كنت قد تعايشت مع حزني وعاشرته، بل وأحببته كثيرًا، أصبحت أرى الجمال الإلهي في كل شيء حولي دون أن يعلم عنه أحد، علمت أن الفرح جمال والحزن جمال، وكل شيء خلقه الله كان جمالًا فوقه جمال، أصبُحت أزور قبر عبد الله وقت أن أحب ودونما خوف كما كنت أخشى على نفسي في البداية، كنت أرقد جواره أحدثه وأناجيه وأحكي له كل شيء حدث لي منذ رحيله، مرَّة تلو المرَّة، بل وأعاتبه أحيانًا كثيرة على

أشياء صغيرة حدثت بيننا في شقتنا وأسمع أعذاره التي لا يسمعها غيري، فأقبل منها ما أقبل وأرفض منها ما أرفض، ثم أسامحه بعد العتاب.

صرت مجذوبة أمام الكثير من أهل البلدة، وصار يشفق لحالي الكثير منهم أيضًا، لكن أبا عبد الله كان يرحِّب بي كل مرَّة أزور عبد الله فيها، ويرسل معي رجلين يظلان معي منذ نزولي من عربة القطار وحتى عودتي إليه، ولا يتركانني إلا عند مدخل المقابر، أو عند مرسى القارب الكبير الذي تنزَّهت فيه مع عبد الله.

في البداية كنت آخذه مع الغلام الصغير الذي كان يكبر مع الأيام إلى أن صار شابًا، لكنه كان يعرفني جيِّدًا، وكان يسعد بمرآي كثيرًا، كما كنت أترك له كل مرَّة الكثير من المال، حتى علَّمني كيفية التحرُّك وحدي بالقارب والتحكُّم بمهارة في توجيهه بالشراع.

كنت أخلو بنفسي بالقارب وما من أحدٍ معي سوى عبد الله، أطوف بالقارب في النيل، أزور الشواطئ والجزر الصغيرة الخضراء وأرسو به أحيانًا على أطراف حقول القصب أو الذرة حتى صرت أحفظ مواسم الزراعة

ومواعيدها، وصار الفلاحون في الحقول حولي يعرفونني، ومع الوقت باتوا يُرحِّبون بقدومي وكنت ألقي عليهم السلام تمامًا كما كان يفعل معهم عبد الله، وكان بعضهم يرسل إليَّ هدايا بسيطة من محاصيل الزراعة كالذرة المشوية وغيرها، فكنت أقبلها في شكرٍ وامتنان، وعندما توحَّدت مع حزني تمامًا، وصرت أنا وحزني وعبد الله روحًا واحدة، وبدأ يغزوني شعورٌ مريح بإحساس الوصول إلى طبيعة مكنون الحياة وبعض من أسرار الكون التي سأل عنها الكثير، وجدتني وقد أوتيت بعض الحكمة من بعد الضعف والوجع الطويلين الملازمين لي منذ ما حدث، وعلمت أن لكل شيء حكمة في هذه الدنيا، ولم يحدث شيء في الحياة مصادفة مهما كان صغيرًا أو مهما بدا عظيمًا، ورغم أنني قرأت هذا مرارًا ضمن ما قرأت، إلا أن مرارة التجربة كانت ثمنًا زهيدًا مقارنةً بما بتُّ أشعر به داخلي من تصالح ورضًا،

أصبحت أجد نورًا خافتًا مريحًا جدًّا في جبهتي كلما نظرت بعيني إلى وجهي في المرآة، ووجدت روحي باتت خفيفة كريش الطائر الذهبي الذي أحلُم به كل ليلة وأصحو منه على بكائي المكتوم أو على صوت الأذان.

شرعت أفتِّش في حياتي عمَّا أكون قد أتيت للدنيا من أجله، فأقبلت على التدريس عساني أجد فيه ضالَّتي وملاذي، وكنت قد تجاوزت الثلاثين بالقليل.

كانت مقاومة التودُّد ممن هم حولي من الرجال هي ما يعكر صفو اليوم لديَّ من وقتٍ لآخر، كان تودُّدهم لزجًا ماسخ الطعم، ليس فيه من روحٍ مهما تلبَّس من رقي أو وقار، وكانت أعينهم تفضحهم سريعًا فأعلم مبتغى هذا من ذاك، أعلم بمجرَّد النظر إلى أحدهم من يطلب فراشًا لليلة عابرة، ومن يطلب فراشًا لليالٍ عدة قبل أن يرحل، من يَعرض المال ومن يبتغيه، من يدَّعي الصداقة منتويًا طرق باب القلب بعدها، ومن يعرضها صادقًا دون أن يعلم أنه سيطرق القلب بعدها بقليل، لكنهم اجتمعوا كلهم على غاية التملُّك، وما كنت أملك روحي لأمنحها لأحد بعد عبد الله، وبعد أن حرمتني يدٌ خائنة من منحه جسدي.

مع الأيام صارت لي المهارة الخاصة في تلاشي هؤلاء وهؤلاء، كان الأمر شاقًا مملًا في البداية، ثم أصبح عاديًا وسهلًا، إلى أن صار موهبة أتقنها وأتفنَّن في أدائها.

في الحسين، كانت المآذن مرتدية المصابيح الملونة ابتهاجًا ككل مساء منذ تعوَّدت أن آتي هنا، كان بهذا الحي ما يأسرني كلما وطأت قدماي أرضه، أجلس على الفيشاوي أشرب الشاي بالنعناع وأثرثر مع الغرباء ومع الأجانب في أي شيء، أشتري الحليَّ والمسابح والأيقونات الفرعونية لنفسي وللأصدقاء القليلين الذين أعرفهم، أتمشى في شارع المُعِزِّ وأقضي الأمسيات في بيت السحيمي بعد أن صارت لي مجموعة من الغرباء الذين جذبهم في المكان ما جذبني.

كنت أتمايل بخفة وهدوء مع راقصي التنورة تحت القبة الكبيرة وصوت المديح خلف الربابات يعلو تدريجيًّا كلما علا صوت الدفوف، وكان المنشد يلبِّي وجده بالشدو بروحه قبل صوته ليأسر قلوبنا وأرواحنا كلما قال كلمة «الله» ثم ردَّدها وراءه الكورال والدفوف، ثم يتابع المنشد بصوتٍ أكثر شجنًا: «ما لنا مولى سواه».. وكان بعض المنشدين على الجانبين يردِّدون بخفوت وهم محمومون: «مولانا.. مولانا»، ويهزون رؤوسهم وكأنهم يؤكدون لأنفسهم المعنى، وعندما بدأ الإنشاد في الخفوت تدريجيًّا كان الواقف جواري يهزُّ رأسه وهو

يصفق وحيدًا بيديه مرددًا مثلهم: «مولانا.. مولانا»، ويبكي كطفلٍ، سألته وقد بدأ الكورال في إنهاء مواله الصوفي:

ـ أتفهم ما يقولون؟

فردَّ دون أن ينظر إلى من تُحدِّثه وكله وَجْد:

ـ أشعر به.

وكان المنشد يختم غناءه دون أية خلفية مصاحبة له من الموسيقى أو المرددين منوحًا بألم:

«كلما ناديت يا هو»

«قال يا عبدي.. أنا الله»

* * *



(٨)

حبيبة

لم يكن وداعي لوليد الصغير سهلًا، تعلَّقت به في الفترة القصيرة التي قضيتها معه، كان هشًّا وضعيفًا وليس له من أحد سوى الله، وكنت أقضي الساعات معه لا أشعر بمرورها، وأردِّد أمامه كلمة «ماما» كل دقيقة حتى ينطقها أمامي، أنظر في عينيه منذ قبلت السفارة المنحة وعلمت بموعد سفري، وكنت أخشى من الأشهر القليلة التي سأمضيها بأمريكا أن تنسيه وجهي، ومرَّنت وليد ابني أن يعامله كأخيه، وأخبرته مرارًا رغم صغر سنه أن الأخوة ليست من الآباء فقط،

وكنت أعلم أنَّ وليدًا سيُشبهني في كل شيء، وحمدت الله أنه لم يأخذ من أبيه شيئًا، نويت أن أدعه يأخذ مِنِّي ومن الدنيا، وتمنَّيت في سري أن يأخذ من نور طيبته وحنانه لو بقينا معًا.

ودَّعت وليد داخل المبنى حتى لا يرى دموعي أحد، فهو شيء لم أعتد فعله أبدًا، ولم يكن من أحد جواري طيلة عمري كي يرى لي دموعًا، رُبَّما لهذا أجد الأمر صعبًا عليَّ أن أفعله أمام أحد، وأمام نور تحديدًا، وكانت المرَّة الوحيدة التي تركت فيها السبيل لعيني أن تبوحا أمامه كنت مختبئة بين ذراعيه في غرفته بـ«كليمنت هاوس».. فلم أرَ أثرها على وجهه وإن كنت أحسست بها في ضمَّاته القوية.

عُدت إلى نور وزُهرة بعد إنهاء إجراءات الرحيل من الملجأ، وبعد أن أوصيتهم على وليد كثيرًا، وتركت لهم مالًا يكفي ويزيد حتى لا أقلق عليه في سفري، وكانت حاجتي الدائمة للمال وأنا صغيرة لم تترك ذهني أبدًا.

سألتهما أن نبدأ التحرك إلى الفندق حتى أنتهي من إعداد الحقائب سريعًا، وحتى لا نترك منير منتظرًا إن

كان قد وصل إلى الفندق قبلنا، أوقف لنا نور سيارة أجرة وذهبنا إلى ميدان سعد زغلول بمحطة الرمل، وكانت مكان تمشيتنا المفضلة أنا ونور، كنا نقضي فيها الليالي على البحر، أحكي له عن أبي وعن ياسر وعن أمي وعن أيام الجامعة، كنت أحكي له عن كل شيء، وكنت فرحة بأن هناك أحدًا أخيرًا يمكنني أن أحكي أمامه وأبوح بما سكنني كل هذه السنوات، ولم أكن أبكي أو أشعر بالحزن وأنا أحكي له، أما هو فلم يكن يتحدَّث عن نفسه وحياته إلا قليلًا، يحكي أحيانًا عن المزرعة، وعن قلقه على نوران، وعن الزهور التي كان يُهديها لها، أما عندما كان يأتي حديثه عن أمه، فكان لا شيء يوقفه، يظلُّ يحكي ويشرد بعينيه بعيدًا إلى أيام المزرعة ودعاء أمه المستمر له ولنوران، وأحيانًا كانت تهرب من بين كلماته حكايات قليلة عن قسوة أبيه وسوء معاملته لوالدته، ورغم فضولي لم أكن أضغط عليه في الحكي عمَّا أعرف أنه يخفيه، ولم أسأله عن تركه عمله بالطب منذ ما يقارب العام إلا مرَّة وحيدة رفض فيها الكلام عنه، ولم يكن يهمني في شيء، ليكن ما يكون يا نور، ولتكن أنت من تكون، عرفت روحك

دون أن تحكي لي عنها وقرأت في عينيك ما عشته في حياتي، وقد أهدتني إياك الأيام مصالحة لي عمّا فعلته بي طيلة عمري، فقبلت الصلح عن طيب خاطر، فقط تبقى لدي أمر والدي، أنهيه وأبدأ معك من جديد، بل ونبدأ معًا من جديد، ولسوف يهديني الله إلى إزالة ما بك من هم ووجع، إن هي إلا أشهر قليلة فقط وأعود إليك، ليقضي الله أمرنا معًا.

دخلنا «كليمنت هاوس» من الباب الخلفي المُطِل على البحر الذي كنا نخرج منه صباحًا أنا ونور لنتشاجر قليلًا عن المقهى الذي سنجلس عليه لنتناول الفطور ونشرب القهوة، كنت أحبُّ عمر الخيام أكثر من أي مقهى آخر، بينما كان نور يميل إلى المقاهي المختبئة في ألسنة العمارات القديمة المصطفَّة بطول الكورنيش، لكنه غالبا ما كان يتركني أختار لنا ما أشاء؛ حتى لا أعاتبه بعدها على عدد فناجين القهوة المبالغ فيها التي سيشربها قبل أن يجيء موعد عملنا، لأذهب أنا إلى الملجأ ويذهب هو إلى شركته التي لم يكن يحبها.

في صالون الفندق بحثنا عن منير، فلم يكن قد أتى بعد، سبتّه زُهرة في صوتٍ خافت أمامنا ولم يعلّق

نور، هاتفه مرَّة أخرىٰ فلم يردَّ عليه، وسألتني زهرة أن تساعدني في تجهيز الحقائب، فشكرتها متعللة بأنه ليس من شيء كثير لأفعل إلا أنها أصرَّت وسبقتني إلىٰ الغرفة دون أن تترك لي مجالًا للاعتراض.

لم يكتفِ نور بأن منحني حُبًّا لم أكن أعرف عنه قبل ذلك شيئًا، ودفئًا وأمانًا لم أكن أعلم بوجودهما، وإنما منحني أختًا قلَّما أُتيحَ لأحد أن يجدها، وكان نور صادقًا عندما قال لي إنها طيبة وإنها جميلة، وفهمت ما كان يقصده بجمالها عندما قابلتها للمرَّة الثانية في شقتها التي تعيش فيها وحدها.

كنت لم أتخلَّص من غضبي منها ومن نور بعدُ، رغم عِلمي بعد مقابلتي لها في الأمريكين بأنها لا تنظر إلىٰ نور نظرة تجعلني أغار منها أو من جمالها غيرة الأنثىٰ من الأنثىٰ، لكن رغمًا عَنِّي كنت أرغب بنور لي وحدي، ولم أكن أقبل أن تشاركني في جزء منه صديقة بجمال زهرة، وقد ظهرت غيرتي واضحة في لقائنا الأول أمامها وأمام نور، رغم إحساسي بشيء ما داخلي يعاتبني علىٰ غيرتي منها.

هاتفتني زهرة بعد يومين من لقائنا وسألتني أن تدعوني إلى الغداء، تردَّدت في الرفض أو القبول، ثم قلت لنفسي إنه لم يُعرض عليَّ مثل هذا العرض البسيط من قبل إحداهنَّ، وكان عرضها بالصداقة مباشرًا وليس فيه من تكلُّف أو مصلحة مختبئة كما اعتدت من صديقاتي اللاتي ذهبن جميعهن، قبلت عرضها وسألتها أن نتناول الغداء في مطعمي المفضل المجاور لشقتي التي استأجرتها بالدقي فقالت إنها تريدني أن أتذوَّق طعامًا أعدَّته هي، تعلَّلت بوليد وأنني لا أستطيع أن أتركه وحده أو آخذه معي لبيتها حتى لا أضايقها، فاعترضت بشدة وقالت إنها تعزمنا نحن الاثنين عندها ولا سبيل لديَّ للرفض، وكانت تتودَّد إليَّ في المكالمة بصيغة من لن يقبل رفضًا، فقبلت، وكنت أثق في كلام نور عنها، وأن أُنحِّي غيرتي جانبًا بعض الشيء.

عندما دخلت شقتها وجدت أنها متحف وليست مجرَّد شقة تعيش فيها سيدة وحيدة، كان تناسُق ألوانها رائعًا إلى درجة أذهلتني وأنا من عشت بأمريكا لبضع سنوات، ورأيت من المنازل والديكورات ما لم أظنَّ أنني سأرى له مثيلًا، إلا أن جمال الروح يفوق أي جمال

آخر في كل شيء، وكانت شقتها جميلة مثلها، كانت الجدران بارزة في بعض الأماكن منقوش عليها أبيات الشعر وآيات القرآن في تداخل مثير وبألوان تطلق راحة في النفس لا يعرفها إلا من يذوقها، وكانت اللوحات الكبيرة الممتدة بعرض الجدران والمرسوم عليها حقول كبيرة ملقاة على ضفاف النيل والطيور التي تحلِّق في كل ركن من الجدران تعكس اتساعًا بالغًا في اللوحات المرسومة بدقَّة مبالغة، وفي الممرات الداخلية كان النقش الصوفي ولوحات راقصي التنورة والصور الفوتوغرافية العديدة للمنشدين تملأ الجدار عن آخره، فلا يتبقَّى مكان لتعرف أن هذا جدار منزل وليس جدار معرض للفن الصوفي،

سألت زُهرة بفضول:

ـ هل أنتِ متصوِّفة أو شيء كهذا؟

فردَّت بابتسامتها الجميلة:

ـ شيء كهذا.

ثم تابعت مفسِّرة:

ـ فيه شيء من الصفاء لا يعرفه إلا من يفهمه،

ولا يفهمه إلا من يعاني، وقد عانيت كثيرًا يا حبيبة.

ثم تنهَّدت، سألتها وقد بدأ فضولي يزيد:

ـ وفيم عانيتِ؟

ثم فطنت إلى تحذير نور المكرَّر لي بعدم التطرُّق إلى موضوع زوجها بأي صورة، فتابعت سؤالي قاصدة التعتيم عليه:

ـ أعني، هل لابد للإنسان أن يعاني كي يتذوَّق الصوفية؟

ردَّت وهي تنظر إلى لوحة كبيرة لقارب صغير في النيل يقف عليه طائر وحيد:

ـ لابد أن يعاني حتى يتذوَّق أي جمال.

ثم صمتت قليلًا وهي تحدِّق النظر في اللوحة وأكملت بعدها:

ـ لكن دعكِ من الحديث عَنِّي، لن أتركك تضحكين عليَّ لتتحدث عن نفسي، أريد أن أعرف عنك الكثير، خاصة ما يتعلَّق بسبب سفرك الحقيقي إلى أمريكا.

رددت عليها مباشرة:

ـ قلت لكِ في المرّة السابقة، هناك منحة أبغي الحصول عليها.

ثم تنبهت إلى أن وليد يعبث بشيء ما فوق منضدة رفيعة وطويلة في ركن ما بالغرفة، فجريت إليه خشية أن يُسقط شيئًا ما من فوقها، وقلت لزُهرة:

ـ ألم أقل لكِ؟

وكان وليد يجذب شيئًا ما كسجادة أو مفرشًا ما من فوقها فأخذته منه واعتذرت لزُهرة فأخذتها مِنّي وفردتها أمامها ثم أعادت ترتيبها فوق المنضدة ليبرز ما كتب عليها من أحرف منقوشة كبيرة، قالت زهرة وهي تعيدها مكانها ثانية:

ـ وليد ذوقه عالٍ، هذه الأبيات رائعة، هي أروع ما كتب الخيام.

رددت عليها فورًا وقد أخذني الاسم:

ـ عمر الخيام.

ـ نعم، أتعرفينه؟

ـ عمر الخيام! هذا مقهايَ المفضّل على البحر في الإسكندرية.

ضَحكت زهرة بمرح، وخجلت أنا من جهلي فقلت لها متابعة:

ـ أقصد أن هناك مقهى باسمه أحبُّ أن أجلس عليه أنا ونور كثيرًا.

قالت زهرة وهي تشير إلى الأبيات طوبية اللون:

ـ عمر الخيام شاعر فارسي مشهور جدًّا.

فقلت وقد تذكرت شيئًا:

ـ نعم نعم، تذكَّرت، رباعيات الخيام.

فتابعت زهرة:

ـ بالضبط.. رباعيات الخيام.

ثم مررت أصابعها فوق الكلام المنقوش وقالت مكملة:

ـ كان شاعرًا عبقريًا، حرمته الأيام من حبيبته ياسمين، ثم أعادتها إليه بعد سنوات من الفرقة، إلا أنها قضت نحبها بعدها بقليل فلم ينعما بالعيش سويًّا، حتى إنهم يقولون إنه قام بدفنها في منتصف رحلة عودتهما من بلاد الشام إلى «نيسابور»، هناك نادٍ كبير مشهور باسمه في

أوروبا خاص بمعجبيه ومحبيه، ترجمت رباعياته هذ إلى عشرات اللغات.

قلت لها بعد أن وجدتها متأثرة بما تحكي:

ـ أنتِ مهتمة بالشعر إذًا؟

ـ لا ليس إلى هذه الدرجة، هذه أخذتها من عند منير منذ أيام، أو قولي غافلته وسرقتها ثم أخبرته بجريمتي.

وكانت تشير إلى الأبيات وتبتسم بفخرٍ، فقلت لها عندما أتى ذِكر منير أمامي:

ـ نور يحب منير جدًّا، رغم أن كلامه عنه يقول بأنه لا يشبه شخصه على الإطلاق، ألا ترين ذلك؟

ـ لا أحد يشبه أحدًا يا حبيبة، إنما تتشابه الأرواح أو تتنافر.

قرأت الأبيات بصوت عالٍ أمامها وأعجبتني كثيرًا رغم ما كان يشوبها من يأسٍ، حملت زُهرة وليد بين يديها وأخذت تلاعبه وتدلـلّه بمرح وكان سعيدًا بذلك جدًّا، تمنَّيت لو أستطيع أن أسألها لماذا لم تتزوَّج مرَّة ثانية لكني لم أجرؤ على السؤال، قلت لها بعد أن جلسنا:

ـ أنا متأكدة من أن نور لا يعرف سوى الطيبين، وأعلم أن منير أحد هؤلاء الطيبين، بل متأكدة من ذلك، لكني فقط أقول إنهما مختلفان في طباعهما كثيرًا إلى الحد الذي يجعلهما صديقين مقربين هكذا، هو تقريبًا صديق نور الوحيد، ولم يتحدَّث عن أحدٍ غيره منذ عرفته، رُبَّما لم يتحدَّث عن أحد آخر بعد نوران أخته بمحبة هكذا سواكِ، ألن تقولي لي ما الذي حدث بينكما في الجاليري؟

قالت زُهرة وهي تغمز في ابتسامة طيبة:

ـ هل ستظلين تغارين على نور مِنِّي كثيرًا يا حبيبة؟ صدقيني سيظَلُّ نور صديقًا لي وسأظَلُّ صديقته مهما بدا لكِ غير ذلك، كما أنه يحبك بصدق، رأيت هذا في عينيه، لكن لا تتركيه يسافر كما يزعم، أخشى عليه أن يجد في الغربة راحة كاذبة فيتعلَّق بها.

ـ لن يحدث بإذن الله، وإن سافرنا سويًّا لن أتركه لحظة، وسأعود به رغمًا عنه، لن أترك شيئًا يأخذه مِنِّي بعد أن وهبني القدر محبته.

ـ أرجو هذا، لكن قولي لي بصدق هذه المرَّة ولا

تدعيني ألحُّ عليك في معرفة سبب سفرك الحقيقي، أهو أمر ما يخص زوجك؟

ـ بل أبي.

ثم صمتت، وبعدت ناظري عنها حتى لا تستطرد في السؤال، فلم تفعل احترامًا لصمتي، بعد صمت قصير وجدتني أريد أن أحكي لها، لا أعلم لماذا، ولا أعلم هل أريد أن أحكي لمجرَّد الفضفضة أم أنني سأزيح عن كاهلي عبئًا ما؟ أم أنني وثقت بها دون أن أعرفها بشكل كافٍ بسرعة هكذا؟ تذكَّرت عندما حكيت لنور، وكم أراحني هذا رغم قسوة ما كنت أقول.

مدَّد وليد جسده على أريكة صغيرة جواري وراح في نوم سريع، فقامت زُهرة وجلبت شالًا ورديًّا جميلًا من غرفة ما داخل الشقة ثم عادت وغطَّت به جسد وليد النائم فوق الأريكة، وجلست جواري ثانية وقالت:

ـ هل أعدُّ لنا الطعام الآن أم تحبين أن نشرب شيئًا أولًا.

قلت لها وأنا أنظر إلى عينيها وكأنني أتوسلها السؤال:

ـ هل تحبِّين والدكِ؟

لم يُدهشها سؤالي الخارج عن السياق تمامًا، إنما ردَّت زُهرة عليَّ ببساطة شديدة:

ـ نعم.

ثم سألتني متابعة:

ـ وهل تحبينه أنتِ؟

أوجعني السؤال الذي أسأله لنفسي كثيرًا، هل أحبُّ والدي؟ أعلم أني كنت أحبه وأنا صغيرة، كنت أحبه بشدة، رُبَّما كان الإنسان الوحيد الذي أحببت حينها رغم سفره الكثير وغيابه الطويل، لكن هل أحبه الآن؟ لا أعلم، حقيقة لا أعلم، قلتها لزُهرة وأنا أفكر في السؤال في رأسي مرارًا ومرارًا، ولم أستطِع أن أجيب فسألتني زُهرة متابعة:

ـ وهل أحببت زوجكِ إذًا؟

قلت لها بلهجة قاطعة:

ـ لا، أبدًا، بل كرهته دائمًا.

فقالت:

ـ إذن تحبين والدك، أنتِ فقط غاضبة منه، غاضبة

بشدة، لكنك لم تكرهيه، لا أحد يتردَّد إلا في اعترافه بحب أحد، هل عشتِ مع زوجك كثيرًا؟

ـ أكثر مما ينبغي.

ـ وهل ستعودين إلى أمريكا لافتقادكِ والدك.

ـ بل لأعتذر.

أتاني والدي بعد مرور أشهر عدة من عودتي إلى الإسكندرية، وقبل أن أبيع شقتي بها وأستقرَّ بين الملجأ وفندق «كليمنت هاوس» حتى أجد شقة تناسبني ووليد قبل أن يطرأ عليَّ ثانية أمر العودة لأمريكا. رنَّ جرس الباب فسألت عن الطارق بصوتٍ خائف، لا أحد يزورني أو يأتيني، فإذ بي أجد صوته مناديًا خلف الباب، فتحت له فاحتضنني بين ذراعيه بقوة فلم أتحرَّك، ثم دخل دون أن أدعوه إلى ذلك، وضع معطفه وحقيبته الصغيرة اللذين كان يحملهما بين يديه ثم ألقى بجسده فوق مقعده القديم الذي كان يلاعبني عليه وأنا طفلة، قال لي بعد أن وجدني واقفة أمامه لا أنطق بشيء:

ـ ما لكِ واقفة هكذا؟ وأين وليد؟ لقد افتقدته كثيرًا.

قلت له بتحفُّز:

ـ ما الذي أتىٰ بك؟

فلم يردَّ، صدمه كلامي وتعجَّبت من ذلك، أثارت رؤيتي له مشاعر شديدة السوء، وأعادتني إلىٰ ذكريات أصارع نفسي كل يوم كي ألقي بها خلف ظهري، وأحاول التعايش مع حبيبة الجديدة، ليس رغبة في الحياة وإنما قلق علىٰ وليد، فليس له من أحد في الدنيا غيري، أعاد والدي السؤال عن وليد مرَّة أخرىٰ، فرددت:

ـ لا تقلق عليه، لست مثلك وأمي، لن ألقي به إلىٰ الحياة وهو صغير هكذا أو حتىٰ وهو كبير.

أثار رَدِّي حرجًا لديه فصمَت مفكِّرًا ثم قال بخنوع:

ـ عندكِ حق يا حبيبة، عندك حق في كل شيء تقولينه لي أو حتىٰ لا تقولينه، لكنك لا تعرفين كل شيء، ولا تعلمين كم كنت أتألم لأجلك.

قلت مقاطعة:

ـ تتألم؟ لم يتألم أحد من أجلي قَط، لا تدَّعِ كذبًا.

ـ بل دائمًا ما كنت أتألم، وما زلت.

ـ كذب.

ـ سامحكِ الله.

ـ بل سامحك الله أنت، أو لعلَّه لا يسامحك أبدًا، ماذا تريد؟ لماذا أتيت؟ لا أريد أن أراك، قلت لك هذا من قبل، وأقوله لك الآن.

أحزنته حدَّتي ولهجتي القاسية الغارقة في الغضب واللوم بشدة، فأطرق ساكتًا لا ينطق بشيء، تركته وذهبت إلى غرفتي وأغلقت بابي عليَّ بالمفتاح وجلست على فراشي أشتعل غضبًا وحنقًا، عادت صورة ياسر عاري الجسد تظهر أمامي من رؤيتي لأبي تلك اللحظة، وتذكَّرته وهو يجرني من يدي كالنعجة يسوقها الجزار كريه الملبس ورائحة الدم تفوح منه، وتذكَّرت عينيه الزائغتين ولهاثه المتواصل وهو فوقي، صرخت من غرفتي في وجه والدي وأنا لا أراه.

ـ ما الذي أتى بك؟ ماذا تريد؟

أتاني صوته من خلف الباب المغلق تمامًا، وقال:

ـ أريدكِ، أريد أن نرجع سويًّا.

صرخت بصوتٍ أعلى:

ـ نرجع! إلى أين؟

فردَّ بتوسل:

ـ إلى أي مكان، إلى أي شيء، فقط نرجع أنا وأنت، تعودين معي إلى أمريكا أو آتي أنا لأعيش معك هنا ومع وليد، حسب ما ترين، فقط نعود سويًّا كما كنا.

فرددت بلهجة ساخرة:

ـ كما كنا! وماذا كنا؟ كنا لاشيء، وسنظَلُّ لا شيء.. ليس هناك من أب وابنته، نحن غريبان عن بعضنا، لا أعلم عنك شيئًا ولا تعلم عَنِّي شيئًا، نحن لا شيء، نحن فقط أذى كبير سبَّبته أنت لي، وها أنت ذا آتٍ كي تكمِّل عليَّ ما فعلته بي طوال عمري.

قال وقد شعرت بجسده يلتصق بالباب:

ـ لقد طردت ياسر من الشركة، انتقمت منه وآذيته كثيرًا طوال هذه الشهور، لقد أخذت لكِ حقك منه وأكثر، أنت لا تعلمين ماذا فعلت.

كنت أنظر إلى مرآتي لحظتها وهو يتحدَّث ويتوسَّل

إليَّ من خلف الباب، نظرت إلى وجهي في المرآة وأخذتني مشاعر ملؤها الاغتراب والحزن، هذا الوجه الغريب الذي لا أعرفه ولا يعرفني، من هذه التي تقف أمامي؟ ليست هذه أنا؟ أنا غير ذلك تمامًا، أين يختبئ ذلك المسخ المشوَّه خلف هذا الوجه الحسن؟ أين تكمن الندبات؟ لماذا لا أبكي؟ كيف لا أبكي إلا في نومي؟ نظرت إلى عيني وأخذت أتفحَّصها، كانت شديدة الزرقة، كانت مخيفة، نظرت إليها بعمق أكثر، فوجدتني خفت منها بشدَّة. وسألت نفسي «ما الذي سيحدث لي؟».. ثم أتى صوت والدي خلف الباب:

ـ حبيبة!!

فصرخت بأعلى ما فيَّ من صوت:

ـ دعني وشأني، اذهب أرجوك.

فنادى بتوسُّل أكبر:

ـ أرجوكِ يا حبيبة، يمكننا أن نعيد كل شيء كان بيننا، امنحيني فرصة أخيرة لأعوِّضك عمَّا حدث لكِ، أرجوك لا تظلميني، فقط فرصة أخيرة هي كل ما أطلب.

قلت له وقد بدأ بكائي يغلبني:

ـ أرجوك، ارحل، ارحل، لا أريد أن أراك أمامي، لا أستطيع أن أنظر إلى وجهك ثانية، لا أريد، لا أريد.

سمعته وجسده يحتكُّ بالباب وظِله من خلف الزجاج المعتم يهبط تدريجيًّا ففهمت أنه جلس أرضًا، بدأ صوته باكيًا وهو ما لم أرَ من أبي في حياتي، قال بخفوت:

ـ ماذا كنتِ تظنين بيدي أن أفعل؟ ماذا كنت لتفعلي أنتِ؟ أنتِ لا تعلمين كم كانت أُمُّكِ سيئة، لا تدركين كيف كانت حياتنا معًا، أنتِ كنتِ صغيرة ولا تفهمين شيء، هل أقول لك مع من كانت تقضي لياليها التي تعود منها فجرًا وأنتِ ما زلتِ طفلة؟

لم يفاجئني كلامه في شيء، كنت أعلم ذلك، بل وأكثر منه، رددت عليه وكلي لوم وغضب:

ـ ولهذا أمنت على ابنتك الوحيدة معها وتركتني ورحلت، بل وهربت؟

ـ لم أهرب منك أبدًا يا حبيبة، لم أهرب أبدًا، إنما هربت من نفسي ومن عجزي أمامك، لم يكن بيدي شيء لأفعله، ولم يكن لي أن آخذك منها وأنت طفلة، ولم أستطع أن أعيش معها بحياتها القذرة هذه، لو كنت

أستطيع قتلها لفعلت، ليتني قتلتها واسترحت، لكنك كنتِ من سيدفع الثمن في النهاية.

ـ وهل تراني لم أدفع ثمن هروبك؟ ليتك وضعتني في ملجأ للأيتام، كان هذا أرحم لي وأكثر كرمًا من تركك لي معها، ليتكما ميتيّن، كنت سأترحَّم عليكما الآن بدلًا من لعني لكما.

ـ أتلعنين والدكِ يا حبيبة؟

قلت بحرقة:

ـ كل دقيقة يا أبي، كل دقيقة، أنت لا تدرك شيئًا.

صمتَ تمامًا ولم ينطق بكلمة، طال صمته وهربت من عيني دموعي رغم محاولاتي المرهقة ألا أبكي في وجوده رغم عدم رؤيته لي، لا أريده أن يعلم عن بكائي شيئًا، لم أرِدّ أن يظنني ضعيفة أو أنني أشعر تجاهه بأية شفقة أو رحمة، ولم أكن أعلم أني سأشعر بذلك، ظلَّ ساكنًا لم يردَّ وبدأت أخاف من وقع كلامي عليه، بعد فترة صمت طويل وجدتني أنادي عليه وقد غلب صمتي القلق، فلم يردَّ. تردَّدت قبل أن أفتح الباب ثم فتحت الباب فلم أجده، خرجت إلى الصالة فوجدت

معطفه ملقىً فوق المقعد في مكانه، بحثت عنه في الشقة كلها فلم أجد له أثرًا، وعندما وجدته قد ترك باب الشقة مفتوحًا خلفه أدركت أنه رحل، جلست أبكي وأنوح كثيرًا وقد مرَّت حياتي كلها أمامي مرَّة أخرىٰ بكل ما كان بها من وجع، ظللت مكاني حتىٰ حلَّ موعد مروري علىٰ وليد لآخذه من الحضانة، فارتديت علىٰ عجل وأنا أجفِّف دموعي ثم نزلت.

ظلت زُهرة تربِّت علىٰ كتفي كل ثانية وتمرِّر يديها فوق عيني لتمسح دموعي، وتمررها في شعري ثم تضمني إليها وهي تتمتم بصلوات لا أفهمها بصوت خافت، لكنها كانت تُشعرني بارتياح كبير، لم يُزعجني بكائي أمامها ولم أشعر لحظة بذلك، بل امتننت لها إصرارها عليَّ بالبوح وقد شعرت به أراحني قليلًا، بعد دقائق جفَّت دموعي، فقمت وغسلت وجهي وعُدت إليها، ثم جلست بالقرب منها وقبَّلتها في رأسها وقلت:

ـ أنتِ حقًّا جميلة كما قال نور.

فابتسمت وكانت عيناها تلمعان بدموع تحاول إخفاءها.

* * *

سبقنا وليد إلى غرفة الفندق، ثم تبعته مع زُهرة ونور، كنت أقيم دائمًا في الغرفة رقم عشرة بالفندق وكان نور يقيم بالغرفة المجاورة بعد أن أقنعته بذلك توفيرًا للمال الذي كان يدفعه إيجارًا لشقته بالمنشية، وكان يترك الفندق يومين أو ثلاثة يعود فيهم إلى القاهرة لمباشرة عمله بالشركة، رفعت زُهرة حقيبة ثقيلة من على الأرض وفردتها فوق أحد الأسِرَّة الثلاثة الموجودة بالغرفة وبدأت في تجميع ما تبقى من أشيائي المبعثرة داخلها، وكانت ترتِّب كل شيء بعناية ودقة، ولم أكن بحاجة إلى تكرار شكري لها، فهكذا كانت زُهرة دائمًا، تُشعرنا وكأنها أختنا الكبرى، أو أمُّنا الطيبة.

أخذ وليد في ممارسة لعبته المحببة إليه بالقفز فوق السرير والدوران حوله ثم القفز من جديد، بينما توجَّه نور إلى النافذة الطويلة في طرف الغرفة وفتحها، هبَّت الريح قويَّة وكان البحر أمامنا وصوته الثائر يعلن عن بدأ الطقس في التكشير عن أنيابه، عقد نور يديه على صدره ووقف مكانه ناظرًا إلى البحر وبدأ شروده المعتاد، كان يقف هنا دائمًا كلما تسلَّل إليَّ ليلًا من الباب المختبئ بين الغرفتين.

لم أقل لنور أبدًا أنني وقعت في حبه يوم قابلته بالسفارة، كان صعبًا على نفسي أن أعترف إليها أني عشقت أحدهم يومًا من أول نظرة، وكيف يكون هذا لمن لم تجرِّب العشق في حياتها يومًا، لكني عندما خرجت من السفارة نويت ألا أتركه يذهب بسهولة، أحسست أني أرغب بشدة في الحكي معه في أي شيء، كانت مصر غريبة عليَّ، لم أكن أشعر فيها بغربة بعد عودتي من أمريكا، لكني كنت أجد صعوبة في التعامل مع الناس، خاصة بعد أن قررت العودة إلى أمريكا، وبدأت في إجراءات التقدُّم للسفر في السفارة.

بعد حادثة طردي لوالدي بأشهر قليلة كنت عائدة من الملجأ ومعي وليد فوجدت ظرفًا مغلفًا بعناية في صندوق البريد الخاص بي في المنزل، أخرجته وأنا أظنُّ أنه مراسلة ما تخصُّ الملجأ أو وظيفة مما تقدَّمت إليها فور قدومي لمصر، فتحته فوجدت فيه أوراق طلاقي من ياسر، ومستحقات مالية لم أفهم من معظمها شيئًا، كما وجدت ورقة صغيرة مكتوب عليها «اغفري لي يومًا».. ولم يكن من شيءٍ آخر بها، أدركت أن والدي قد فعل شيئًا ما بأمريكا دفع ياسر إلى تطليقي، وتذكَّرت أنني كنت

لا أزال زوجته بعد هروبي منه، رغم أنني قضيت ما يزيد على ثمانية أشهر دون أن أتعامل على أنني زوجة لأحد، لكني عندما راجعت تاريخ الطلاق وجدت أنه موقَّع قبل عودة أبي بفترة، فعلمت أنه حصل عليه قبل أن يأتي إلى هنا، وحزنت كثيرًا لأنني لم أترك له أي مجالٍ للشرح أو الاعتذار، لم أكن لأسامحه على ما فعل يومًا، لكني وجدتني وقد أفرطت في عتابه يومها، وقد جاءني متوسلًا يبتغي مصالحتي والبدء معي ومع وليد من جديد، قضيت أيامًا أحاول أن أصل إليه عبر الهاتف لكني لم أفلح في ذلك، وكان محالًا أن أتواصل مع ياسر أو حتى أسمع صوته، حاولت أن أقدِّم أوراقي للسفر فوجدت الأمر شديد الصعوبة، وكانت فرصة ذهابي إلى أمريكا شِبه مستحيلة دون دعوة، وأحسست بالذنب تجاه والدي يزيد ويزيد مع الأيام، وعندما وجدت منحة الدراسة أمامي أثناء فترة عملي بالمنظمة لم أتردَّد لحظة في المحاولة وكلي أمل أن الله سيساعدني على العودة لأبي وإرضائه والعودة به إلى مصر إن كان يرغب حقًّا في ذلك، ويكفينا ما كان.

وجدت نور يشاركني رغبتي الملحَّة في التعارف، وكان أبسط مِنِّي بكثير، تمشَّى معي قليلًا خارج السفارة

وتبادلنا أرقام هواتفنا قبل أن نفترق، وكانت صدفة إقامته وعمله بالإسكندرية هي بمثابة إشارة لي أن أخوض معه تجربة ما، ولو صرنا صديقين وكان إنسانًا طيبًا فسأصبح سعيدة بشدة، كما أنه رُبَّما يصبح رفيقي في رحلتي لأمريكا، وهو ما قد أحتاج إليه في تلك الأيام.

عند افتراقنا بعد تمشية قليلة جوار السفارة سلَّم على وليد وقبَّله برقَّة بالغة في يده، ثم سألني عن اتجاهي فأخبرته أنني أقيم لأسبوعين في شقة مفروشة بالدقي، أخبرني أنه سيعود إلى الإسكندرية واتفقنا أن نتقابل ثانية عند عودته نهاية الاسبوع.

تعدَّدت لقاءاتنا وكان حديثنا يطول دائمًا ويسرقنا الوقت كما لم يحدث لي أبدًا، وكانت رقَّته البالغة في تعامله مع وليد تجذبني إليه بشدة، كان يربِّت على رأسه طول الوقت، ويتحدَّث معه كثيرًا كما لو كانا صديقين مقرَّبين، أو شقيقين، وبعد أشهر قليلة جدًّا لم أجد في نفسي حرجًا أن أقول له إني أحببته، وأحسست بقوة بالغة وأنا أنطقها له، وكنت سعيدة، سعيدة لأول مرَّة في حياتي، ولم أهتمَّ من وقع كلامي على نفسه وردِّ فعله وقتها، وحدث هذا في غرفتي هذه بـ«كليمنت هاوس».

أقنعت نور بعد أيامٍ من سفرنا من القاهرة إلى الإسكندرية بغرض إجراءات السفر أن يجرب المبيت في الفندق لليلة، ثم يقرر إن كان يصلح للإقامة فيه.

كان تردُّد نور بسبب مكان الفندق يبدو مبالغًا فيه بالنسبة لي، قال لي إنه يشعر أن محطة الرمل تسبِّب له اكتئابًا لا يجد له مبررًا رغم جمالها، فأكدت له أنه سيحبه كثيرًا، وأخفيت عنه أن والدي كان يحب هذا المكان دائمًا، إلا أن اختياري لفندق «كليمنت هاوس» كان له سببان رئيسيان؛ كنت أرغب في الابتعاد عن الشقة التي تحمل لي من الألم والذكريات السيئة الكثير، ومجرَّد المرور أمام الشارع أو المنزل يسقط قلبي في قاع صدري ويملؤني الإحباط واليأس بشدة، ورغم أن الفندق لم يكن يبعد كثيرًا عن منزلي القديم، لكن سحرًا ما كان يغمر هذا المكان لم أستطع أن أقاومه، أما السبب الثاني فكان حاجتي الملحة لتوفير المال والذي كان مشكلتي الرئيسة مع نفسي وفيما يخص وليد، كنت أقضي الأيام أحسب دخلي ومتطلباتي المالية، وما قد يجدُّ عليَّ دون أن أعمل له حسابًا، وتزيد رغبتي في الاطمئنان على وليد من خوفي عليه أكثر. وكنت قد عانيت الاحتياج إلى

المال كثيرًا، حتىٰ صرت أكره النقود والتعاملات المالية بكل أنواعها، وكان «كليمنت هاوس» فندقًا رخيصًا وغير مكلف تمامًا، رغم موقعه الرائع علىٰ البحر، إلا أنه لم يكن يقدِّم أية خدمات سوىٰ المبيت، وكنت أقضي نصف اليوم بالملجأ أو المنظمة، ووليد لا يفارقني أبدًا إلا قليلًا جدًّا وقت حضانته التي نسَّقتها لتكون وقت العمل الخاص بالمنظمة، فكانت إقامتنا بالفندق مريحة وهادئة، وكنت أشعر بالدفء الإنساني الذي أحتاجه في أيامي الصعبة هذه، وكان العاملون به يحبونني ويحبون وليد وصمته وشقاوته القليلة، ونشأت بيني وبينهم عِشرة طيبة جعلتهم كجيران طيبين، وعندما توفَّرت الأموال معي بعد ما أرسله لي أبي لم أستطع أن أترك الفندق بسهولة، وأخذت أتباطأ أمام نفسي في البحث عن مكانٍ للإقامة فيه، بعد أن بعت الشقة وتركت ثمنها وديعة باسم وليد يتحكَّم فيها وقت أن يستطيع ذلك.

رضخ نور لرغبتي في النهاية ووافق علىٰ قضاء ليلة في الغرفة التي تجاورني في الفندق عساه يقتنع بالعيش فيه جواري، ويوفر ثمن إيجار شقته المرتفع.

تناولنا عشاءً في صالة الفندق وكان مدير المكان قد

أحبَّ نور من حديثه المتقطع معه في كل مرَّة يزورني فيها أو ينتظرني عند خروجنا سويًا حتى أبدِّل ملابسي، ورحَّب بمعرفتي له وقال لي يومًا وهو يمازحني كجد طيب: «يصلح أن يكون أبًا جيّدًا»، فابتسمت له وأنا خجلة.

جهَّز عامل بالفندق الغرفة لنور وأعلمه بإجراءات المكان المعتادة، ثم تركنا سويًا في الردهة، ظللنا واقفين قليلًا في الردهة وقال نور وهو ينظر إلى الممر الطويل وأبواب الغرف العديدة التي تملؤه:

ـ أحببته، يبدو مريحًا ودافئًا فعلًا كما قلتِ لي.

أحسست أنه يبدو شاردًا ومتوترًا قليلًا، فقلت بدلال لم أعتده مِنِّي:

ـ تعالَ وعش معي هنا إذًا، ستحبُّ مشهد البحر من النافذة كثيرًا.

بدا وكأنه انتبه من شروده فقال وهو ينظر في عيني:

ـ سأحِبُّ وجودي جوارِكِ أكثر.

وجدتني أضطرب وتتسارع ضربات قلبي، وشعرت

بو جهي تغزوه حمرة الخجل، ظللنا واقفين لدقيقة أخرىٰ ثم قلت له:

- تصبح علىٰ خير.

وطبعت علىٰ خده قبلة خاطفة دون أن يلمحنا أحد، وهربت إلىٰ غرفتي سريعًا قبل أن يردَّ، ألقيت بنفسي فوق فراشي ووضعت يدي علىٰ وجهي وبكيت لأول مرَّة في حياتي من إحساسي بالسعادة التي لم أشعر بها بشدة هكذا من قبل، أخذت أشرد في نور وفي ملامح وجهه وأخرجت هاتفي أقلِّب في صوره العديدة الموجودة عليه وأخذت أتلمَّس وجهه فوق الشاشة بيدي وأمرِّرها فوق ملامحه في الصورة وأنظر إلىٰ عينيه كثيرًا ثم أستحضر وجهه في خيالي، وأسرح فيه كما طاب لي.

لم يطاوعني النوم رغم محاولاتي العديدة في الإمساك به، كنت أرغب أن يأتي الصباح بسرعة حتىٰ أرىٰ نور، وكان وليد نائمًا علىٰ الفراش المقابل لي كالملائكة، فشلت بعد قليل في الإمساك بالنوم فقمت من فراشي وأخذت أدور في الغرفة أفكر في نور، وتردَّدت في أن أهاتفه ثم أمسكت بالهاتف وطلبته، أتاني صوته سريعًا وكنت قد

خشيت أن يكون نائمًا فأوقظه، قلت له بصوتٍ خافت كي لا أوقظ وليد من نومه:

ـ نمت؟

فردَّ علي:

ـ ليس بعد، ألم تنامي؟

ـ لا أستطيع.

فردَّ يسأل في غزل:

ـ أتفكرين في أحدٍ؟

ـ أفكر فيك، أوحشتني.

وابتسمت وأنا أقولها وكنت خجلة، نظرت إلى وجهي في مرآة الغرفة الكبيرة أمامي فوجدتني جميلة، ووجدت وجهي ينير بفرح لم أعرفه قبل ذلك، قال نور:

ـ أنتِ أيضًا أوحشتيني، لكن يجب أن تنامي الآن، سوف نخرج مبكِّرًا في الصباح.

فرددت:

ـ ولماذا لا تنام أنت؟

ـ قلت لك مرارًا إني لا أنام بسهولة، ليس قبل منتصف الليل.

ـ أتفكِّر في أحدٍ؟

صمتَ مفكرًا ثم قال بغزل مرَّة أخرىٰ:

ـ رُبَّما، انتظري لحظة، لا لا أظن.

فضحكت رغمًا عَنِّي وأفلتت مِنِّي الضحكة بصوتٍ عالٍ كتمتها بعدها حتىٰ لا أقلق وليد النائم، إلا أن نور قال لي متعجبًا:

ـ إنني أسمع صوتك بوضوح، وكأنك تضحكين أمامي.

فقلت له:

ـ نعم كنت أسمع الساكنين جواري دائمًا أيضًا، يبدو أن الجدران هنا تنقل الأصوات بسهولة.

ـ ليس بهذه البساطة والوضوح.

ـ ماذا تعني؟

ـ انتظري قليلًا.

ثم سمعته يتحرَّك في الغرفة قليلًا وكأنه يبحث عن شيءٍ ما، ثم قال لي سائلًا:

ـ حبيبة، هل يوجد عندك دولاب عريض أمام المرآة تمامًا؟

نظرت إلى ما يقصد فقلت له:

ـ نعم يوجد، كيف عرفت؟ ألديك مثله؟

فردَّ:

ـ نعم، هذا طبيعي، لكن ليس هذا ما أقصد، يوجد باب عندي خلف هذا الدولاب لكنه مواريً بالدولاب.

تعجَّبت كثيرًا من قوله وذهبت لأنظر ما يقول، وبحثت بيعيني خلف الجزء الضئيل المتبقي بين الدولاب الموجود عندي بالغرفة وبين الجدار فوجدت ما يقصد، فقلت له وقد ملأني حماس ما:

ـ نعم نعم، يوجد عندي أيضًا، هذا باب مشترك بين الغرفتين.

فردَّ وحسبت أنه يبتسم وهو يقول:

ـ يبدو أن هذا الفندق ليس بريئًا كما نظنُّ.

فضحكت من قوله وقلت له:

ـ حرام عليك، هو منزل قديم تحوَّل إلى فندق، لا تظلمِ الناس.

فردَّ معاتبًا:

ـ أمزح بالطبع، هم طيِّبون، هذا واضح من معاملتهم.

صمتُّ وصمت هو أيضًا، بعد قليل قلت له:

ـ والآن ماذا؟

لم يردَّ مباشرة، صمتَ قليلًا يفكِّر ثم تابع:

ـ أتفكرين فيما أفكر فيه؟

فردَّتْ مسرعة:

ـ طبعًا.

فقال:

ـ وفيم تفكرين؟

قلت له بلهفة:

ـ أريد أن أراك.

فقال لي:

تعالي نتقابل في صالة الفندق إذًا.

فقلت بغيظ:

ـ نور! لا تكن سخيفًا، أريد أن أراك وحدنا.

صمت مفكرًا مرَّة أخرىٰ وقد غاظني تردُّده المستمر، ثم قال بعدها:

ـ لكني أظن أنه سيكون مغلقًا، هل تستطيعين تحريك الدولاب عندك، أظنه ثقيلًا عليك، هو فارغ تمامًا عندي، لكنك بالطبع تضعين أشياءك ووليد داخله.

فقلت دون تفكير:

ـ سأفرغه منها حالًا.

وشرعت أنقل حاجاتي من الدولاب وأضعها دون ترتيب علىٰ الفراش الخالي جواره، وسمعت نور يعبث بشيء ما في غرفته وظننت أنه يُحرِّك الدولاب الموجود بها، ثم سمعت صوته يعبث بالباب وأنا ألقي ما تبقىٰ من حاجاتي، ثم قال لي علىٰ الهاتف:

ـ ليس مغلقًا،

زحزحت الدولاب قليلًا بمساحة تكفي جسدي الرفيع أن يمر إلى الباب، ومددت يدي إلى مقبض الباب وقبل أن أحرِّكها وجدت الباب يُفتح أمامي، تسارعت ضربات قلبي وكأنني كنت أجري خلف أحد ولمحت إضاءة غرفة نور تظهر أمامي والباب يفتح ببطء وخفوت كي لا يحدث صوتًا، ثم فتحه نور تمامًا فوجدته أمامي وكان مبتسمًا رغم توتره، نظرت إليه بولهٍ وحُبٍّ شديدين ثم ألقيت بنفسي في حضنه، وأغمضت عيني تمامًا وقلت وأنا ألفُّ ذراعي حول رقبته وأدفن رأسي فوق كتفه:

ـ أريد أن أعيش معك.

* * *



(٩)
منير

وصلتُ وزُهرة إلى الملجأ مبكرًا، طلبت أن أتركهم قليلًا لأذهب كي أسوِّي أمرًا صغيرًا ثم أعود إليهم سريعًا، كنت أرغب في الانفراد بنفسي في الإسكندرية، لا أحب أن يدفع صمتي وشجني أحدًا للسؤال عمّا بي، تردَّدت كثيرًا أن أذهب مع زُهرة لوداع حبيبة، كنت أخاف دائمًا من مجرَّد ذِكر كلمة الإسكندرية أمامي، وأي حديث يأتي عنها كنت أهرب منه، أو كنت أهرب من نفسي، لن أعرف أبدًا، كما لم أعرف أبدًا ما الذي حدث لسلمى.

عرجت بالسيارة حتى وصلت إلى سور مكتبة الإسكندرية، وركنتها جوار السور في شارع جانبي ضيق، ثم نزلت لأتمشى قليلًا على البحر، لكن قدمي لم تطاوعني أن أعبر الطريق إلى الكورنيش، حاولت ولم أفلح، بحثت أين أذهب، كل مكان سيأخذني إلى وجه سلمى، تركت نفسي لقدمي حتي وجدتني أقف أمام مكان المرسم القديم.

بحثت عنه وتأكدت من المكان بذاكرتي، لكني وجدته قد تحوَّل إلى كافيه غربي الطراز مرسوم عليه أنواع المأكولات التي يقدمها، حزنت كثيرًا لهذا التغيُّر الذي حدث به، كان المرسم قديمًا بمثابة منزل لي في الإسكندرية، وكنت أحِبُّ قضاء الليل فيه وحدي أرسم لوحتي المفضلة لأفاجأ بها سلمى ذات يوم، وها هو ذا اختفى أيضًا مثلما اختفت هي ولم أعرف ماذا حدث لها.

بعد مكالمتي مع جورجيت، وبعد قسمي المتكرِّر لها والذي لم تصدقه وقتها أنني لم أمس منها شعرة وأننا لم يحدث بيننا شيء، عدت إلى القاهرة هربًا وخوفًا مما نبَّهتني إليه، وكنت أنهي المكالمة وأنا ما زلت أقسم بكل مقدس لدي أنني لم أمسَّها.

في الطريق إلى القاهرة كنت أفكر فيما حدث، وما قالته جورجيت، وما الذي يجب عليه أن أفعله في القاهرة، هل أذهب إلى الكنيسة مباشرة كما طلبت، أم أذهب إلى والدي أولًا؟ وقلت لنفسي ما شأن الكنيسة بهذا؟ بل ما شأن والدي أيضًا؟ هذا أمر يخصُّني ويخصُّ سلمى، وكيف يمكن أن يتحوَّل الموضوع لفتنة طائفية كما تدَّعي جورجيت؟ وهل سلمى لم تكن بنتًا بالفعل؟ هل تخطئ سلمى مثل الجميع؟

«مستحيل»

قلتها لنفسي مرارًا طوال الطريق، وكنت أردِّدها بصوتٍ عالٍ أحيانًا فينظر إليَّ من هم حولي في شكٍ «سلمى لا تخطئ أبدًا»، ليس في ذلك على الأقل، لم تكن تترك الصلاة، ولا قراءة القرآن من كتابها، حتى وأنا معها، وحتى لو لم تكن تصلي أو تعبد ربها، كانت سلمى لا تكذب أبدًا، أعرف الصادق من الكاذب قبل أن ينطق، وهي لم تكن لتكذب عليَّ أبدًا، كيف هذا وهي التي طالما طلبت مِنِّي ألا أكذب أمامها؟ رغم أني لم أكن أفعل ذلك، رُبَّما كان صدقي هو الشيء الوحيد الطيب فيَّ، وهو أيضًا ما جذبها إليَّ. وهل يكون الصمت عن الحقيقة

كذبًا؟ نعم.. رُبَّما.. سلمىٰ لم تكذب عليَّ أبدًا، لكنها لم تقل لي كل شيء، ولم تحكِ لي عنها، لكن كيف؟ كيف يمكن ذلك؟ أتكون أخطأت ثم ندمت؟ هل يفسِّر هذا تمسُّكها بالتزامها وأدبها المفرط رغم جرأتها وصراحتها؟ لماذا لم تحكِ لي إذًا، هل خشيت أن تفقدني؟ وهل تخجل سلمىٰ من شخص مثلي؟

حاولت أن أوقف رأسي عن التفكير حتىٰ لا ينفجر أو أجنَّ، لكني فشلت طوال الطريق إلىٰ القاهرة أن أتوقَّف، أو حتىٰ أن أفكر في شيء آخر، وعندما نزلت من القطار، توجَّهت إلىٰ بيت أبي وحكيت له ما حدث، وكانت مشاجرة طويلة انتهت بأن أخذني من يدي إلىٰ الكنيسة.

نظر لي أبونا في صبرٍ وكان يتفحَّصني كمن يتفحَّص بضاعة ما، فهمت أنه يحاول تبيُّن صدقي من عدمه في وجهي وانفعالاتي وأنا أحكي له، طلبَ من أبي أن يتركنا وحدنا ثم أجلسني ووضع يده علىٰ كتفي ثم تنهَّد بعمق وقال:

- أخبرني الصدق ولا تكذب، لا تنسَ أنك في الكنيسة.

قلت له وقد تحفَّزت من اتهامه لي بالكذب:

ـ أنا لا أكذب.

فقال وبدأت ملامحه تلين:

ـ لم أتَّهمك بشيء، فقط أذكِّرك، صدقك مهم لديَّ كي أعرف ماذا سنفعل، قل لي ولا تكذب، هل أخطأتما سويًّا.

قمت من مجلسي وقد ملأني الغضب وعلا صوتي وأنا أقول:

ـ قلت لك لا، لا، لم يحدث شيء، ما الغريب في هذا؟ سلمى ليست مثل أحد، لم أكن لأفعل معها شيئًا كهذا، ولم تكن لتتركني هي أفعل ذلك.

صمتَ طويلًا ثم قام وأخذ يفكِّر وهو ينظر إلى سقف الكنيسة، بعد قليل قال لي:

ـ إذًا ستبقى معنا حتى نعرف ما الذي سيؤول إليه الأمر.

قلت له وقد ملأني الخوف من مجهول لا أعرفه:

ـ أبقى أين؟

فقال مفسرًا:

ـ تبقى معنا، سوف نجد لك سكنًا آمنًا حتى ننظر في الأمر، رُبَّما نتواصل مع والدها أو مع الأمن، لن نعرف هذا الآن، لكنك ستظلُّ معنا حتى لا تتطوَّر الأمور أكثر من ذلك، ولا تقلق عليها، سنحاول أن نطمئنك عليها وقت أن نستطيع.

فكَّرت في كلامه قليلًا ووجدته غير مقنع، لكني لم أعرف كيف أتصرف، كل ما يشغل ذهني أن أطمئنَّ على سلمى أولًا، ثم ليحدث ما يحدث، قلت له مستفسرًا:

ـ وماذا لو رفضت؟ هل تجبرونني على ذلك؟

فردَّ سريعًا:

ـ لا نجبر أحدًا على شيء، كل ما يهمنا هو أمنك وسلامتك، هناك احتمال ضعيف أن نُجبرك لو تفاقم الأمر، لكننا يجب أن نعمل حسابًا لشيء كهذا.

ثم صمت قليلًا وتابع مؤكِّدًا:

ـ هذا بالطبع ما دمت تقول إنك لم تمسَّها بشيء.

فرددت بغضبٍ مكرِّرًا:

ـ قلت لك لم ألمسها، لماذا تجدون تصديق هذا مستحيلًا.

فاقترب مِنِّي وربَّت علىٰ كتفي بهدوءٍ وقال:

ـ هوِّن عليك يا بنيَّ، ليس الأمر هينًا كما تظن، لا تنسَ أنك في بلد تنتشر فيه الفتن كالنيران،

قلت له وقد أخذني جزء من طيبته وشعرت أني يمكنني أن أثق به:

ـ أعرف، لكنها ليس لها ذنب.

فقال لي محاولًا طمأنتي:

ـ لا تقلق، سيكون كل شيء بخير.

بعدها بأسبوع كنت أقيم في سكن لم أعرف أبدًا هل هو تابع للكنيسة أم هو مكان يخص أبونا وحده، كان محرَّمًا عليَّ الخروج منه دون إذن، وهو إذن لم يأتِ إلا بعد مرور عام، وكان أبونا يزورني من وقتٍ لآخر يجلس معي ليطلعني علىٰ ما توصَّل إليه، ولم أكن أفهم منه شيئًا كل مرَّة، لم يكن يصلني منه سوىٰ أنني لن

أستطيع أن أخرج الآن، وأنه لم يصل لأخبار موثوق بها عن سلمى وما حدث لها، وكلما غضبت أو طلبت منه أن يدعني أخرج حذَّرني من وقع ذلك ونتائجه التي قد تؤذي الجميع، وكنت أتوسَّل إليه دائمًا أن يطمئنني عليها فقط، ولا يهم ما هو دون ذلك.

بعد أن طالت فترة انتظاري كنت قد مللت التفكير في كل شيء، ومللت روحي من عبث الأفكار بها، وكنت ألوم نفسي كل مرَّة تبدأ الأفكار دورتها المكرَّرة معي بالتساؤلات المخيفة وإجاباتها التي لا أملكها، وكنت أصرخ في نفسي بالمرآة كثيرًا، وأطلب من وجهي فيها أن يكفَّ عن التفكير الذي لا جدوى منه، وكنت أردُّ عليَّ أيضا مشيرًا بيدي إلى المرآة: «أنت السبب في ذلك».. لم يكن لها ذنب.

طلبت من أبونا بعد أن يئست من إخباره لي بأي معلومة قد تهدئ من حيرتي أن يجلب لي أدوات للرسم، فلبَّى لي طلبي سريعًا ولم يمنع عَنِّي شيئًا، وقضيت أشهرًا أحاول رسم اللوحة مرَّة ثانية ولم أفلح، رسمت غيرها عددًا من اللوحات الرائعة التي أعجبته، وطلب مِنِّي أن أرسم له لوحات معينة

أهديها للكنيسة، فلبيت له طلبه مللًا ويأسًا، وبعد أن انقضى عام أذن لي بالخروج.

طلب مِنِّي مرَّات ومرَّات ألا أحاول البحث عن سلمى، وأكد عليَّ أنه لو حدث ما جعل الموضوع يُفتح مرَّة ثانية لن يستطيع أحد مساعدتي هذه المرَّة، وكان آخر ما قاله لي عن سلمى إنها اختفت وأهلها تمامًا، وإن موضوع البلاغ الذي قُدِّم ضدي بالقِسم قد أُغلق تمامًا، وطلبَ مِنِّي أن أمرَّ عليه من وقت لآخر لأطمئنه على أحوالي، وأن أزور الكنيسة للصلاة، ونصحني مرارًا بأن أبدأ من جديد، ثم تركني.

خرجت إلى الدنيا غريبًا لا أعرف أين أذهب، هل أتوجَّه للبحث عن سلمى التي يقول إنهم لا يعرفون عنها شيئًا؟ أم أبقى هنا في القاهرة ولا أحاول أن أفتِّش في الموضوع ثانية.

غلبني قلقي الذي لم ينتهِ عليها أبدًا رغم مرور عام وتوجَّهت مباشرة إلى الإسكندرية، تمكَّنت بعد وقت طويل من التواصل مع جورجيت، وعلمت منها أنها كانت تطمئنُّ علي من والدي من وقتٍ لآخر، سألتها

عمّا إذا كانت تعرف أية أخبار عن سلمىٰ فردَّت نافية، توسَّلت إليها طويلًا فقالت لي عبرْ الهاتف:

ـ صدقني يا منير لن تصل لشيء، لست وحدك الذي حاول الوصول إليها، سلمىٰ كانت محبوبة من الجميع، وكان لديها أصدقاء عدة، لكن لم يصل إليها أحد، كما أنه لا يجب عليك أن تفتح هذا الباب مرَّة أخرىٰ، لست في داعٍ لهذا.

ألححت عليها طويلًا أن تحاول أن ترسل لي عنوان سكنها أو أية طريقة يمكنني أن أصل إليها بها، فردَّت بغضب:

ـ لماذا لا تريد أن تفهم؟ لم تعد هناك سلمىٰ، سلمىٰ اختفت، رحلت أو سافرت أو هاجرت هي وكل أهلها، لن تستطيع أن تصل لأي شيء، ولن أستطيع أن أساعدك في شيء أيضًا، منير، كن علىٰ قدرِ المسؤلية ولو مرَّة واحدة في حياتك، محاولتك التنقيب في هذا الموضوع سوف تجلب مشاكل أغلقت بصعوبة.

سكتُّ عن الكلام ولم يرضِني شيءٌ مما قالت، ثم سألتُها:

ـ هل تصدقين يا جورجيت ما قالوه عن سلمى؟

فردَّت سريعًا:

ـ بالطبع لا أصدِّق ولن يصدِّق أي إنسان يعرف سلمى، لكننا لا نعلم الغيب، رُبَّما تكون قد أخطات، رُبَّما أخطأت وندمت، أو أنهم كلهم يكذبون، رُبَّما أصابها حادث ما وهي طفلة أو أنها وُلِدت هكذا، لن نعرف أبدًا، سلمى التي عرفتها كانت ملاكًا، لكننا لم نُخلَق آلهة، أرجوك يا منير، حاول أن تنساها، لا تبحث عنها كي لا تورِّط نفسك أو أهلك في مشاكل أكبر منكم، لابد أن تنسى، ليس هذا اختيار.

أنهيت مكالمتي مع جورجيت وغرقت في حزني وأخذت أسير في الشوارع كالمجذوب أنظر في وجه الجميع يأسًا وألمًا، وقضيت الليل في الشارع أتسكَّع على المقاهي وأدور في الشوارع كل ساعة لا أعلم ماذا أفعل، وعندما تعبت عُدت إلى شقتي وجلست أرضًا أمام اللوحة بعد أن غطَّاها التراب الكثيف، ثم نمت مكاني.

بعد شهور نقلت أوراقي من الكلية إلى معهدٍ خاص

للفنون وعملت لفترة في رسم البورتريهات الخاصة لزبائن الشارع العابرين وكنت أرسم وجه سلمىٰ كل ليلة علىٰ الورق وعلىٰ الجدران قصدًا أو دون قصد، ثم قررت البحث عن نور حتىٰ وجدته، كان قد أصبح في سنته الخامسة بالكلية، وكان كما تركته منذ عام ونصف العام.

خشيت في البداية أن يكون قد علمَ أي شيء عمَّا حدث لي، ثم فهمت من لومه لي وعتابه علىٰ اختفائي فور رؤيتي وتصديقه لكذبي عليه أنه مازال يجهل كل شيء، تمنَّيت لو أستطيع أن أبوح له بما حدث لكني لم أستطع أبدًا.

عُدْت إلىٰ سابق عهدي قبل معرفتي بسلمىٰ، أغرقت نفسي في الشرب وفي اللهو الذي لم أكن أجيد شيئًا مثله سوىٰ الرسم، عرفت مئات الفتيات وبحثت داخل كل واحدة منهنَّ عن سلمىٰ جديدة فلم أجد فيهنَّ شيئًا منها، كنت أحيانًا كثيرة أطلب من فتاة ما وهي معي أن تضع يدها علىٰ كتفي وتتركها هكذا رُبَّما أشعر بروح سلمىٰ أو لمستها لي في الكلية، لكن شيئًا كبيرًا كان ينقصني دائمًا.

مع مرور الأيام ورغم أنني أيقنت أنها لن تعود ثانية، إلا أنني لم أتوقَّف لحظة عن التفكير فيها، كنت أشعر أنها يومًا ما ستظهر فجأة دون ترتيب، يومًا ما سوف تحدث المعجزة وأجدها أمامي في الطريق، أو يرنُّ هاتفي فجأة لأجد صوتها ينطق باسمي، تسلِّم عليَّ وكأننا كُنَّا سويًا بالأمس في المرسم، ويختفي ما مضى بيننا من السنوات، تعود لتحكي لي ما حدث، وتفسِّر لي سبب اختفائها وما حدث مع أهلها، تأخذني من يديَ إلى حجرة المرسم ثانية، وتربِّت على كتفي كما كانت تفعل، وسنبكي بعدها سويًّا حتى تجفَّ دموعنا إلى الأبد، وحتى يتطهَّر داخلنا كل ما كان، أجلس بين يديها وأحكي لها ما حدث طيلة هذه السنوات، وكيف كنت محبوسًا في القاهرة طوال العام الذي تلا رحيلها، وكيف مرَّت عليَّ الأيام والساعات ثقيلة قاتلة، ثم أخبرها عن التغيير الذي حدث لي، عن تركي للكلية وعن الجاليري والرسم واللوحات، وستفخر بي كثيرًا بعد أن تعلم عن التغيُّر الكبير الذي حدث لي، سأعود لأسمِّي الجاليري باسمها كما كنت أرغب من البداية.

سنعود لنتمشَّى سويًّا مرَّة أخرى على الكورنيش

وجوار سور المكتبة، نثرثر طيلة النهار إلى أن تغرق الشمس في قلب البحر، ثم أوصِّلها لأقرب مكان من منزلها، وبعد عدد من المرَّات والمحايلات الصادقة، ألبِّي دعوتها لي على الغداء في منزلها، أتعرَّف على أهلها الطيبين ويتعرَّفون عليَّ، نجلس سويًّا نتحدَّث طويلًا ونضحك عمَّا حدث، أعتذر لهم أو يعتذرون هم لي، لا يهم، نصير جميعًا عائلة كبيرة، ننسى ما كان وكأنه كابوس أو سراب أدرنا نظرنا بعيدًا عنه، ثم آخذ سلمى من يديها ونعود لنكمِّل دروس الرسم سويًّا، وأنتظر بلهفة حتى يأتي رمضان، نستأذن من أهلها ونذهب إلى القاهرة سويًّا، إلى الحسين كما اتفقنا منذ سنين، آخذها إلى كل الأماكن التي حفظتها من زياراتي لها وحدي كل هذه الأعوام الطويلة،

في الحسين قضيت أيامًا أفتِّش عمَّا يمكن أن تكون سلمى قد رغبت أن تزوره لو كنا أتينا سويًّا ذلك اليوم، فلم أترك مكانًا لم أدخله، ونشأت بيني وبين أصحاب البازارات هناك صداقات عديدة، حتى إننا عملنا سويًّا في بعض الأشياء التي تخصُّ الجاليري بعد ذلك، أدمنت عروض التنورة وغناء المنشدين، وكنت أجد

فيه روح سلمى كاملة وكأنها واقفة جواري تضحك كالطفلة من جمال ما نسمعه، حفظت الأغاني والأبيات التي يرددونها في حفلاتهم وقرأت كثيرًا عن الصوفية والمتصوفين، لم أفهم معظم ما قرأت، لكني شعرت به مليًّا يتلبَّسني في ليالٍ عديدة وكنت أوقن حينها أن روح سلمى قد حلَّت معنا في المكان، فكنت أتحدَّث معها وأكلمها ولم أكن أهتم أن يراني أحدٌ مخبولًا، كانت الأماكن تمتلئ بالكثير من الباحثين عن أرواح أحبتهم أو معذبيهم،

كنت أحلُم دائمًا أن تأتي سلمى معي إلى ذلك العرض الساحر الذي لم أفوِّته مرَّة واحدة منذ رأيته، وكنت كلما ذهبت هناك وجدت سلمى وكأنها جواري، كنت أشعر بروحها حولي تلمس روحي وتضع يدها النقية فوق كتفي تربت عليه وتطمئنني أنها حولي في مكان ما دون أن أعلم، وكم كان هذا يعينني على أيامي القاسية طول العام.

وحضرت ذات مساء نفس الحفل لذلك المنشد عذب الصوت الذي يأخذ كلامه وأنينه روحي لتحلِّق بعيدًا تزور سلمى وتجالسها قليلًا ثم تعود إليَّ وكان

أكثر العروض التي حفظتها وأدمنتها وذابت روحي فيها ضمن ما عشقت، وبين بكائي وغنائي مع المنشد سألتني إحدىٰ السيدات بجواري عمَّا إذا كنت أفهم ما أسمعه أو أعيه، لم ألتفت إليها وقت سؤالها لكنني رددت عليها بما كنت أشعر به دائمًا، وكان هذا هو لقائي الأول بزُهرة.

* * *

كان الوقت قد أخذني ولم أعد أشعر كم مرَّ علي وأنا شارد هكذا في سلمىٰ، كما يحدث دائمًا، وجدتني قد تأخَّرت كثيرًا علىٰ نور وحبيبة فأخذت أبحث عن مكان السيارة كثيرًا، كنت قد نسيت أين تركتها وأخذني شجني وتذكُّري لسلمىٰ من روحي حتىٰ وجدتني في مكان لا أعلم كيف وصلت إليه، هاتفني نور أكثر من مرَّة فأخبرته بأنني سوف أمرُّ عليهم بالفندق حتىٰ لا نتأخر علىٰ موعد الطائرة، أعدت البحث مرَّة أخرىٰ عن السيارة ثم خرجت إلىٰ الكورنيش ومشيت عائدًا إلىٰ المكتبة، ثم وجدتها مكانها.

ذهبتُ مسرعًا إلىٰ «كليمنت هاوس» ومنعت نفسي عن الشرود في سلمىٰ مرَّة أخرىٰ حتىٰ لا تتأخر حبيبة علىٰ موعد الطائرة، وصلت إلىٰ الفندق وصعدت إليهم وأنا ألهث، كانوا جميعًا بالغرفة، وكانت زهرة وحبيبة منهمكتين في إعداد الحقائب الخاصة بحبيبة ووليد، وكان وليد يلهو بشقاوة فوق أحد الأسِرَّة، أما نور فكان واقفًا أمام النافذة ينظر تجاه البحر في شرود كالعادة، ذهبت إليه بعد أن سلَّمت علىٰ حبيبة ولكزته في كتفه فاستدار إليَّ في سكون، احتضنته في قوة وكنت

لم أره منذ مدة فلم يبدُ وكأنه قد رآني.. نظرت في وجهه وكان كئيبًا وعابسًا إلى حدٍّ كبير.

كان لنور وجهان حزينان أعرفهما جيِّدًا، وجه قديم عرفته أيام الكلية وأيام صداقتنا القديمة، وكان أكثر قبولًا على الحياة رغم حزنه المستمر وشروده الطويل، ووجه آخر تلبَّسه بشدة بعد نوبة الجاليري الأولى ولم يتركه بعدها أبدًا.

كان هذا منذ متى؟؟ منذ العام أو يزيد؟؟ لا أذكر تحديدًا، لكنه كان أثناء عمل نور بمستشفى الإسكندرية، ليس أقل من عام بالتأكيد.

كنت قد بدأت في إعداداتي لافتتاح الجاليري، وأصررت أن يكون مكانه في الزمالك، تمامًا كالجاليري الذي أرادت سلمى أن تملكه يومًا، تمنَّيت دائمًا أن أسميه جاليري سلمى، لكن أبونا نصحني مرارًا بألا أفعل، ورغم صعوبة إيجاد مكان بالزمالك مناسب لقدرتي المالية، إلا أنني تمكَّنت في النهاية بعد بحث طويل من الوصول إلى ما كنت أبتغي، أو ما كانت سلمى ستحب، كما أن صيتي كان قد ذاع وقتها، وأصبح لي معجبون

بفنّي ولوحاتي وكثير من أعمالي التي شاركت بها في معارض ومسابقات كثيرة.

هاتفني نور وأنا بالجاليري يومها أنهي بعض اللمسات النهائية قبل الافتتاح، وكان صوته يرتعش، وكلامه متداخل وغير مفهوم، سألني عن مكاني وكنت لم أره منذ فترة قصيرة، أخبرته أنني في الجاليري بالزمالك فقال لي إنه قادم إليّ حالًا، سألته إن كان بالقاهرة فردَّ نافيًا وأخبرني أنه في محطة الرمل، وأنه سيأخذ أول قطار إلى القاهرة، ثم أنهى المكالمة وقد ملأني قلق عليه.

كان نور يحكي لي عن نوبات الصرع التي هاجمته وهو صغير بالمزرعة، لكنه قالي لي إنها قد اختفت بعد أن أصبح شابًا، ولم أكن قد رأيت مريضًا بالصرع أمامي طول عمري، ولم أعرف كيف يبدون مرضى الصرع حينما تأتيهم النوبات.

دخل نور عليَّ الجاليري آخر الليل وكان وجهه شاحبًا ويداه ترتعشان ارتعاشًا خفيفًا كل فترة، ولم أستطع أن أفهم ما حلَّ به، صرفت من بقي من العمّال بالجاليري وجلست جواره، ظلَّ صامتًا لا يفعل شيئًا

سوى التدخين والانتفاض بين لحظة وأخرى، وأحيانًا كان يشهق شهيقًا خافتًا، زاد قلقي عليه وعرفت أنه يخفي أمرًا كبيرًا، قمت من مجلسي ووقفت أمامه أتفحَّصه بعيني ثم قلت له وقد فقدت صبري:

- هل ستتكلم الليلة أم ستظَلُّ هكذا حتى أموت قلقًا عليك.

فلم يرد.

أشعلت سيجارة لي وله ثم جلست ثانية، أخذت أقلِّب في رأسي محاولًا استنتاج ما يمكن أن يكون قد حدث له، لم يكن لدى نور الكثير في حياته كي يمتلك ما يخفيه عَنِّي، وصل شكي الوحيد إلى نوران، رُبَّما يكون حدث لها مكروهٌ ما، سألته محاولًا جذبه للحديث بأية صورة:

- هل نوران بخير؟

فانتبه إلى كلامي وكأنه قد اكتشف وجوده معي فجأة، ثم أطرق أرضًا مرَّة أخرى وقال بصوت مرتعش:

- هي بخير.

عدت إلى حيرتي من جديد، ليس هناك من شيء آخر أعرفه عنه قد يخيفني عليه، زملاؤه في الكلية علاقته بهم طيبة وبسيطة، ولا يخالط الكثير من الأصحاب، وأيامه مباشرة خاوية من التقلبات التي قد تصيب شخصًا مثله. ترى ما الذي تخفيه يا نور وراء هذا الصمت المرعب؟

مللت الجلوس فقمت مرَّة أخرى وسألته وأنا أتمشى في الجاليري رُبَّما يريد أن يتحدث في غير رؤيتي له؟

ـ هل تحب أن نذهب إلى مكان بالخارج رُبَّما تتكلم؟

فهزَّ رأسه نافيًا.

عدت إليه ثانية ونظرت إلى وجهه الشاحب أتفحَّصه، كانت عيناه متسعتين كمن يرى شيئًا مرعِبًا أمامه، محمرتين بشدة ودامعتين، فور أن التقطت عيناه عينيَّ قال:

ـ هو الذي طلبَ مِنِّي.

ثم صمتَ وأخذ يهتزُّ جسده في جنون، عجبت من جملته ولم أفهم منها شيئًا، وضعت كلتا يديه فوق كتفيه أثبته مكانه وأستوضح منه ما يقول:

ـ من هو؟ وما الذي طلبه منك؟

بدأ يرتعش أكثر واتسعت عيناه علىٰ آخرهما وتصلَّبَت قدماه بطريقة غريبة وأخذ يردد الجملة مرَّة أخرىٰ:

ـ هو الذي طلبَ مِنِّي.

ثم أخذ يهتزُّ بشدة وقد بدأ يفلت من بين يدي، فقلت صائحًا:

ـ من هو؟ لا أفهم منك شيئًا.. ما بك؟

فكان أن قال لي وهو يرتجف بعنف وقد بدأت النوبة اللعينة أقرب:

ـ لقد قتلت طائرًا آخر.

ثم غرق في نوبته المرعبة، وقضيت معه ليلة سوداء لم أنسها أبدًا بين الجاليري والمستشفىٰ، وعندما تحسَّنت حالته لم يحدثني عمَّا كان به يومها ثانية، ولم أجرؤ علىٰ سؤاله أبدًا عمَّا كان به رغم التغير الشديد الذي لحق به منذ تلك الليلة.

* * *



(١٠)

نـور

كان منير ينظر إليّ ونحن في «كليمنت هاوس» وعيناه قلقتان عليّ، كان الكلُّ قلقًا علي من نوبة الصرع التي قد تهاجمني في أي لحظة، زُهرة ومنير وحبيبة، الكلّ دون استثناء، لكني لم أكن قلقًا من شيء، ولا حتى النوبة القريبة القادمة، والتي أعلم دون الجميع أنها ستكون الأقسى، لم أذكر هل تناولت الدواء حقًا كما أخبرت زُهرة أم نسيته أم تناسيته، لا شيء يهم، لم يعد شيء يهم.

لم يكن يقلقني سوى حبيبة، دقائق قليلة ولن تكون

معنا، لأعود مرَّة أخرىٰ إلىٰ وحدتي، رفيقتي في الحياة، لا أعلم هل ستستطيع زُهرة أن تعينني علىٰ الأيام القادمة أم لا؟ وهل سيبقىٰ منير جواري قبل أن يختفي كعادته؟ والأهم من ذلك كله، هل سأبقىٰ أنا جوار نفسي، أم سأتركني وحدي أصارع وجعي الطويل القاسي.

أنظر لحبيبة في شجن، تبادلني نظرة الحُبِّ التي عرفتها في عينيها هنا أول مرَّة، جوار الباب المشترك بين غرفتينا، وهي بين ذراعي تحتمي بي من الدنيا وما فعلته بها، كانت لا تمل قولها لي «لا تتركني أبدًا»، فأعدها كذبًا أنني لن أفعل.

الآن تسافر حبيبة، تذهب كأن لم تكن، وأنا الذي أتركها تسافر، وأرافقها بنفسي إلىٰ محطة سفرها الطويلة، تعدني حبيبة أنها ستعود سريعًا، وأنا أعرف حقًّا أنها ستعود، لكنها حتمًا لن تجدني هنا، لا أعرف أين سأكون بعد ساعة من الآن، وكيف سأكون بعد رحيلها، هل سأعود إلىٰ «كليمنت هاوس»؟ أم سأرجع مع منير وزُهرة إلىٰ القاهرة، أظنهما لن يتركاني وحدي هنا، ولا أريد أن أبقىٰ وحيدًا مرَّة أخرىٰ، لكني أيضًا لا أريد أن

أبقى مع أحد، فقط أريد أن يعود الماضي، هذا هو الحل الوحيد لديَّ، وما من بديل آخر، أن يعود إلى ما قبل لقائي لحبيبة، بل قبل أن يأتي المريض، أم أقول قبل أن أرى الطائر الأبيض في مزرعتنا؟

خرجنا من غرفة الفندق بـ«كليمنت هاوس»، ودلفنا إلى صالة الاستقبال، جرى وليد مسرعًا يلهو كعادته بالبيانو الخشبي العتيق الموجود بأحد أركانها، كنت أحتفظ لحبيبة بصور كثيرة على هذا البيانو جالسة مشدودة الظهر والخصر واضعة أصابعها الرفيعة على أصابع البيانو ناظرة إليَّ في ابتسام وفرح، فتبدو كأنها سيمفونية عذبة تشدو بها حورية جوار البحر.

فور أن لمحنا مدير الفندق حزن بشدة من مرآنا خارجين والحقائب بأيدينا، أمسك دموعه أمامنا حرجًا لكن عينيه كانتا فاضحتين لما يعتمل داخله، أخذ يُقبِّل وليد.وهو يلعب بالبيانو في صخب ثم حمله من ذراعيه ورفعه عاليًا وسط صراخ وليد وضحكاته، كنت أعلم أنه يحبُّ حبيبة ويعتبرها كابنته، وكنت أرى القلق في عينيه كثيرًا عندما أتيت هنا أول مرَّة، لكنه عرفني جيِّدًا واكتشف أنه لا خوف مِنِّي على حبيبة، وكانت حبيبه تعتبره كوالدها

الذي لم يعد موجودًا، تحب مجالسته كثيرًا، وكنت أحيانًا أقوم من نومي قلقًا في ساعة متأخرة من الليل فأخرج إلى ردهة الفندق أدخِّن أو آنس بمن هو ساهر من العمال فيها، فكنت أجدهما جالسين يتحدثان في خفوت تمامًا كأب وابنته، ولم أكن أفهم أبدًا كيف كانت تشتكي حبيبة من عدم محبَّة الناس لها طوال عمرها وهي جميلة طيبة هكذا، لم أفهم شكواها هذه مهما حاولت.

اقتربت حبيبة منه بعد أن وضعت حقيبتها أرضًا ثم مدَّت يدها وسلَّمت عليه فبدا مهزوزًا أمامها يهرب بعينيه منها فأقبلت هي عليه واحتضنته وقبَّلته في رأسه وقالت:

ـ أشهر قليلة وأعود، ويعود وليد ليضايقك ويضايق النزلاء في الفندق.

لم يفلح العجوز الطيب في مواراة دموعه أكثر، فهربت منه دمعة سريعة على خدِّه مسحها بيده بهدوءٍ وقال:

ـ تعودان بألف سلامة، لا تضيعي رقم الهاتف، ولا تنسي أن تطمئنينا عليكِ وقت وصولك.

فردَّت حبيبة بابتسامتها البريئة كالطفلة:

ـ بل سأضيعه.

ثم ضحكت وأضحكته معها بين دموعه، وتابعت:

ـ تعلم أني أحفظه كاسمي، أرجوك لا تقلق عليَّ.

ثم سلَّمنا عليه جميعًا وسألني إن كنت سأعود الليلة أم لا، لم أكن أعرف حقًّا ماذا سأفعل فقلت له «في الغالب سأعود»، فالتفتت إليَّ زُهرة بحدة وتبعتها حبيبة في نظرات لوم، قالت زُهرة:

ـ اتفقنا أنك ستعود معنا.

فرددت عليها دون أن أنظر لها:

ـ سنتحدَّث في ذلك بعد ذهاب حبيبة.

ثم خرجنا إلى الشارع.

كانت سيارة منير جوار الرصيف الصغير في ميدان سعد زغلول، يفصل التمثال بينها وبين البحر والكورنيش، وكانت زهرة تمسك بحبيبة من ذراعها وكأنها تخاف أن تفلت منها وحبيبة تمسك بيدها الأخرى يد وليد الصغيرة ويؤرجحان يديهما سويًا، وكنت أتبعهم أنا

ومنير نجرُّ أقدامنا في تثاقل وهم، وقفنا أمام السيارة، أخذ منير الحقائب ووضعها بالسيارة، مددت يدي إلى مقبض باب السيارة كي نركب فقالت لي حبيبة في صوت متوسل:

- نور، أرجوك لا تفعل هذا، لقد اتفقنا الليلة الماضية، هذا آخر طلب لديَّ في مصر. أرجوك، لا تزِدْني همّا.

نظرت لها في صمت، ومرَّت عيني بعينيها توسلًا أن تتركني أذهب معها للمطار، لكنها ظلَّت ناظرة إليَّ في تحدٍّ وعِنادٍ يغالبهما حزنٌ عميق، ووقف منير وجواره زُهرة مكانهما لا يفهمان شيئًا من كلامها.

في الليلة السابقة كنت وحبيبة نجلس متلاصقين كجسدٍ واحدٍ عند النافذة المُطِلَّة على البحر في غرفتي، ويلعب الهواء بالستائر حولنا كأنفاسنا التي تلهو بصدرنا وسط حزننا الشديد، كان الصمت قد غلبنا بعد حديث طويل عن كيفية قضاء أيامها في أمريكا ورحلة البحث عن والدها وما ستقوله له وتدبُّرها أمر وليد ورعايتها له هناك وهي وحدها ومشاكل الدراسة والعمل، بعد

صمتنا الطويل مررت حبيبة أصابعها الرقيقة في شعري وقالت وهي تنظر إليَّ:

ـ هل تعلم حقًّا أكثر ما سيقلقني هناك؟

مددت يدي وتناولت أناملها الرقيقة وقبَّلتها في صمت وأنا أنظر إليها مليًّا، ثم ملت بوجهي ناحية وليد النائم كالملائكة أمامنا، قلت لها:

ـ أعلم.

فقالت:

ـ ما هو؟

ـ أعلم أنكِ ستكونين قلِقة عليَّ أكثر من أي شيء آخر يا حبيبة، ستقضين أيامًا صعبة حتى تعثري على والدك، ستشكين في كل جليسة أطفال ولن تطمئني على وليد مع أي منهن، وستأخذينه معك في كل مكان لكنك ستظلين قلقة عليَّ رغم ذلك أكثر من نفسك ومن وليد، ستقضين الساعات والساعات في دراسة صعبة ومعقدة من أجل هذه الشهادة التي تبغينها وتجرين خلف الساعات حتى توفِّري الوقت اللازم للدراسة والعمل التطوعي ورعاية وليد، لكنك ستقتنصين كل

دقيقة لتحادثينني فيها أو تفكري فيَّ بينك وبين نفسك، تدركين مثلي تمامًا أن هذا التماسك وهذه القوة التي ندَّعيها سوف تسقط بعد ساعات من الآن فور أن تقلع الطائرة، وسيقع كل منا فريسة الحزن والغربة، لكنك رغم ذلك ستقلقين عليَّ أكثر من قلقك على نفسك، وهل تعلمين لماذا؟ ليس لأنني أستحق كل هذا أو حتى بعض منه، إنما لأنك ملاك، ولا تفكرين في نفسك أبدًا.

نظرت إليَّ نظرة طويلة ولمعت الدموع بقوة في عينيها وكنت أعلم أنها لا تحب البكاء أمام أحد مهما كان سبب البكاء، أشفقت عليها من هذا الشعور الذي يشتعل داخلها، فضممتها إليَّ في رِفْق وأرحتها على صدري ثم طوَّقتها بيدي تمامًا وأخذت أربِّت عليها في هدوء، فقالت بصوتها المخنوق داخل صدري:

ـ هل تنفِّذ لي طلبًا؟

رددت دون تفكير:

ـ أيا كان ما تطلبين يا حبيبة.

اعتدلت حبيبة وقالت وهي تطرق أرضًا:

ـ لا أريدك أن تذهب معي غدًا إلى المطار، سنذهب إلى الملجأ سويًّا لأودع وليد ثم نعود كلنا إلى هنا نأخذ الحقائب وأتركك مع زُهرة ويكفي أن يوصِّلني منير إلى المطار، أرجوك لا ترفض لي هذا الطلب.

قلت لها محاولًا الفهم:

ـ وما الذي يجعلكِ تريدين ذلك؟

ـ لا أحبُّ الوداع، سوف أتمزَّق من وداعنا في المطار، لا تعلم كم سيكون هذا صعبًا عليَّ، سأشعر حقًّا وقتها أنني مسافرة ولن أراك ثانية.

ـ وما الفارق بين الوداع هنا أو في المطار؟

ـ الفارق كبير لديَّ، رُبَّما لن تفهمني لكني سأحتفظ بصورتك وأنت تودِّعني هنا في قلبي حتى أعود وأتصبَّر بها على أيامي هناك حتى أعود، لكن وداعنا في المطار سيزيد من قسوة السفر.

لم يقنعني كلامها رغم أنني فهمته جيِّدًا، كنت أشعر أن هناك أمرًا آخر لا تريد حبيبة أن تقوله، بقيت صامتًا ولم أقل شيئًا فوضعت يديها حول وجهي وقرَّبتني من وجهها وقالت:

ـ هل تعدني؟

نظرت إليها وأخذت أدقِّق في ملامحها وأحاول أن أقرأ في عينيها سبب هذا الطلب، ثم قبَّلتها في رأسها وضممتها إلى صدري ثانية ولم أعدها بشيء.

الآن تطلب مِنِّي حبيبة أن أنفِّذ ذلك الوعد الذي لم أقطعه على نفسي بالأمس، لكنها يبدو وكأنها قد اعتبرتني وعدتها به ضمنيًا بقبلتي لها، غلب زُهرة فضولها وسألتنا ونحن واقفان أمام السيارة وقد صمتنا:

ـ هل سيشرح لي أحد ما لا أفهمه؟

نظرت إلى حبيبة أستجديها مرَّة أخيرة لكنها ظلَّت متمسكة برغبتها الغريبة هذه، قلت لزُهرة مفسرًا:

ـ حبيبة تريد أن تودِّعنا هنا وتذهب مع منير فقط إلى المطار.

تغيَّرت ملامح زُهرة فجأة وعقدت حاجبيها في غضب وقالت لحبيبة إنها ترفض هذا بشدة، مالت عليها حبيبة تحتضنها ولاحظت أنها همست في أذنها بشيءٍ ما، فصمتت زُهرة قليلًا ثم أفلتت حبيبة في سكون ونظرت إليَّ، ثم دمعت عيناها، ولم يعلِّق منير

بشيء لكنه أسند ظهره علىٰ جانب السيارة وأطرق أرضًا في حزن.

قالت زهرة وقد بدأت الدموع غزيرة تملأ عينيها وباتت بالكاد ترىٰ أمامها:

ـ هكذا يا حبيبة؟ أشعر أنك خُطِفتِ مِنِّي فجأة.

فقالت حبيبة وهي تحتضنها مرَّة ثانية وثالثة وتقبِّل رأسها وخديها وتربت علىٰ كتفها في رقة دون أن تترك وليد من يدها:

ـ لن يأخذني منكم شيء، أرجوكِ يا زُهرة لا تفعلي معي هذا، لا أريد أن أبكي أمام أحد.

ثم خانتها عيناها وبكت، وغرقت زُهرة في البكاء أكثر.

بدأت يدي اليسرىٰ ترتعش بخفة فأخفيتها خلف ظهري وخفت أن تلمح حبيبة ذلك، تمتمت في سري راجيًا الله: «أرجوك.. امنحني الوقت فقط كي أودِّعها»..
ثم قلت وقد توترت بشدة من بكائهما ومن النوبة التي قد تهجم في أي لحظة الآن:

ـ ستتأخرين يا حبيبة.

وكانت شفتاي ترتجفان وأنا أتحدث فخرج كلامي غير واضح لأحد.

نقلت حبيبة يد وليد إلى يد زُهرة ثم جرت إليَّ وارتمت على صدري تبكي، طوَّقتها برفق وربتُّ عليها وكان المارة ينظرون إلينا في فضول وهم يعبرون الطريق، نزَعتُ حبيبة برفق بعد أن وجدت قدمي لا تقويان على حملي وخفت أن أسقط أمامهم الآن فتتعقد الأمور أكثر، قبَّلتُها برفق في جبهتها وحرَّكتها في هدوءٍ إلى باب السيارة وهي ممسكة بي ولا تتحرَّك وقد ازداد تعلُّقها برقبتي، ثم اقتربت زهرة ووليد في يدها وأخذتها مِنِّي بصعوبة ثم عانقتها عناقًا سريعًا وأدخلتها إلى السيارة كالطفلة ومن بعدها وليد وركب منير دون أن ينطق بكلمة، ثم أشار إليَّ بيده. وكانت حبيبة تنظر إليَّ من داخل السيارة وهي باكية، ثم رحلت.

بقيت مكاني أنظر إليها وهي تبتعد وتغرق بين السيارات إلى أن ابتلعها الشارع، خارت قواي فجلست أرضًا

ومدَّدت قدميَّ أخفف من ارتعاشاتها ووقفت زهرة جواري تجفف دموعها وتنظر إليَّ في قلق، ثم بدأت النوبة.

* * *

كان هذا منذ متى؟ لم أعد أذكر، كان بالأمس أو اليوم، كان يحدث الآن ويحدث منذ أيام المزرعة، لا يهم، كان يحدث، وكنت أنا من تسبَّب في كل شيء كل مرَّة.

في الليلة التالية لاقتحام نجوى خلوتي فوق سطح مستشفى الإسكندرية أسند إليَّ قسم الرعاية ذلك المريض الذي أتى في حادث اليوم السابق، كان توقُّع الأطباء بتحسُّن حالته شِبه منعدم، ولا أحد غيري كان ينتظر حدوث المعجزات للمرضى في هذا القسم، ولشدة سوء الحالة وفقدان الأمل في تحسُّنها أسندوا إليَّ مهمة رعايتها ومتابعتها.

عندما رأيت حالة المريض أول مرَّة عرفت أنني لن أتركه وحده، كان عجوزًا وحيدًا، ولم يكن معه أحدٌ من أهله أو أصدقائه، وتسبَّب الحادث في كسور عدة إضافة إلى إصابته، لم يكن معه أي أوراق نستدلُّ بها عليه أو على أحد من معارفه، عُلِّقت له المحاليل المعتادة وأجريت الفحوص التقليدية ووُضِع على قائمة انتظار العمليات الطويلة.

بعد متابعتي له بأيام كنت أرجو أن تتحسَّن حالته بشدة، توقَّعت أنه على أفضل تقدير قد يستعيد القدرة على تحريك طرف أو طرفين مما فقدهم نتيجة الحادث، لكن ما كان يريبني فيما يخصُّ حالته هو صمته التام منذ أتى، كان يرفض الحديث مع أحد، ولم ينطق بكلمة منذ أن أفاق من الحادث سوى التأوُّه نتيجة ما به من وجع، لكنه لم يخبرنا أي شيء عن نفسه، وظنَّ بعضنا أنه فقد الذاكرة نتيجة الحادث، لكني كنت أرى في عينيه إدراك كامل لما حوله، وفطنت مبكِّرًا عن الجميع إلى أنه يخفي أمرًا ما، تابعت حالته عن قُرب أكثر، حتى تحدَّث، وكنت أنا أول من تحدَّث معه، أذكر هذا كأنه كان الليلة الماضية، أراه بعيني كلما صمتت وشردت عمَّن هم حولي وذهبت بوجعي إلى هناك، إلى ذلك الممرِّ الكئيب في غرفة العناية الواسعة، أكاد أسمعه كل دقيقة عندما نادى باسمي وأنا أفحص الحالة المجاورة لفراشه وهو يقول بصوتٍ عميق وكأنه قادم من القبور:

ـ دكتور نور.

كان صوته مرتعشًا وضعيفًا لكنه كان واضحًا، التفتُّ إليه فوجدته ينظر إليَّ مباشرة فابتسمت له قائلًا:

ـ حمدًا لله على سلامتك، كنت أعلم أنك ستتكلم.

أطرق بعينيه في أسفٍ وكانت عيناه وبعض عضلات وجهه هم تقريبًا كل ما يمكنه أن يحرِّكه في جسده السجين، سألني بصوته الواهن وهو يتفرَّس في وجهي:

ـ أريد أن أدخِّن سيجارة، هل تساعدني في ذلـك؟

رددت عليه وأنا أتابع الابتسام مخاطبًا وده:

ـ تعلم أن هذا ممنوع هنا، نحن في قِسم الرعاية، وحالتك لا تسمح أبدًا بالتدخين، أعدك عندما تتحسَّن أن أساعدك.

قال بيأس:

ـ تعلم أن حالتي ليس لها علاقة بالتدخين، أعلم ما بي جيِّدًا، لست جاهلًا.

ـ قل لي من أنت إذًا، ولماذا لا تتكلَّم مع أحد؟ نريد أن نخبر أهلك ونطمئنهم عليك، قضيت هنا أيامًا كثيرة ولم يسأل عنك أحد، وليس معنا أية أوراق تخصك نستدلُّ بها على شخصيتك، هل أنت من الإسكندرية؟

لم يردّ، أغلق عينيه وسكت عن الكلام مرَّة ثانية لكني

لم أيأس عن محاولة جذبه للحديث من وقتٍ لآخر، كنت أحيانًا قليلة أسأله عن حالته أثناء الفحص اليومي متصنِّعًا العفوية، فيتجاهلني مرَّة ويرد بتلقائية دون أن ينتبه مرَّة أخرىٰ، وتعوَّدت أن ألقي عليه السلام كل مرَّة أغيب عن القسم وأتركه مع زميل آخر، وكنت أسعد كثيرًا عندما يردُّ عليَّ التحيَّة.

بعد مرور عدة أيام تأكد الأطباء من سلامة حالته العقلية، وأدركنا جميعًا أنه يرفض الإفصاح عن شخصيته لسبب ما، ظنَّ البعض أنه رُبَّما ارتكب جريمة ما وهو خائف من العقاب، حاول العديد طمأنته من هذه الناحية إلا أنه كان يأبىٰ تمامًا أن يردَّ علىٰ أي سؤال يوجَّه إليه، وكانت حالته أسوأ من أن يضغط عليه أحد أو يجبره علىٰ الحديث.

كنت أجلس جوار سريره ذات ليلة أقلِّب في الجريدة وأقرأ بعض الأخبار من وقت لآخر بصوت مسموع رُبَّما يؤنس هذا وحدته ولو قليلًا، وأدركت أنه يتابع قراءتي حينها بشغف أكثر من كل مرَّة، وأثناء القراءة قال لي فجأة:

ـ هل تجيبني بصراحة يا دكتور؟

سُررت لسؤاله رغم معرفتي التامة بما سيليه من تساؤلات عن حالته، قلت له بابتسامة واسعة كي أطمئنه للحديث:

ـ سلْ ما تشاء.

فقال بإيجاز:

ـ هل هناك أمل؟

رددت مسرعًا دون تفكير:

ـ دائمًا هناك أمل.

ـ ليس هذا ما أعنيه، ما الذي تملكه من معلومات مؤكدة عن حالتي، وقل لي بصراحة أرجوك، هل هناك أمل في أن أتحرَّك ثانية؟ أعني أن أقوم من هنا، أن أخرج من المستشفى؟

صمتُّ عاجزًا عن الردِّ، أعلم أن ما لديَّ من معلومات لن يسرَّه، لكني بخبرتي الضئيلة كنت أعرف أن هناك تحسُّنًا ضعيفًا جدًّا قد يطرأ عليه بعد ستة أشهر، حاولت أن أبدو هادئًا وواثقًا من كلامي وقلت:

ـ إن شاء الله ستتحرَّك ثانية، كن واثقًا برحمة الله.

ثم تابعت مداعبًا:

ـ ستقوم من فراشك وندخِّن السجائر سرًّا دون أن يعلم رئيس القسم عن ذلك شيء، لكن لا تقُل ذلك لأحد من التمريض، فهم يكرهونني هنا بشدة ولا أعرف لذلك سببًا.

قال متابعًا كلامه وكأنني لم أقل له شيئًا:

ـ سألتَ العديدين هنا، قال أكثرهم تفاؤلًا إنني يمكن أن أحرك يدي بعد فترة؟ هل هذا صحيح؟ دعك من المجاملة والطمأنة الكاذبة، أريد الحقيقة فقط.

صمتُّ ثانية ووددت لو أستطيع أن أقول له إن هذا شديد الصعوبة، لكنه ليس بمستحيل، لكني قلت:

ـ بكل تأكيد، ويلي ذلك قدماك بإذن الله.

ـ ثم أعود وألعب الكرة في الشارع أليس كذلك؟

قالها ساخرًا وأحرجني بشدة، وعلمت أنه يعرف عن حالته الكثير، فقلت له متنهدًا:

ـ سأخبرك بصراحة، حالتك شديدة الصعوبة حقًّا،

لكن التعافي ليس بمستحيل، صدِّقني، لي هنا أكثر من عامين وقد رأيت من هم أكثر سوءًا يخرجون ركضًا على أقدامهم، تمسَّك بالأمل ودعْ كل شيء لله، كل ما يمكنني أن أؤكد لك أنه حقيقة هو أنك ستستطيع أن تحرِّك يدك على الأقل عمَّا قريب بإذن الله.

صمت قليلًا بعد كلامي ثم قال:

ـ أنا أصدِّقك، لكن أرجوك لا تكذب عليَّ فيما يخص حالتي في شيء، لا تقلق لم يعد شيء يخيفني في هذه الدنيا.

أطرقت بنظري صمتًا فتابع قائلًا:

ـ شكرًا لك، أنت إنسان طيب.

ثم أغمض عينه معلنًا إنهاء فترة الفضفضة القصيرة هذه، أشفقت عليه أكثر بعد تلك المحادثة، كان واضحًا من طريقته في الكلام أنه على قدرٍ كبير من العلم، وكانت ثقافته واضحة دائمًا أثناء قراءتي الأخبار له من وقتٍ لآخر، كان هذا واضحًا بشدة في تعليقاته القليلة وكلامه الهادئ المرتَّب، لم يكن يقضي الليل باكيًا كحالات كثيرة هنا، وكان يكتم إحساس الألم الذي يجري في جسده وأكتشفه

أنا بالصدفة أثناء فحصي له، فأزيد له من جرعة المسكِّنات بعد معاتبته على صمته.

تطوَّرت علاقتي به بعد فترة، وأصبح بيننا هامش ضئيل من الصداقة أحببته كثيرًا، في البداية كان يدفعني الفضول إلى الثرثرة معه، ثم وجدتني أنجذب إلى شخصيته الطيبة وحديثه الراقي، واكتشفت أنني قد أتعلَّم منه أشياء كثيرة في هذه الحياة، وكان حماسي تجاه تحسُّن حالته يلتهب، فكنت أدعو له كثيرًا، طلبَ مِنِّي أكثر من مرَّة وألحَّ في الطلب أن أساعده في أن يدخِّن، وددت حقًّا لو أمكنني أن أساعده في ذلك، لكن هذا كان يتطلَّب مشقة تحريك السرير خارج الغرفة، ونقل الأجهزة المتصلة به أو فصلها جميعًا عنه، ولم يكن مقبولًا أبدًا أن يُدخِّن مريض سيجارة داخل غرفة معظم من فيها هم من مرضى القلب، لكنه بعد ذلك بفترة توقَّف عن ذلك الطلب، وعندما سألته عن ذلك قال لي:

ـ أنا أكثر إرادة منك، لقد أقلعتُ عن التدخين.

ثم ضحكَ ساخرًا، وكانت هذه أول مرَّة أراه يضحك فيها، لم أصدِّقه لكنني لم أشأ أن أضايقه، فقلت له:

ـ هذا رائع، هذه من فوائد دخول المستشفى بالمناسبة.

وضحكت مجاراة له في سخريته فلم يضحك ولم يعلِّق على دعابتي، سألني مفاجئًا:

ـ لماذا أنت وحيد؟

باغتني سؤاله الغريب والذي لم أجد له أية مناسبة وودت ألا أردَّ، قلت هاربًا منه بعد صمتٍ قصير:

ـ لستُ وحيدًا، قلت لك مرَّة إنَّ لي أختًا اسمها نوران.

ـ تعلم ما أقصد، ليست هذه إجابة هذا السؤال.

ثم أغلق عينيه بقوة وكأنه يريد أن يفركها بيديه المشلولتين وتقلَّصت عضلات وجه حتى باتت تجاعيده الغائرة أكثر وضوحًا وانتشارًا، ثم كرَّر سؤاله بحدة أكثر:

ـ لماذا أنت وحيد يا نور؟

كانت هذه أول مرَّة يقول لي نور دون أن يسبقها بـ«دكتور»، ورقَّ قلبي لمناداته لي هكذا. وقفز وجه والدي إلى رأسي فجأة، واكتشفت أنَّ بينهما شبهًا ليس بقليل، كان سؤاله معتادًا إليَّ من الغرباء، ولم تكن لديَّ

إجابة عنه، ولا أعرف بم أرد حين أُسأل هذا السؤال، أنا نفسي لا أعرف لماذا أنا وحيد، فقط أعرف أنني لا أريد أن أكون مع أحد، رُبَّما أحب أن أكون مع نوران لو تقبل أن تترك منزل المزرعة وتأتي لتعيش معي، وربما أحبُّ قضاء الوقت مع منير، لكني حقًّا لا أعرف ذلك السبب الخفي الذي يجعلني أفضِّل العزلة عن البشر.

كان صمتي قد طال، فبادرني بالسؤال بطريقة أكثر مباشرة:

ـ أليس لديك حبيبة؟

رددت عليه ببساطة قائلًا:

ـ لا، ليس لديَّ.

ـ لماذا؟ ألا تريد أن تُحِب وتـُحَب؟

ـ لا أعرف، لم أفكِّر في ذلك كثيرًا، أنا فقط ليس لي حبيبة، ليس بالموضوع المهم لديَّ.

ـ بل هذا هو أهم موضوع للإنسان، أتحب أن تعيش وحيدًا؟

فكرت قبل أن أردَّ عليه، السؤال الذي أسأله لنفسي

دائمًا ولا أعرف له ردًّا، قلت له أول ما جال بخاطري بلهجة مترددة:

ـ نعم، أعتقد ذلك.

ـ ألا تخاف الوحدة؟

ـ أظنُّ أنني لا أخافها، رُبَّما أحبها أيضًا، يوتِّرني وجود أحد جواري طوال الوقت، رُبَّما أحبُّ الناس والشارع والمقاهي والمطاعم، لكنني لا أجد راحة في أن أعود للمنزل لأجد أحدًا بانتظاري، أو أظل في المنزل منتظرًا أحدًا قد يأتي وقد لا يأتي.

قال بشيء من الفهم:

ـ إذًا أنت تخاف من الفقد ولست تحب الوحدة، هناك فارق كبير.

ـ لا أعرف، رُبَّما.

صمت ثانية وبدا أنه يفكِّر في شيءٍ ما، نظر إلى سقف الغرفة وقال بشيء من الشرود:

ـ هل تسمع من رجل قارب الموت ولم يعد لديه من شيء في هذه الدنيا؟

ـ بالطبع، أحب أن أسمع منك دائمًا.

ـ لا يوجد في هذه الدنيا شعور أقسى وأسوأ من الوحدة، رُبَّما لا تُدرك هذا الآن، فأنت شاب وما زلت تكتشف الدنيا، وغير مجبَر على وحدتك، لكن لو مضت بك الدنيا وصارت الوحدة إجبارًا وليست مجرَّد اختيار سوف تندم كثيرًا على تلك الأيام التي أضعتها وحيدًا ومنعزلًا عن الأصدقاء والناس كما أراك تفعل الآن، صدِّقني ستندم كثيرًا.

ـ لم أقل لك إنني أنتوي أن أقضي ما بقي من عمري وحيدًا، لكنني أجد راحتي في وحدتي الآن، ولا أعرف ما الذي سأصير عليه عندما أكبر. رُبَّما أتزوَّج وتصير لي عائلة كبيرة، وربما أظلُّ وحيدًا هكذا وأكون سعيدًا أيضًا، لا أعرف. حقًّا لا أعرف.

ـ وهل أنت سعيد في وحدتك الآن؟ أظنُّ أنك لا تحبها كما قلت، إنما أنت مرتاح لها، وهذا فارق كبير أيضًا، أنت تخلط بين الراحة من عدم مواجهة مخاوف الحياة العادية وبين حب الوحدة يا بني، والفارق كبير.

ـ لا أعلم إن كنت سعيدًا أم لا، كما قلت لك أنا

مرتاح وهذا يكفيني الآن.

- ها أنت قلت، الآن، وأنا لا أتكلم عن الآن.

- أنا لا أفكر في المستقبل عادة، الحياة بالنسبة لي هي الآن والآن فقط، لم أكن سعيدًا في الماضي، وأنا الآن غير حزين، وهذا يكفيني.

صمتَ بعد جملتي الأخيرة صمتًا طويلًا، وانتظرت منه أن يُعقِّب على كلامي فلم يفعل، نهضت من جلستي وقمت أتفحَّص الأجهزة المتصلة به بشكل روتيني ثم قمت أفحص بقيَّة المرضى، بعد أن انتهيت منهم هممت أن أخرج من الغرفة، وعندما عبرت أمام فراشه وجدت نجوى جواره وكانت ممسكة بسيجارة في يدها تنوي إشعالها، وقفت أمامها وبدا شيء من الارتباك على وجهها، بينما وجدته هو يبتسم في خبث، صاحت نجوى فيه بغضب:

- ألم تقل لي إنه قد غادر؟

فردَّ عليها وهو ما زال يبتسم ابتسامته الخبيثة:

- ظننته رحل.

أخذت أنظر إليهما في غضب وقد وتَّرني وجودها

تمامًا، قلت له بلومٍ شديد وأنا أنظر إليها:

- الآن أعرف لماذا لم تعد تطلب مِنّي التدخين.

فقالت نجوىٰ وهي تشير إليَّ بالسيجارة وبطريقتها المائعة:

- تفضَّل!

لم أردَّ عليها ولم أعرف هل أمنعهما من ذلك أم ماذا أفعل؟ وكان أكثر ما يُثير فضولي هو كيف ومتىٰ نشأت بينهما تلك المساحة من الصداقة تلك التي تسمح لها بمساعدته علىٰ التدخين؟ وأدركت وقتها أنها كانت تترصَّدني فعلًا كما شككت فيها بعد محادثتنا السابقة، وقفت عاجزًا عن أخذ أي ردِّ فعل، وفي النهاية انصرفت في غضب، وقد أخفيت بيني وبين نفسي تلك القشعريرة الممزوجة بالنشوة التي غمرتني عندما رأيتها.

لم أفتح معه هذا الموضوع بعد ذلك، تركت له تلك المتعة البسيطة كمتنفَّس له عمَّا به، وكنت أتعمَّد أن أتركه وحيدًا في تلك الأوقات التي أعلم أن نجوىٰ قد تمرُّ عليه، ما أثار تساؤلي حقًّا هو ما الذي أرادته نجوىٰ من وراء ذلك، لم تحاول أن تتقرَّب إليَّ ثانية

رغم تردُّدها اليومي على القِسم، ولاحظت بعد وقت أن حديثها مع المريض بدأ يأخذ وقتًا أطول من المعتاد، لكنني لم أتضايق من ذلك، بل سُررت لوجود شخص آخر غيري يؤنس وحدته من وقتٍ لآخر.

ذات مساء كنت قد وصلت إلى القسم متأخرًا فوجدت تجمُّعًا في القسم عند فراشه، وكانت نجوى واقفة تضع كلتا يديها في معطفها وتنظر في تركيز إلى ذلك الجمع من الممرضين والأطباء جوار فراشه، أزحت ممرضة واقفة تحجب الرؤية عَنِّي، فوجدت طبيب الطوارئ ممسكًا بذقن المريض ومدخلًا إبهامه وسبَّابته في حلقه وكانت الأجهزة جوارنا لا تكفُّ عن الصفير، أدركت من الوهلة الأولى أن المريض قد بلع لسانه، وكان الطبيب يحاول إعادته إلى مكانه الطبيعي، هرعت لمساعدته وجلبت أنبوب التنفس لتحفيز رئتيه على استعادة حيويتهما إن كان قد توقَّف عن التنفس فترة طويلة، وصرخت في نجوى أن تفعل شيئًا غير المشاهدة فلم تُحرِّك ساكنًا.

أفاق المريض بعد قليل وعاد رويدًا رويدًا إلى حالته الطبيعية، ووبَّخنا مدير القسم جميعًا نحن وطاقم

التمريض على هذا الإهمال الجسيم بتركنا مريضًا مشلولًا وحيدًا هكذا دون أحد جواره، صرحت إحدى الممرضات بأن الدكتورة نجوى كانت معه، فوبَّخ الممرضة بشدة وصبَّ كل غضبه عليها، وقال لها إن نجوى ليست تابعة للقسم كي يـُترك لها متابعة المرضى به، ودافعت نجوى عن نفسها بأنها كانت خارج القسم وقت حدوث ذلك، شعرت أن اللوم كله كان موجَّهًا لي بطريقة غير مباشرة رغم أن الكلام موجَّه إلى الجميع فلم أنطق بكلمة.

بعد انصرافهم جميعًا جلست جواره أراقبه وأطمئنُّ على استقرار حالته، مضى وقت طويل ثم سعل سعالًا خفيفًا، فعدلت من وضع رأسه على الفراش وانتظرت منه أن يتكلم معي فلم يفعل، طال صمتنا وكنت أريده بشدة أن يتكلم، لكنه لم يفعل، قلت له وأنا أربِّت على يده:

ـ حمدًا لله على سلامتك، كُتِب لك عمرٌ جديد.

نظر إلى يدي بشيءٍ من الحِدَّة، وشعرت بأنه يريد أن يسحبها لو كان يستطيع ذلك فسحبت يدي حرجًا،

وصمتُّ ثانية لكنني لم أستطع أن أكتم السؤال الذي يدور داخلي، قلت له راجيًا أن يجيبني بالحقيقة:

ـ قل لي إنك لم تفعلها متعمِّدًا.

وكنت أعرف أنَّ بعض المرضى اليائسين قد يحاولون الانتحار بابتلاع ألسنتهم وهو أمر شِبه مستحيل لكنهم أحيانًا ما يحاولون ذلك لشدة يأسهم ورغبتهم في مفارقة الحياة، خاصة هؤلاء الذين لا يستطيعون الحركة، شككت في ذلك عندما أتيت ووجدته هكذا، وكنت أرغب حقًّا أن أعرف، لم يردَّ على سؤالي، فكررت السؤال ثانية وأنا أقترب منه أكثر، فقال بصوتٍ واهنٍ مرتعشٍ من أثر الاختناق:

ـ هل كنت ستفتقدني لو رحلت؟

ربَّتُّ على يده مرَّة أخرى وكانت شديدة البرودة وقلت له مؤكدًا:

ـ بالطبع، لم أكن لأسامح نفسي لو حدث لك شيء.

ـ لكن ألم تعتد على ذلك هنا؟

وكانت عيناه تدوران في محجريهما حول الغرفة،

قلت له:

ـ لا أحد يعتاد الموت، أفقد الكثير من المرضى هنا، أحزن عليهم وأفتقدهم جميعا وأسلِّم أمري لله، لكن أنت، أنت لست كأي مريض، لم تعُدْ كذلك بالنسبة لي، رُبَّما لا تفهمني، لكني لم أكن لأسامح نفسي حقًّا، كيف أتركك كل هذا الوقت؟ أنا طبيب مهمل حقًّا، ورغم ذلك لا أتوقف عن لوم الأطباء والممرضين على إهمالهم، لقد اكتشفت اليوم أنني مثلهم جميعًا، ورُبَّما أسوأ، أرجو أن تسامحني، لن أتركك وحدك ثانية.

لم أدرِ بنفسي إلا ودموع قليلة تغادر عيني وأنا أتكلم، ووجدته ينظر إليَّ في طيبة وشفقة كما لو كنت أنا المريض، ولم أعرف ما الذي جعلني أتمسَّك به بشدة هكذا دون سائر المرضى، وكان وجه أبي يقفز أمامي كل دقيقة فأطرده ليختفي قليلًا ثم يعود ليحضر بقوة بيننا ونحن جالسان، قال لي بصوته المرتعش مطمئنًا:

ـ لا تقلق عليَّ يا نور، لن يحدث لي شيء، أنا بخير صدِّقني.

ـ نعم، لن يحدث لك شيء، أعدك بذلك، لم ينجِكَ

الله من ذلك الحادث البشع كي نقتلك نحن هنا بإهمالنا.

ـ ذلك الحادث! هل تؤمن بأنه كان حادثًا حقًّا يا نور؟ البعض هنا يظن أنني كنت أحاول الانتحار. سائق السيارة قال لهم إنني ألقيت بنفسي أمامه.

اعتدلت من جلستي وقلت له متوترًا:

ـ ألم يكن حادثًا؟

فتابع بذات الغموض الذي يغلب معظم حديثه:

ـ أنا الذي يسأل، ماذا ترىٰ أنت؟

ـ بالله عليك لا تفعل معي ذلك، قل لي ما بك، دعني أساعدك.

قال بهدوء وبصوت أكثر وضوحًا:

ـ لا أحد يستطيع مساعدتي في هذا العالم، مضىٰ وقتٌ ذلك منذ زمن، لكنني أثق بك يا نور، أثق بك تمامًا، هل تساعدني في شيءٍ مهم؟ هل تلبِّي لي طلبًا أخيرًا؟ خدمة لرجل عجوز قعيد قد يغادر الحياة في أية لحظة؟

انتبهت تمامًا وتحفَّزت كل حواسِّي وقد شعرت بأنه

سيتكلم أخيرًا فقلت له:

ـ سأفعل لك أي شيء تطلبه، أي شيء، فقط اطلب.

ـ هل يمكنني أن أثق بك؟ هل تحفظ سرًّا؟

ـ نعم، ثق بي تمامًا.

ـ حسنًا، افتح هذا الدرج المجاور للفراش.

مددت يدي وأنا جواره وفتحت ذلك الدرج الذي يقصد، ولم يكن به شيء سوىٰ مفتاح معلَّق بميدالية بسيطة، ولم يكن به أي شيءٍ آخر، مددت يدي وتناولت المفتاح بين أصابعي وقلت:

ـ ليس به شيء سوىٰ هذا المفتاح، هذا هو الشيء الوحيد الذي وجدناه معك عندما أتيت هنا.

قال وقد بدا صوته غاية في الجدية والحزم:

ـ احتفظ به معك واقترب مِنِّي أكثر حتىٰ لا يسمعنا أحد، منذ هذه اللحظة أنت مسؤول عن تلبية طلبي بمنتهىٰ الأمانة والدقة، ولن يسامحك الله لو خنت عهدك لي.

ـ أقسم لك، لن أخذلك أبدًا.

أشار إليَّ بشفتيه أن أخفض صوتي ثم تابع:

ـ اسمعني جيِّدًا إذًا ولا تقاطعني.

ثم قال وهو يخفض من صوته إلى أقصى درجة:

ـ هناك، وعلى بُعد ناصيتين من هذا المستشفى، تعيش ابنتي الوحيدة.

قلت له وقد فاجأني كلامه:

ـ ألك ابنة؟

فقال بتنهُّدٍ:

ـ نعم، حبيبة.

تعجَّبت من هذه المعلومة وسألته بلهفة:

ـ ولماذا تخفي عنها ما حدث لك؟

قال لي وهو يزفر في ضيق:

ـ نور، من فضلك، طلبت منك ألا تقاطعني، اسمعني فقط ولا تسأل عن أي شيء، فقط عندما أنتهي من كلامي لك أن تعتبر نفسك لم تسمع شيئًا أو ترفض تنفيذ طلبي منك أو حتى أن تخون عهدك لي

وتفضح أمري، أنت حُرٌّ فيما تفعل، لكن لا تقاطعني الآن أرجوك.

فصمتُّ تمامًا احترامًا له وتركته يكمل.

مع مرور الأيام وبعدما حكاه لي كنت أنتظر بترقُّب وشغف أي تحسُّن يطرأ عليه، أتابع حالته بمنتهى الدقة، وأقرأ تقاريره الطبية كل مساء، كانت صحَّته تتحسَّن ببطءٍ شديد، وكنت أرغب في تحسُّن كبير تجاه وظائفه الحركية، لكني كنت ألاحظ أنه غير مهتم وكأنه قد فقد الأمل في الشفاء أو التحسُّن الذي وعدته به، فلم أفقد الأمل أبدًا، وكنت لا أبخل عليه بأي وقت كي نمضيه سويًّا نتحدَّث في أي شيء، وحرصت تمامًا ألا أتركه وحده أبدًا مهما حدث، فإن لم أكن معه فإما أتركه بصحبة أحد من التمريض أو بصحبة نجوى التي زاد تردُّدها عليه بعد الحادث أكثر وأكثر، فكانت تجلس معه وقتًا طويلا جدًّا، رُبَّما مثلي أو يزيد، وكنت أعلم أنه يحب مجالستها وحديثها، ولم أنكر أنني أحببت ذلك فيها، وبدأت لهجتي الحادة معها تلين من وقتٍ لآخر، وأحيانًا كنت ألاحظ نظراته ناحيتنا إذا ما اجتمعنا أنا وهي معه في وقتٍ ما، فكنت أرى في عينيه

معنىً خبيثًا عندما كنت أتحدَّث معها وتفلت من عيني نظرة إعجاب أو اشتهاء ناحية جمالها وفتنتها وكل ما بها من غواية، إلى أن كانت تلك الليلة.

كان كل شيء كئيبًا في تلك الليلة، السماء مكفهرَّة وتتسابق الغيوم بها ناحية بعضها وكأنها متعطشة إلى مشاجرة عنيفة، معظم الأقسام كانت صامتة، كسل غريب يغلِّف المستشفى ومعظم من فيها، أحضرت قهوة سيئة من البوفيه لم تلبث أن بردت تمامًا قبل أن أرشف منها شيئًا، وتوجَّهت إلى القسم أقضي فيه هذه الليلة الباردة جواره حتى لا يشعر بهذه الوحدة القاسية التي بدأت تغزوني مؤخَّرًا، كانت الممرضة المسؤولة عنه في تلك الليلة واقفة تتحدَّث في الهاتف أمام مدخل القسم، وقبل أن ألومها على تركه لمحتُ نجوى من بعيد وهي تعبر أمام فراشه فلم أتكلَّم، دخلت وسلَّمت عليهما وكانت نجوى تدور في هدوء حول الفراش وكأنها تفكِّر في قول شيء ما، بادرتها بالسؤال قائلًا:

- مبروك يا دكتورة، سمعت أنك ستنتقلين إلى مستشفى أكبر وأفضل في القاهرة.

ردَّت دون أن تنظر إليَّ، وكانت لا تزال تدور حول الفراش:

ـ لا تُصدِّق كل ما تسمعه.

قلت مازحًا:

ـ أتخافين من الحسد؟ .

فضحك المريض وضحكت معه، إلا أنها قالت ببعض التحدي وهي تنظر إليَّ بعينين كلهما إغواء:

ـ أتخاف أن تفتقدني لو رحلتُ؟

أربكتني نظرتها وسؤالها بشدة، ولاحظت أن المريض يبتسم ابتسامته الخبيثة المكررة، ولم أجد ردًّا، فتابعت هي بذات الإغواء:

ـ من يترك الإسكندرية؟؟ مدينة الفتن الرائعة.

وكانت تمطُّ ذراعيها عن آخرهما، فنطق جسدها في إثارة بكامل فتنته، وهي واقفة هكذا فازداد توتري وازدادت ابتسامة المريض اتساعًا، قمت أفحص شيئًا ما على شاشة رسَّام القلب جوار المريض هربًا من نظراتها، فسمعت خطواتها تقترب مِنِّي وغمرتني رائحة عطرها

القاسية حتى شعرت بها وكأنها فوق رقبتي، وشعرت بأنفاسها الساخنة وكأنها تخترق أذني، وقالت هامسة دون أن تعطي وجود المريض أمامنا أي أهتمام:

ـ سأصعد إلى السطح لأدخِّن قليلًا وألعب مع الهواء، فرغم الغيوم، القمر الليلة بدرًا، سأرقص كثيرًا تحت السماء.

وسمعت خطواتها تبتعد من خلفي في هدوءٍ ودلال مثيرين بشدة، وكان صوت دقات قلبي يكاد أن يكون أكثر صخبًا من دقات كعب حذائها العالي، جلست بعد انصرافها جواره ألتقط أنفاسي المتسارعة وأنا أهرب من عينه، فقال هو بابتسام:

ـ لم تقل لي من قبل إن لك معجبات بالمستشفى.

فرددت بسرعة في ارتباك:

ـ ليس لي من أحد، ما الذي يجعلك تقول ذلك؟

تابع كعادته دون أن يردَّ على سؤالي:

ـ ما أجملَ التدخين في الهواء الطلِق، أراهن أن السماء الليلة صافية ورائعة والقمر مكتملًا، هذه لحظات لا تُعوَّض.

ثم ابتسم فرددت عليه مسرعًا:

ـ السماء ليست صافية، الجو ملبَّد بالغيوم، سوف تُمطر بين لحظة وأخرىٰ.

فتابع بتحدٍّ:

ـ أليس ذلك أكثر روعة؟

ـ ماذا تقصد بكلامك؟

أغمض عينيه عدة مرَّات، وبدا أنه يتثاءب ببطء وقال:

ـ لا أقصد شيئًا، أو أقصد أنني سأنام ولا أريد منك أن تُزعجني، لو كنت ستجلس فأرجو أن تبقىٰ صامتًا تمامًا، أو اذهب لتفعل ما تشاء لكن لا تُزعجني بحديثك أو حركتك.. أرجوك.

وأغلق عينيه تمامًا وبقوة، لم ألمح وقتها أن هذا تحسُّن ملحوظ في عضلات وجهه، إنما قلت له مداعبًا:

ـ لا أحب أن أتركك وحدك، أم أنك اعتدت مجالسة دكتورة نجوىٰ وأصبحت تملُّ حديثي.

لم يردَّ وتثاءب مرَّة أخرىٰ فعلمت أنه يودُّ طردي بهدوء،

فمكثت جواره قليلًا إلى أن قال بصوتٍ خافض جدًّا:

ـ نور، من فضلك اذهب، لا تكن غبيًّا هكذا.

تردَّدت قليلًا، ثم وجدتني لا أستطيع أن أقاوم نفسي، فقمت بهدوء وخرجت من القسم، وكان كل شيء بالخارج ساكنًا كالقبر، بقيت واقفًا لحظات أفكر، وكان الملل يجثم على روحي، توجَّهت إلى المصعد وأنا أجرُّ قدميَّ اللتين لا تطاوعاني، ثم دلفت إليه قاصدًا سطح المستشفى.

عندما عُدتُ بعد حوالي ساعة ومن خلفي نجوى نكتم ضحكاتنا سمعنا صوت جهاز القلب المتصل بالمريض يصرخ دون أن يوجد أحد جواره، فهرعت إليه لأجد الفراش غارقًا في دماء كانت تسيل من شريان معصم المريض، وقد سكنت أنفاسه تمامًا.

* * *

كان الطريق إلى القاهرة طويلًا، وكنت أخشى بشدة أن يرحل منير من الجاليري قبل أن أصل، وتمنَّيت أن يكون صوتي المرتعش وارتباكي بعد أن حادثته كفيلًا بأن يجعله ينتظر إذا ما تأخرت، كنت أحتاج

إلى أن أتكلَّم مع أي شخص، أو أشعر فقط بمجرَّد
وجود أحد أثق فيه جواري، ولم أكن أثق سوى بمنير
ونوران، وددت لو أذهب إليها لأخبرها عن الذي
حدث في المستشفى، أن ألقي بنفسي تحت قدميها
وأخبرها بأنني قد قتلت مريضًا تلك الليلة بإهمالي
وسعيي وراء رغبتي القذرة، كيف سوَّلت لي نفسي
أن أتركه وحده هكذا، وأنا أعلم جيِّدًا أن نفسيته
كانت غير سوية، وسوف يُقدِم على الانتحار في أول
فرصة تسنح له؟ كيف لم ألحظ ذلك التحسُّن الذي
حدث له طيلة الأشهر الماضية؟ وأنه أصبح قادرًا
على تحريك يديه ولو بصعوبة، هل أنا سيئ إلى هذا
الحد؟ يا لجرمي وفحشي، تركت العجوز المريض يلقى
حتفه وأنا أعبث مع تلك الماجنة، لكني لا ألومها في
شيء، أنا من صعد وراءها وقد كان يمكنني ألا أفعل،
أنا من علِمَ عن نية العجوز في الانتحار منذ حاول
ابتلاع لسانه واعتبرها الجميع مجرَّد حادثة عابرة، بل
والأسوأ من ذلك، والأكثر جُرمًا، أنا الوحيد الذي
علِمَ هويته وتركتهم في المشرحة يكتبونها «مجهول»
في خانة الاسم بشهادة الوفاة التي لن يتسلَّمها أحد

بسبب ذلك العهد الأحمق الذي قطعته على نفسي أمامه، لم أعد أدري ما الذي يجب عليَّ أن أفعله الآن، أي شيء في الدنيا يمكنه أن يكفِّر عن ذلك الإثم الذي أتيت؟ كم كان منظري قبيحًا وأنا أخبرهم في المستشفى عندما سألوني عن مكاني عندما قام بالانتحار وأنا أردُّ بمنتهى الحقارة كأي مجرم وضيع أنني كنت أشم الهواء فوق سطح المستشفى، لكم أحتاج أن يصفعني أحدهم فوق وجهي، أن يأخذني من رأسي ويلقي بي في أقرب مقبرة ويدفنني حيًّا جزاءً لما فعلت، هل أطلب ذلك من منير؟ هل يساعدني على دفن نفسي حيًّا؟ هل سيساعدني في شيء عندما أحكي له؟

كنت في القطار، ولم أكن أعلم ماذا سأفعل، لكني كنت أرغب فقط أن أرى منير أمامي، وجدت قدمي ترتعش أكثر من مرَّة وأنا بالقطار وترتطم بجاري في المقعد وسط نظراته المتعجبة، فاعتذرت أكثر من مرَّة، وتذكَّرت أيام المزرعة والنوبات، ارتعبت بشدة من فكرة أن تعود نوبات الصرع لتهاجمني مرَّة أخرى بعد أن كنت قد نسيتها تمامًا، إلا أنني بيني وبين نفسي وبعد وقت قليل أدركت أنها ستكون عقابًا رائعًا لي بعد ما فعلت.

فور أن رأيت منير أمامي علمت أنني كنت واهمًا تمامًا، لن أستطيع أن أتكلَّم أمامه أو أمام أي أحد، كان يتكلَّم ويروح ويجيء في الجاليري وأنا لا أكاد أراه أو أسمعه، وكنت أتساءل بيني وبين نفسي وقتها كيف أغامر بكشف جريمتي هذه أمام صديقي الوحيد في هذه الدنيا؟ كيف سيراني بعد أن أحكي له؟ هل يمكن أن يتفهَّمني؟ هل أغامر بذلك؟ أم سيراني كما أرىٰ نفسي أو أشد سوءًا، هل سيعود منير كما كان قبل أن أحكي له؟ كيف أغامر بمعزَّته لي؟ يا لي من غبي؟ ظننت أن ما بيني وبينه قد يتيح لي أن أتعرَّىٰ بجرمي أمامه بسهولة هكذا، ما هذا الذي فعلته بنفسي، إلىٰ أين أذهب بهمي الثقيل هذا؟ إلىٰ أين؟

كانت ساقي ترتجف بشدة وتخرج كلماتي لمنير دون صوت وخيال المريض الغارق في دمائه والمشرط الملقىٰ تحت الفراش أمامي يروح ويجيء، ومن خلفه أرىٰ أبي في المزرعة وهو يشير بهدوءٍ وصمت ناحية الطائر الأبيض، ثم يظهر منير واضحًا لتختفي صورة أبي والمزرعة وتزداد قدمي ارتعاشًا ومنير يصرخ فيَّ: «ما بك؟ تكلَّمْ»، ويهزُّني بشدَّة إلىٰ أن سقطت أرضًا فريسة

نوبة الصرع الجديدة بعد أن كنت نسيتها منذ زمن.

في اليوم التالي وبعد خروجي من المستشفى ودَّعت منير على عجل، وتعمَّدت ألا أذكر شيئًا عمَّا حدث الليلة الماضية، وتفهَّم هو رغبتي في عدم الكلام خاصة بعدما أخبره الطبيب أن يُبعدني عن أي ضغطٍ عصبي قد يتسبَّب في عودة النوبة مرَّة أخرى، وفي طريق العودة إلى الإسكندرية أدركت أنه لم يعد أمامي من شيء أفعله لنفسي سوى تنفيذ وصية المريض كاملة، كما طلبها مِنِّي دون تدخُّل.

عُدْت إلى المستشفى وصعدت إلى سكن الأطباء في عجل، أحضرت المفتاح الذي أخذته منه في تلك الليلة، وجمعت ما يهمُّني من أغراضي القليلة، ثم تناولت ورقة وكتبت عليها استقالتي من المستشفى دون إبداء سبب، وقبل أن أنهيها نظرت إليها بتقزُّز ثم مزَّقتها وألقيت بها من النافذة، وأنا أنظر إلى الغيوم الشديدة المتجمعة في السماء وزخات المطر الخفيفة التي تتطاير بين لحظة وأخرى، وقلت لنفسي: «لا يهم، الجميع هنا يعرف من قتله بإهماله، لا داعي لمزيد من المراوغة»، ثم خرجت جريًا من المستشفى وأقسمت ألا أعود

إليه ثانية، استقليت تاكسي وطلبت من السائق التوجُّه إلى محطة الرمل على عجل، وكنت أمسك بالمفتاح بين أصابعي أتفحَّصه، وأنظر إليه في فضول وخوف.

لم آخذ وقتًا طويلًا في البحث عن العمارة التي وصفها لي المريض، كانت تقع في شارع سعد زغلول أمام مدخل خلفي لأحد الفنادق، دخلت المبنى دون أن أجد من يسألني عن وجهتي، صعدت إلى الطابق الرابع، وأولجت المفتاح في باب الشقة وقلبي يتقافز داخل صدري، ثم دخلت وأغلقته خلفي وألقيت بنفسي فوق أقرب مقعد وجدته ألتقط أنفاسي، ثم أخذت أتفحَّص الشقة بعيني.

بقيت هكذا بضع دقائق، ثم دلفت إلى الغرفة المُطِلَّة على البحر وكان صوت الرعد عاليًا بالخارج ونافذة الغرفة غير محكمة الإغلاق تنذر بأن تتحطَّم أمام تيارات الهواء القوية بين لحظة وأخرى، وجدت الحقيبة التي أخبرني عنها، فأخرجت ما بها من ملابس وبحثت عن الأوراق التي حدَّثني عنها، فوجدتها ثم فردتها جميعًا أمامي على الفراش وأخرجت من بينها تلك الأوراق التي تخصُّ حبيبة.

قال لي المريض ليلتها وهو يُخفض من صوته إلى أقصى درجة:

- لن أستطيع أن أقول لك عن السبب الذي يجعلني أخفي عنها أمري، يمكنني أن أقول لك فقط إن هذا أفضل لها بكثير، هي لن تستطيع أن تساعدني في شيء، ويكفيها ما جرى لها بسببي، أفضل ما يمكن أن يحدث لها في حياتها الآن هو أن أختفي منها، وها قد حدث ذلك، لكن القدر وحماقتي وتسرُّعي في إلقاء نفسي أمام تلك السيارة دون تفكير لم يسعفني في ردِّ آخر ديوني لديها، أو أهمها، فأنا بالفعل لن أستطيع ما حييت أن أعوِّضها عمَّا سبَّبته لها من أذى.

ثم صمت وتحشرج صوته وغلب الحزن العميق نبرته، فشعرت بأنه سيبكي، وددت لو أتركه لثوانٍ مع نفسه ثم يكمِّل كلامه فقلت:

- سأحضر لك كوبًا من الماء.

ردَّ معترضًا:

- أنا بخير، دعني أكمل، ما يهم الآن هو أنني كنت أنوي أن أعيش جوارها هنا في الإسكندرية قبل الحادث،

واشتريت شقة في محطة الرمل، كنت أودُّ أن أبقى جوارها أراقبها من بعيد لأطمئنَّ عليها ووليد ابنها دون أن تشعر، وكنت سأرسل لها أوراقًا مهمة للغاية، أهم من حياتي نفسها، لكني في لحظة ضعف ويأس ألقيت كل شيء ونزلت من الشقة قاصدًا الموت بعد أن رأيتها من بعيد هي وحفيدي وليد ولم أستطع أن أناديهما أو حتى أن أظهر أمامهما، ليتك تعلم كم كان هذا قاسيًا يا نور.

ـ أشعر بك صدِّقني.

ـ مستحيل، لا أحد يمكن أن يشعر بذلك سواي، لا يهم، ما حدث قد حدث، ما يهم الآن هو أن تلك الأوراق لابد وأن تصل لحبيبة، لابد أن تصل إليها في يديها، ولم أعد أعلم هل يمكنني أن أراها ثانية لأسلِّمها تلك الأوراق بنفسي أم لا، حتى تلك الرغبة البسيطة، أن أعطيها تلك الأوراق بيدي صارت مستحيلة بعد الحادث.

لم أستطع أن أكتم ما يدور في نفسي تجاهه فقاطعته قائلًا:

ـ لقد قلت لك من قبل سوف تتحسَّن حركة يديك عمَّا قريب.

ـ لا أعلم، ليس هذا بالشيء المؤكد، قد يحدث ذلك وقد لا يحدث، قد أموت قبل أن أحرِّك إصبعًا من يدي، أريد أن أتأكد أن هذه الأوراق ستصل لحبيبة لو طال أمر مرضي هذا أو مُت.

ـ ستعطيها الأوراق بنفسك إن شاء الله، أعدك بذلك.

ـ بل أريدك أن تعدني بشيء آخر.

ـ ما هو؟

قال بتوسُّل شديد:

ـ أريدك أن تعطي هذه الأوراق لحبيبة، أن تتأكد من تسلُّمها الأوراق بيديها لو لم أستطع أن أفعل أنا ذلك أو لو حدث لي شيء، هل تعدني بذلك؟

تردَّدت قليلًا قبل أن أردَّ وقد أشفقت عليه بشدة:

ـ أعدك بذلك، لا تقلق.

ـ وهل تعدني أن يبقى ما جرى بيننا سِرًّا، وألا تُعلم

حبيبة عن أمري أي شيء مهما حدث لي؟

أخذت أفكر في طلبه كثيرًا وأنا أعلم صعوبة ما يطلب، كان شيء ما داخلي يدفعني أن أفعل له ما يريد، لكني كنت أشعر بشيءٍ من التوجُّس فيه، وكنت بعد ما قاله لي قد أصبحت مشاركًا له في إخفاء هويته عن الجميع هنا، وعن ابنته أيضًا، لاحظ تردُّدي وتفكيري الطويل فقال بيأس:

ـ يمكنك أن تعتبر نفسك لم تسمع شيئًا، لكنك مسؤول على الأقل أن تلتزم بوعدك الأول أمامي بألا يعلم عَنِّي أحدٌ أي شيء، الآن على الأقل، لقد وعدتني بذلك.

وكانت لهجته قد غلبها توسُّل شديد وشعرت بضعفه الحقيقي وهو يتكلم رُبَّما لأول مرَّة منذ أتى إلى هنا رغم ما به، فقد كان يتسم بالصلابة والسخرية الدائمة طوال الوقت، لكنه بعد هذا الحديث وبعد أن صار وجعه عاريًا أمامي صرت أشعر بضعفه الشديد وقلة حيلته، تمامًا كاليوم الذي رأيت فيه أبي وهو يتوسَّل لأمي أن تُسامحه وتغفر له وهي تُحتضر بين يديه وهو يبكي ويتعلَّق بذراعها كالطفل الوليد متوسلًا إياها

ألا تتركه وحيدًا دون أن يخجل من وجودي ونوران أمامهما، لكني لم أستطع أن أغفر له أيامها.

فكَّرت كثيرًا قبل أن أوافق على طلبه، قلت لنفسي رُبَّما هذه فرصة لي كي أجمعهما ببعضهما ثانية، فقد بدا واضحًا في كلامه إحساسه الشديد بالذنب تجاه ابنته، فخانني غروري وشعرت بأنني يمكن أن أساعده في شيء بتنفيذ رغبته الغريبة هذه، قلت له مفكِّرًا:

ـ ماذا تريدني أن أفعل تحديدًا.

قال بلهفة وقد بدا عليه الامتنان الشديد:

ـ أريدك أن تُبقي ما بيننا سرًّا، إلى أن تتحسَّن حالتي يومًا، فتجلب لي هذه الأوراق لأسلمها بنفسي لحبيبة، أو أن تحرص أنت أن تتسلَّمها هي بنفسها دون أن تعلم عَنِّي أي شيء، سيبقى هذا المفتاح معك وسأعطيك عنوان الشقة حتى لا ندع فرصة للظروف أن تحول دون وصول الأوراق إليها.

هززت رأسي موافقًا وقلت:

ـ لك ما تطلب، هل من شيء آخر يمكنني أن أفعله لك؟

ـ لا شيء سوىٰ أن تفي بوعدك لي، لا شيء أبدًا.

ـ لا تقلق إذًا، سيكون كل شيء كما ترغب تمامًا، والآن قل لي بالضبط أين تقع هذه الشقة؟

فأملاني العنوان ومكان الشقة بالتفصيل.

أضاءت الغرفة بشدة بسبب نور البرق بالخارج، ثم تلاها صوت الرعد أقسىٰ ما يكون، وأخذت نافذة الغرفة في شقة المريض تتخبَّط في بعضها مقاومة تيارات الهواء الشديد، أمسكت ورقة مكتوبة بالإنجليزية عليها صورة فتاة غاية في الجمال والرقة، وقرأت اسم حبيبة الواضح علىٰ يمين الصورة، وكانت أوراق أخرىٰ بها متعلقات مالية وأرقام حسابات في البنك وأشياء عديدة لا أفهمها تحتاج إلىٰ فحص طويل ودقيق، شعرت بالهمِّ الثقيل تجاه ما يجب عليَّ أن أفعله، كان كلام المريض واضحًا ومؤكدًا، يجب أن تتسلَّم حبيبة هذه الأوراق بنفسها، نظرت إلىٰ صورة حبيبة مرَّة أخرىٰ، واقشعرَّ بدني وأنا أرىٰ صورة الفتاة التي مات والدها بسبب إهمالي، وقد تحتَّم عليَّ أن أعطيها تلك الأوراق وأتأكد من تسلُّمها إياها، ضاق صدري وأحسست بجوع شديد للهواء وكدت أختنق من الهمِّ فقمت واتجهت

إلىٰ النافذة وقبل أن أقترب منها دفعها الهواء تجاهي بعنف وطارت الستائر في وجهي ووجدت البحر أمامي، وكان تمثال سعد زغلول بالميدان بيننا وصراخ الموج مدوٍّ كالمدافع وكأنه يلعنني، وكانت يافتة فندق «كليمنت هاوس» في الناصية المجاورة تضيء في زهوٍ ولم أكن قد عرفته بعد، شردت في المريض وأخذت أتخيَّله وهو يمزِّق شرايينه بيده التي أخفىٰ عليَّ تحسُّن حالتها نتيجة إهمالي، كنت أتخيله وهو يغرق في دمائه التي تسيل وأنا أعبث مع نجوىٰ فوقه ببضعة طوابق وأخذت أنظر للبحر وأرغب بشدة لو يخرج موجه كي يبتلعني ويدفنني في قاعه.

غِبْت بأفكاري في صفحة الماء القاتمة كثيرًا ووجدتني أتساءل عن المريض مرَّات ومرَّات، ترىٰ ما الذي كان يفكر فيه وهو يقتل نفسه؟ هل ظَلَّ متماسكًا حتىٰ النهاية في قراره أم تراجع في اللحظة الأخيرة لكنه لم يجد من يسعفه؟ هل نادىٰ باسمي وأنا هناك مع نجوىٰ لا أسمعه؟ هل لو كنت تابعت حالته بصورة أفضل وليس كما كنت متوهِّمًا كان يمكن أن يتحرَّك ليذهب هو إليها ويعطيها هذه الأوراق؟ ما هذا الذي

فعلت؟ كيف أكون بهذه البشاعة دون أن أعلم؟

أضاءت السماء بمنتهى العنف وصرخ الرعد مرَّة أخرى، وارتعشَتْ مع صراخه يدي وقدمي وجسدي كله، أخذت أصرخ في غضب وفي ألم ثم ألقيت بنفسي على أرضية الغرفة وتكوَّمت حول جسدي كالذبيحة واستسلمت للنوبة الثانية، وأيقنت أن هذه النوبات سوف تصاحبني مع ذنبي ما بقيت.

أفقت بعد ساعة وجسدي يغزوه الضعف وأخذت أتخبَّط حتى وقفت على قدمي، ثم جمعت الأوراق واتخذت قراري بأن أذهب إلى حبيبة وأخبرها بما حدث وليكن بعدها ما يكون، لن أستطيع أن أعيش بعقدة الذنب هذه دون أن أعترف أمامها بما كان، قضيت الليلة في الشقة حتى بزغ الفجر، ثم خرجت وتوجَّهت إلى عنوان منزلها المكتوب في الأوراق.

وقفت أمام المنزل طويلًا لا أعرف ماذا أقول وماذا أفعل؟ كيف أبدأ الكلام؟ هل أصعد إليها أعطيها الأوراق وأرحل ثم أرسل لها بعد ذلك أحكي عمَّا حدث أم يجب أن يكون الاعتراف بجريمتي كاملًا

أمامها لعلّي أتطهّر من بعض ذنبي؟ هل أمتلك من الجرأة ما يساعدني على فعل ذلك؟ كان القرار شاقًا وقاسيًا، والتنفيذ شبه مستحيل، لكني كنت أعلم أنني لن أهدأ ولو قليلًا قبل أن أفعل ذلك، وقفت على ناصية الطريق أمام منزلها، وجمعت ما بقي في جسدي من قوة، وهممت بأن أتوجه إليها، وقبل أن أتحرَّك فوجئت بها تخرج من باب المنزل وفي يدها ذلك الملاك الصغير، وكانا يضحكان في عذوبة ورقة، يا الله يا حبيبة، كم كنتِ جميلة في تلك اللحظة، لماذا كنتِ بهذا الجمال؟ بل كيف كنتِ بهذا الجمال؟ لماذا لم تكوني فجَّة صاخبة كنجوى أو هادئة وقوية كزُهرة؟ رُبَّما كنت أستطيع ساعتها أن أعبر الطريق إليك أسلِّمك الأوراق وأهرب أو أسلِّمك الأوراق وأعترف بما حدث، فلا أنجرف إلى ما صرت عليه الآن، أذكرك تمامًا كأنه الأمس وأنت تميلين على وليد تداعبين شعره بيدك الرفيعة وتقبِّلينه كل دقيقة، والشمس تسقط على وجهك ليزيد ضياءً وبهاءً، عندما رأيتك لم أدرِ بنفسي إلا بعد أن أشرتِ لسيارة أجرة وركبتِ أنتِ ووليد، ومررتما من أمامي وابتسم لي وليد ابتسامة لم أنسها أبدًا.

اختلطت الأمور في رأسي تمامًا بعد أن رأيتكِ، لم أعترف لنفسي أبدًا أنني عشقتك في تلك اللحظة بمجرَّد رؤيتي لك، وكيف أعرف العشق وأنا لم أذقه من قبل؟ وكيف أعرف عن عشقك أنتِ ويدي لم تجفَّ بعدُ من دماء أبيك؟ كل ما استطعت أن أعترف لنفسي به وقتها أنكِ كنتِ شديدة الجمال، وقد خانتني قدماي فلم أستطع أن أقدم على مجرَّد التحدُّث معك، قضيت النهار كله جالسًا أفكِّر على مقهى مجاورٍ للمنزل منتظرًا عودتك، وقد وجدت الأمر أشدَّ صعوبة مما تخيَّلت، وقضيت الأيام التالية أراقبك وأنت تخرجين من المنزل إلى الملجأ أو إلى الحضانة مع وليد وإلى تلك المنظمة.

كانت لهفتي عند رؤيتك تروحين وتجيئين هي ما جعلني أقرِّر أن أتقرَّب إليك بأي طريقة، قضيت الأيام أسير وراءك إلى الملجأ وإلى مقرِّ المنظمة، عندما تذهبين للتسوُّق وعندما تأخذين وليد تتمشيان على البحر، وكلما أقدمتُ على محادثتك منعني خوفي وظهر وجه أبيك أمامي ليجعلني أتساءل ما الذي سأقوله لكِ؟! لم أستطع أن أقترب منك حتى لأعطيك الأوراق التي تخصُّك، فقط وضعتها في صندوق البريد الخاص بك

في المنزل، وتأكدت بعيني أنك أخذتِه كما طلبَ والدك، ثم قررت أن أختفي، وفي نفس الليلة بدأت تهاجمني الأحلام.

كنت أرىٰ طيورًا بيضاء تلقف حَبًّا من فوق شاهد قبر وتلقي بها بعيدًا لتنبت صبارًا طويلًا ينمو سريعًا جوار القبور الأخرىٰ، ثم تطير من قبر لآخر لتكرِّر ما تفعله، وفي مرَّة أخرىٰ يستدير أحد الطيور ينظر إليَّ لأجده يحمل وجهك يصرخ في أنني قاتل وجبان، وكنت أفيق من الحُلمِ غارقًا في البكاء وأحيانًا ما كنت أخرج من الحُلمِ لأدخل في نوبة قاسية تتركني طريح الفراش كالجثة الهامدة.

علمت أنني لن أستطيع تجاوُز الأمر مهما فعلت، فعدت أراقبك من بعيد وأنا لا أعلم ما الذي سيخرج مِنِّي إليك في أول مرَّة سأحدثك فيها، وعندما وجدتك تتردَّدين علىٰ القنصلية الأمريكية أكثر من مرَّة، وكنت قد لمحت إعلان تلك المنحة عند مدخل المنظمة، شككت في أنك رُبَّما كنت تنوين السفر، فغمرني الخوف من أن ترحلي قبل أن أعرفك، وقبل أن أعترف بين يديك بما حدث، وأطلب منك أن تغفري لي خطيئتي التي ارتكبت.

لم أتردَّد كثيرًا وتقدمت إلى المنظمة بالأوراق المطلوبة بعد أن تأكدت من وجود اسمك في لائحة المتقدمين للمنحة، وجدتها فرصة للتقرُّب منك أكثر دون خوف من أن تشكِّي في أمري كلما رأيتِني، وعندما اقتربتِ مِنِّي أول مرَّة في السفارة يوم المقابلة الشخصية، كدت ألقي بنفسي تحت قدميك وأعترف لكِ بكل شيء وأطلب منك المغفرة أو القصاص كيفما ترين، أخذت أنظر إليك من بعيد وأنا أفكِّر في طريقة أتعلَّل بها لأحدِّثك، فإذ بكِ تأتين إليَّ وتطلبين مِنِّي مساعدتك في الاعتناء بوليد حتى تنهي مقابلتك، وعندما افترقنا بعد لقاء السفارة بعد اتفاق على لقاء قريب علمت أنني لن أستطيع أن أخبرك ما حدث أبدًا، لكن أكثر ما علمته وقتها أنني قد أحببتك، ولم تكن تلك هي جريمتي الأولى، لكن أسوأ ما جنته يداي هو أنني تركتك تحبينني تلك الأيام.

آه يا حبيبة، كانت أيامًا صعبة وقاسية، كنت أشعر أنني أسبح في بئر عميق، فلا شاطئ يُرشدني إلى البَرِّ، ولا موجَ يغلبني لأغرق وأستريح، وبعد أن غرقت فيكِ تمامًا وجدتني أعدُّ الأيام انتظارًا لموعد سفرك؛ للبحث

عن والدك الذي لن تجديه أبدًا، ولم أجد في نفسي مبررًا يجعلني أمنعك من التعلُّق بذلك السراب حتى لا تعيشي بعُقدة الذنب مثلي تجاه والدك كما سأعيش أنا ما بقي لي من العمر، فوجدتني أشجِّعك على السفر وأقنعك بأنني سأرحل معك، كنت فقط لا أعرف ماذا سأفعل بعد أن ترحلي؟ وإلى أي حدٍّ سأفتقدك؟ لكني كنت أيضًا لا أحتمل النظر إليك طوال الوقت وأنا أخفي في نفسي جريمتي تجاهك وتجاه والدك.

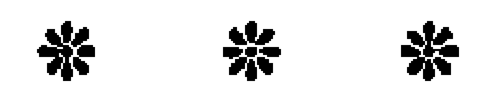
* * *

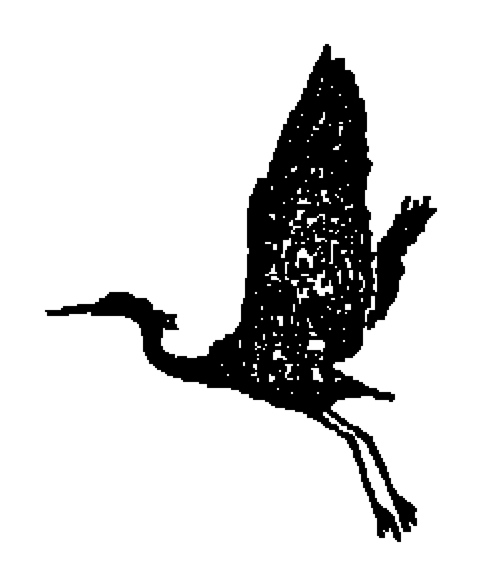
كانت زُهرة تصرخ باسمي وأنا ممدَّد على الرصيف في الميدان وجسدي كله يرتعش كما لم يسبق له من قبل في أي نوبة ماضية، رُبَّما أكثر عنفًا من أول نوبة أتتني في حياتي.

كان هذا منذ متى؟ لم أعد أذكر، كان بالأمس أو اليوم، كان يحدث الآن ويحدث منذ أيام المزرعة، لا يهمُّ، كان يحدث، وكنت أنا من تسبَّب في كل شيء كل مرَّة، كان الطائر الأبيض الجميل ذو العنق البيضاء الطويلة يقف قريبًا جدًّا، وكان أبي جواري يهمس في هدوءٍ أن أركِّز جيِّدًا وأنا أصوِّب عليه، وضعت البندقية أمام عيني وأغلقت الأخرى فبدا لي أقرب وأجمل، أحسست بثقل البندقية بين يدي ونظرت مترددًا إلى أبي، فنظر إليَّ في غضب نتيجة تردُّدي الواضح، نظرت إلى الطائر ثانية، وشعرت بتلك الرعشة الخفيفة في قدمي، ثم ثبتت إصبعي فوق الزناد وصوَّبت جيِّدًا ناحيته، وقبل أن أضغط نظر الطائر إليَّ بعينيه الصغيرتين، ثم ضغطت الزناد دون أن أدري ولم أفهم ماذا حدث.

اختفت عيناه وظهر شعاع الشمس واضحًا مكانها، وكأن الطائر يضيء من رأسه، وسال خيط رفيع من

الدم فوق عنقه الطويل، ثم تكوَّم في مكانه وسقطت أنا وراءه، وكانت أمي تصرخ، فينهرها أبي في شدة فتصرخ أكثر فيصفعها على وجهها، أكاد أسمعها تصرخ الآن وكأنها جواري، أم أن هذا هو صوت زُهرة؟ لا أدري، أفتح عينيَّ الثقيلتين الراغبتين في الرحيل، فأرى زُهرة التي تصرخ وأرى نوران بشالها الأبيض وسط الناس الملتفِّين حولنا في الميدان، فأنادي على حبيبة ثم تهزني زُهرة بشدة وترفع رأسي،وهي تهتف باسم منير، مستغيثة فأفتح عينيَّ ثانية أبحث عن وجه نوران فلا أجده، فأنادي مرَّة أخرى على حبيبة، وأنا أنظر ناحية السماء، ثم يسقط رأسي بعنفٍ على قدم زُهرة لألمح أناسًا في الطريق يعبرون.





تمَّت

الإسكندرية

إبريل ٢٠١٣

شكر خاص إلى الأصدقاء المخلصين في دار «دوِّن»:

- محمد مفيد
- أحمد مهنى
- أحمد البوهي
- مصطفى الحسيني
- أحمد رويحل
- أدهم رويحل

وإلى الطيـبين الرائعين، لولاكم:

- مصطفى الفرماوي
- أحمد مراد
- أحمد أسامة
- إنجــي عصام
- آلاء سنان
- محمد البري
- مايسة عبد الرحمن
- كريم آدم
- محمود الغنام

أحمد سلامة

صديقنا قارئ هذا الكتاب

قبل أن تغلق الكتاب دعنا نتفق على عدة أشياء، واثقون من أنها سترضيك.. دعنا نتفق على أن القراءة دُرَّة أنعم الله بها علينا، ووهبنا إياها، تلك اللذة المميزة - والتي لم يمنحها للبعض، وهي لذة الاستمتاع بالقراءة.. نحن نقرأ ونتعلم، نقرأ ونُخبِّر حكايات الآخرين، نقرأ ونختصر خبرات العالم في بضع صفحات، نقرأ ونتفق، نقرأ ونختلف، نقرأ ونقرأ ونقرأ... لكن الأكيد! أننا نقرأ ونستمتع..

لذلك،،،

لا تدع تلك اللذّة النادرة تقف عندك، لا تدع هذا الكتاب يتوقّف بين يديك بعد الانتهاء منه، فهناك الكثيرون ممن لم يقرأوه، أو لا يمتلكون ثمنه، أو من لم يسمعوا عن هذا الكتاب.. خبّرهم عن تلك اللذة الشيقة، والمتعة النادرة التي لا يعلمونها.

مرِّر هذا الكتاب إلى أهل بيتك، صديقك، جارك، زميلك في العمل، أو حتى شخص ما في المواصلات العامة لم تره من قبل!!

كن سبيلا في إسعاد الآخرين بهذا الكتاب، ولا تتعجّب عندما تجد كتابًا لم تقرأه من قبل يأتيك من أحدهم وهو يخبرك بدوره عن متعة القراءة بعد ذلك بحين من الزمن.

دار دَوِّنْ

للتواصل مع المؤلف

www.facebook.com/mahatet.alraml



محطة الرمل

عندما يسيطر الحزن العميق على الجميع، فيسعى كل طرف للبحث عن لحظة للوصول تهدأ فيها روحه ولو قليلاً..
إلا أن "نور" تتضاعف أزمته رغماً عنه كلما سعى إلى السكينة، ويتعرض "منير" لاتهام خطير يهرب بسببه فترة طويلة، حتى يصل به الشك والترقب حد الجنون، فيعود إلى سابق عهده القديم، أو أشد سوءاً، وتبقى "زُهرة" تعاني مرارة الوحدة والخيانة، وأمنيات الثأر والانتظار.. لكن الخيوط كلها ترفض أن تتضح، فتبقى الجريمة غير كاملة، والقتل لم يحدث.
تظل الحقيقة مستترة حتى اليوم المرتقب.. يوم سفر "حبيبة".. ذلك اليوم الذي تنكشف معه أغلب الحقائق.. ليسيطر الحزن من جديد.

تصميم الغلاف كريم آدم



